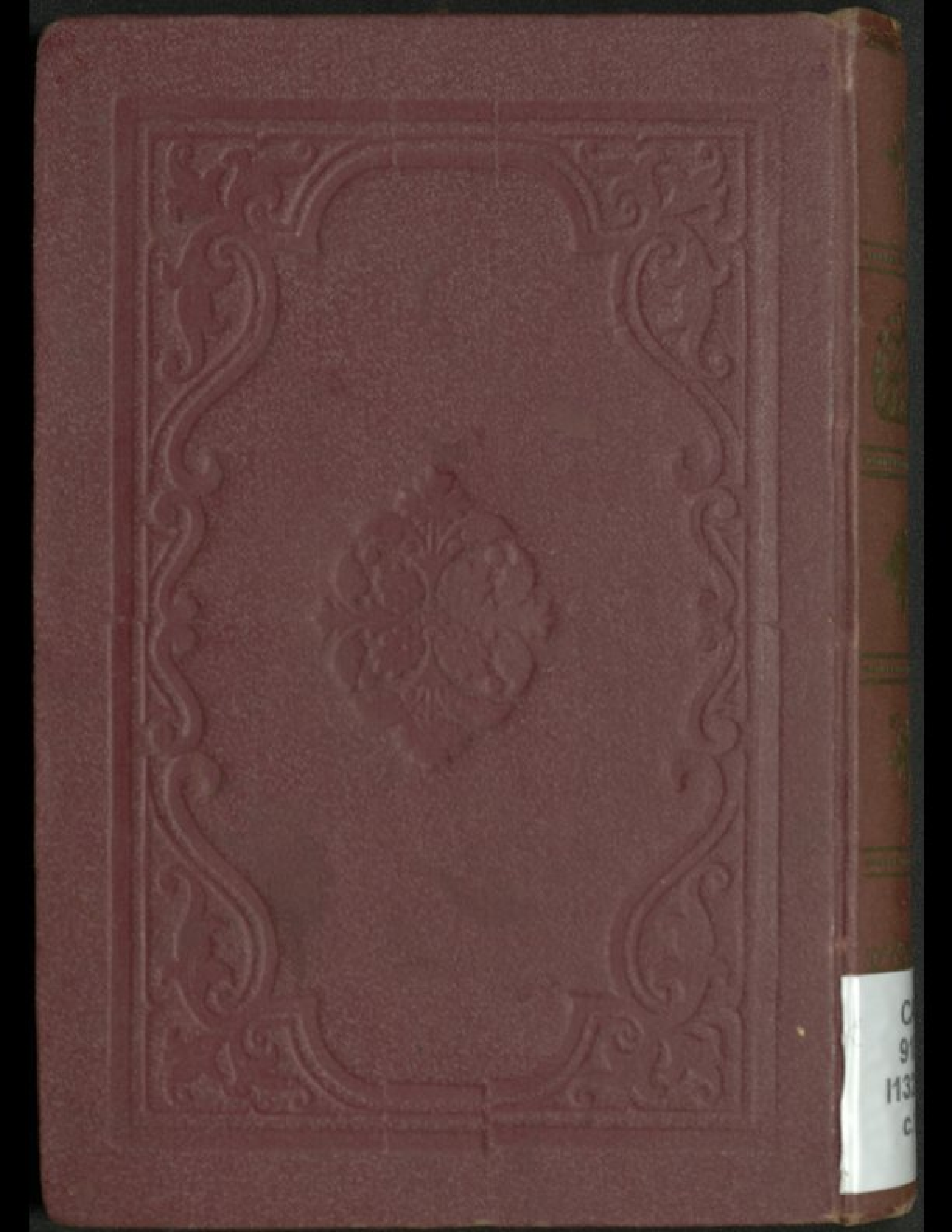
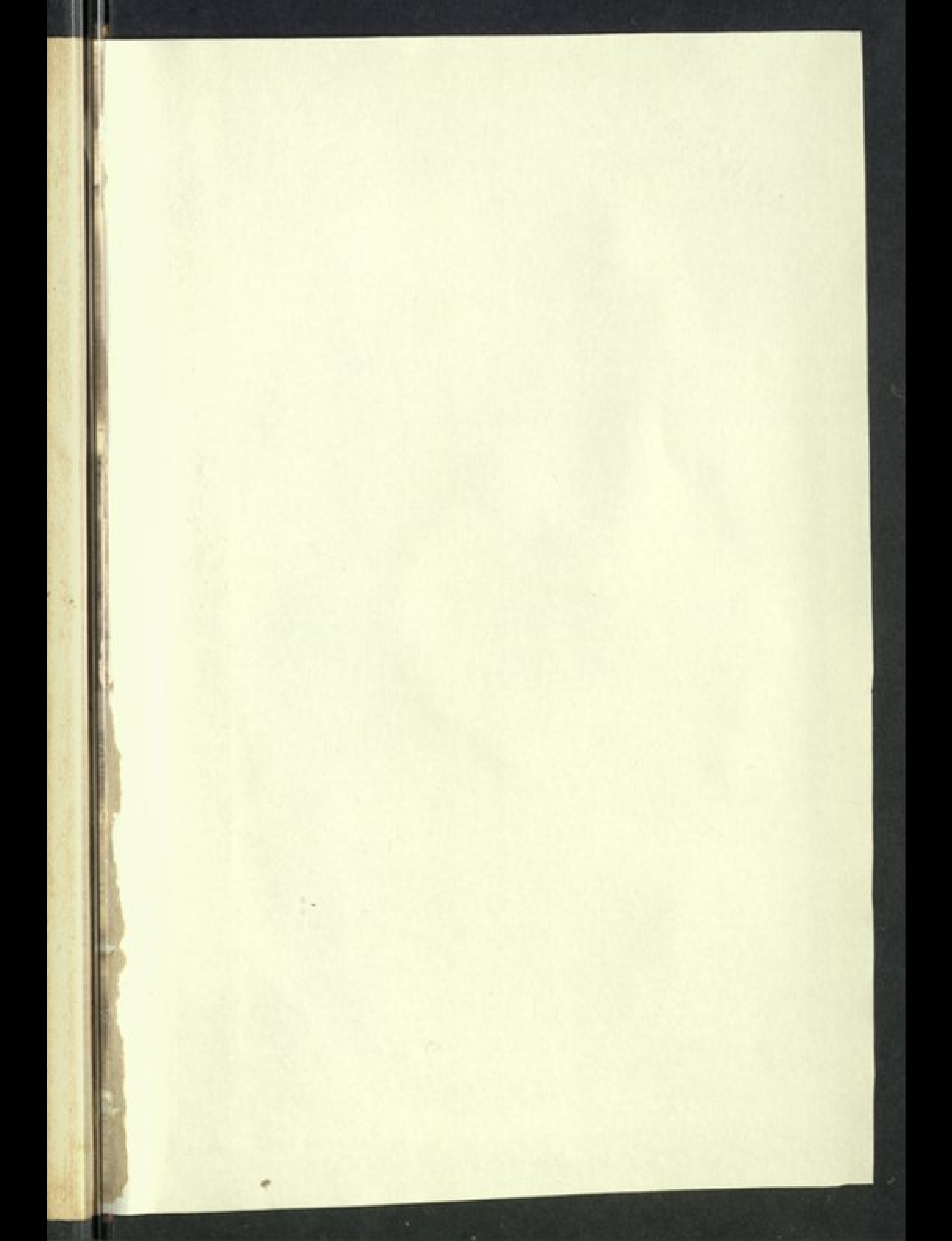
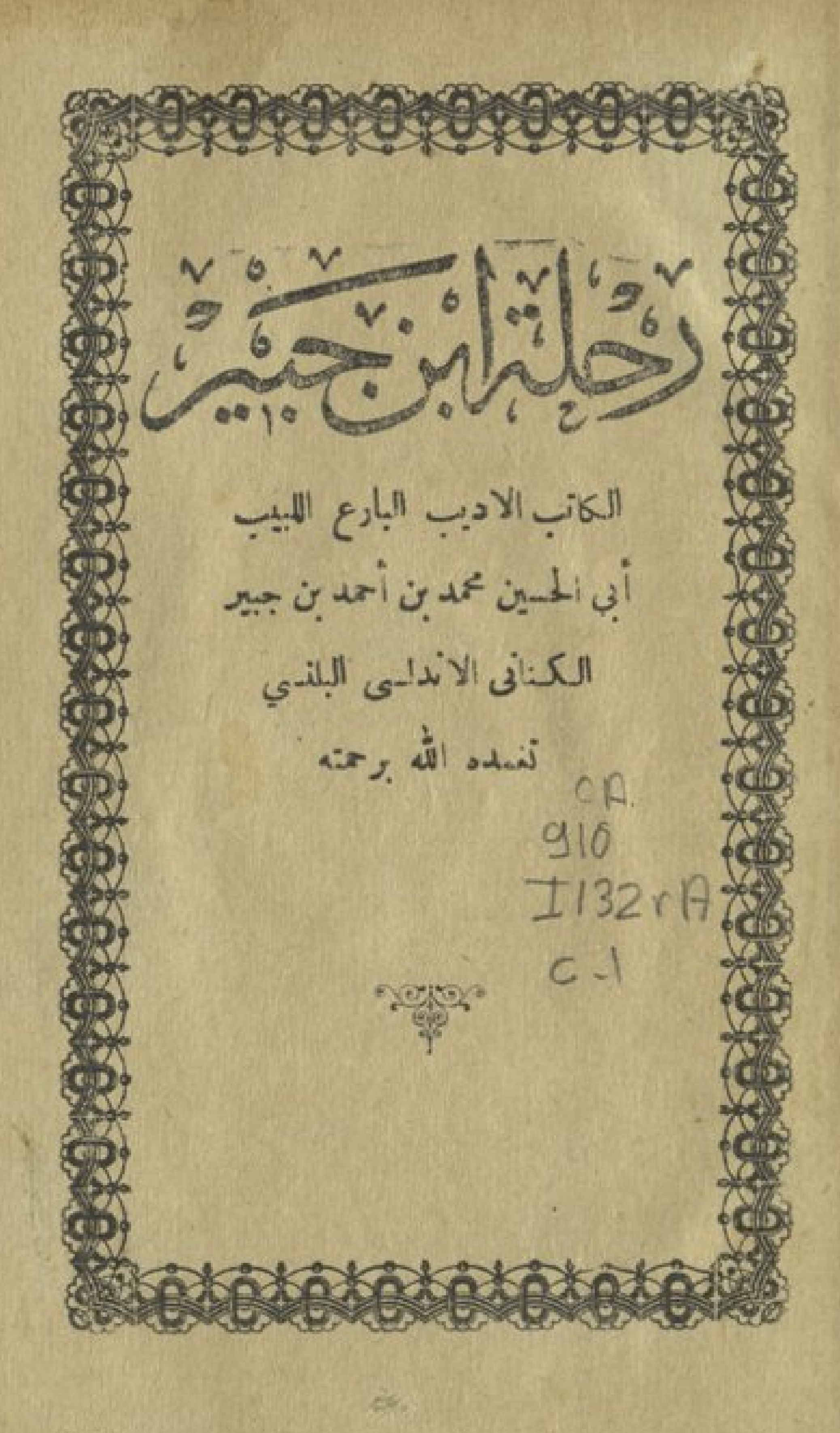






رحلة ابن جبير

الكاتب الاديب البارع اللبيب

أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير

الكناني الاندلسي البلنسي

تغمده الله برحمته

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ترجمة المصنف ﴾

من كتاب الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة للوزير لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير ابن محمد بن عبد السلام الكناني الواصل الى الاندلس

أوليته دخل جده عبد السلام بن جبير الاندلسي في طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري في محرم سنة ١٢٣ وكان نزوله بكورة شذونه وهو من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن الياس بلنسي الاصل ثم غرناطي الاستيطان شرق وغرب وعاد الى غرناطة (حاله) كان أديباً بارعا شاعراً مجيدا سنياً فاضلا نزيه الهمة سري النفس كريم الاخلاق أنيق الطريقة كتب بسبتة عن أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن وبغرناطة عن غيره من ذوي قرابته وله فيهم أمداح كثيرة ثم نزع عن ذلك وتوجه الى المشرق وجرت بينه و بين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته واجادته ونظمه فائق ونثره بديع وكلامه المرسل سهل حسن وأغراضه جليلة ومحاسنه ضخمة وذكره شهير ورحلته نسيجة وحدها طارت كل مطار رحمه الله (رحلته) قال من عني بخبره رحل ثلاثا من الاندلس الى المشرق وحج في كل واحدة منها فصل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس

لثمان خلون من شوال سنة ٥٧٨ صحبة أبي جعفر بن حسان ثم عاد الى وطنه غرناطة لثمان بقين من محرم عام ٨١ ولقي بها أعلاما يأتي التعريف بهم في مشيخته وصنف الرحلة المشهورة وذكر ما نقله فيها وما شاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع وهو كتاب مؤنس ممتع مثير سواكن النفوس الى تلك المعالم

ولما شاع الخبر المبهج بفتح (بيت) المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي قوي عزمه على أعمال الرحلة الثانية فتحرك اليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الاول من سنة ٥٨٥ ثم آب الى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة ٨٧ وسكن غرناطة ثم مالقة ثم سبتة ثم فاس منقطعا الى اسماع الحديث والتصوف وترويه ماعنده وفضله بديع وورعه يتحقق وأعماله الصالحة تذكر ثم رحل الثالثة من سبتة بعد موت زوجه عاتكة أم المجد بنت الوزير أبي جعفر الوقشي وكان كلفه بها جماً فعظم وجده عليها فوصل مكة وجاوربها طويلا ثم بيت المقدس ثم تحول لمصر واسكندريه فأقام يحدث ويؤخذ عنه الى أن لحق بربه مشيخته روى بالاندلس عن أبيه وأبي الحسن بن محمد بن أبي العيش وأبي عبد الله بن أحمد بن عروس وابن الاصيلي وأخذ العربية عن أبي الحجاج بن يسعون وبسبتة عن أبي عبد الله بن عيسى التميمي السبتي وأجاز له أبو الوليد ابن صبكة وأبو ابراهيم اسحاق ابن ابراهيم الغساني التونسي وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى

التميمي السبتي وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشي المياشي نزيل مكة وأبو جعفر أحمد بن علي القرطبي الفنكي وأبو الحجاج يوسف ابن أحمد بن علي بن ابراهيم بن محمد البغدادي وصدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الخجندي رئيس الشافعية بأصبهان وببغداد العالم الواعظ المتبحر نادرة الفلك أبو الفرج وكناه أبا الفضائل ابن الجوزي وحضر بعض مجالسه الوعظية فشاهد رجلا ليس من عمرو وزيد وفي جوف الفراء كل الصيد وبدمشق أبو الحسن أحمد بن حمزة بن علي بن عبد الله بن عباس السلمي الجواري وأبو سعيد عبد الله ابن محمد بن أبي عصرون وأبو الطاهر بركات الخشوعي وسمع عليه وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد ابن حامد الاصبهاني من أئمة الكتاب وأخذ عنه بعض كلامه وغيره وأبو القاسم عبد الرحمن ابن الحسين بن الاخضر بن علي بن عساكر وسمع عليه وأبو الوليد اسمعيل بن علي بن ابراهيم والحسين بن هبة الله بن محفوظ بن نصر الربعي وعبد الرحمن بن اسمعيل بن أبي سعيد الصوفي وأجازوا له وبحران المتكلم الصوفي العارف أبو البركات حيان بن عبد العزيز وابنه الحاذي حذوه

(من أخذ عنه) قال ابن عبد الملك أخذ عنه أبو اسحاق بن مهيب وابن الواعظ وأبو تمام بن اسمعيل وأبو الحسن ابن نصر بن فاتح بن عبد الله البجائي وأبو الحسن الشاري وأبو سليمان بن حوط الله وأبو زكريا وأبو بكر يحيي بن محمد بن أبي الغمر وأبو عبد الله بن

حسن بن مجبر وأبو العباس بن عبد المؤمن البنانى وأبو محمد بن الحسن اللوانى بن تامتيت وابن محمد المورورى وأبو عمر وابن سالم وعثمان بن سفيان بن أشقر التميمي التونسى وممن روى عنه بالاسكندرية رشيد الدين أبو محمد عبدالكريم بن عطاء الله وبمصر رشيد الدين بن عطار وفخر القضاة بن الجباب وابنه جمال القضاة (تصانيفه) منها نظمه قال ابن عبد الملك وقفت منه على مجلد يكون على قدر ديوان أبى تمام حبيب بن أوس وجزء سماه نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح فى مراثى زوجه أم المجد وجزء سماه نظم الجمان فى التشكي من أخوان الزمان وله ترسيل بديع وحكم مستجادة وكتاب رحلته وكان أبو الحسن الشارى يقول انها ليست من تصانيفه وانما قيد معاني ما تضمنته فتولى ترتيبها وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه على ما تلقاه والله أعلم

﴿شعره﴾ من ذلك القصيدة الشهيرة التى نظمها وقد شارف المدينة المكرمة طيبة على ساكنها من الله أفضل الصلوات وأزكي التسليم

أقول وآنستُ بالليل ناراً	لعل سراج الهدي قد أنارا
والا فما بال أفق الدجي	كأن سنا البرق فيه استطارا
ونحن من الليل في حندس	فما باله قد تجلى نهارا
وهذا نسيم شذا المسك قد	أُعير أم المسك منه استعارا
وكانت رواحلنا تشتكي	وَجاها فقد سبقتنا ابتدارا
وكنا شكونا عناء السرى	فعدنا نباري سراع المهارا
أظن النفوس قد استشعرت	بلوغ هوي تخذته شعارا

بشائر صبح السدي آذنت ... بأن الحبيب تداني مزارا

جرى ذكر طيبة ما بيننا ... فلا قلب فى الركب الا وطارا

حنينا الى أحمد المصطفى ... وشوقا يهيج الضلوع استعارا

ولاح لنا أحد مشرقا ... بنور من الشهداء استنارا

فمن أجل ذلك ظل الدجى ... يحل عقود النجوم انتثارا

ومن ذلك الترب طار النسيم ... نشرا وعم الجهات انتشارا

ومن طرب الركب حث الخطى ... اليها ونادا البدار البدارا

ولما حللنا فناء الرسول ... نزلنا بأكرم خلق جوارا

وحين دنونا لفرض السلام ... قصرنا الخطي ولزمنا الوقارا

فما نرسل اللحظ الا اختلاسا ... ولا نرفع الطرف الا انكسارا

ولا نظهر الوجد الا اكتتاما ... ولا نلفظ القول الا سرارا

سوى اننا لم نطق أعينا ... بأدمعها غلبتنا انفجارا

وقفنا بروضة دار السلام ... نعيد السلام عليها مرارا

ولولا مهابته في النفوس ... لثمنا الثري والتزمنا الجدارا

قضينا بزورته حجنا ... وبالعمرتين ختمنا اعتمارا

اليك اليك نبي الهدي ... ركبت البحارا وجبت القفارا

وفارقت أهلى ولا منة ... ورب كلام يجر اعتذارا

وكيف نمن على من به ... نؤمل للسيئات اغتفارا

دعانى اليك هوي كامن ... أثار من الشوق ما قد أثارا

فناديت لبيك داعي الهدي ... وما كنت عنك أطيق اصطبارا

ووطنت نفسى بحكم الهوى — على وقلت رضيت اختيارا
أخوض الدجي وأروض السري — ولا أطعم النوم الاغرارا
ولو كنت لا أستطيع السبيل — لطرت ولو لم أصادق مطارا
وأجدر من نال منك الرضى — محب ثراك على البعد نارا
عسي لحظة منك لى فى غد — تمهد لى فى الجنان القرارا
فما ضل من بسراك اهتدي — ولا ذل من بذراك استجارا

وفى غبطة من من الله عليه بحج بيته وزيارة قبر نبيه صلي الله عليه وسلم يقول

هنيئاً لمن حج بيت الهدي — وحط عن النفس أوزارها
وان السعادة مضمونة — لمن حج طيبة أوزارها

وفى مثل ذلك يقول

اذا بلغ امرء أرض الحجاز — فقد نال أفضل ما أمله
وان زار قبر نبي الهدي — فقد أكمل الله ما أمله

وقال فى تفضيل المشرق

لا يستوى شرق البلاد وغربها — الشرق حاز الفضل باستحقاق
أنظر ترى الشمس عند طلوعها — زهوا يعجب ببهجة الاشراق
وانظر لها عند الغروب كيئة — صفراء تعقب ظلمة الآفاق
وكفى بيوم طلوعها من غربها — ان تأذن الدنيا بعزم فراق

وقال فى الوصايا

عليك بكتمان المصائب واصطبر — عليها فما أبقى الزمان شفيقا

كفاك بشكوي الناس اذ ذاك انها　　تسر عدواً أو تسوء صديقا

وقال

ومصانع المعروف فلتة غافل　　ان لم تضعها فى محل عاقل

كالنفس فى شهواتها ان لم تكن　　وقفالها عادت بضر عاجل

(نثره) من حكمه قوله ان شرف الانسان فبشرف واحسان وان فاق فبفضل وارفاق ينبغي ان يحفظ الانسان لسانه كما يحفظ الجفن انسانه فرب كلمة تقال تحدث عثرة لا تقال كم كست فلتات الالسنة الحداد من ورائها ملابس الحداد نحن فى زمان لا يحظى فيه بنفاق الامن عامل بنفاق شغل الناس عن الطريق بزخارف الاعراض فخلوا الصدور عنها والاعراض آثروا دنياهي اضغاث أحلام وكم هفت فى حبها من أحلام أطالوا فيها آمالهم وقصروا أعمالهم ما بالهم لم يتفرغوا لغيرها مالهم فى غير ميدانها استباق ولا لسوى هداها اشتياق تالله لو كشف الاسرار لما كان هذا الاصرار لسهرت العيون وتفجرت من شؤنها الجفون فلو ان عين البصيرة من سنتها هابة لرأت جميع ما فى الدنيا ريحا هابه ولكن استولى العمى على البصائر ولا يعلم الانسان ما اليه صائر استثل الله هداية سبيله ورحمة تورد نسيم الفردوس وسلسبيله انه الحنان المنان لا رب سواه (ومنها) فلتات الهبات أشبه شئ بفلتات الشهوات منها نافع لا يعقب ندما ومنها ضار لا يبقي فى النفس ألما فضرر الهبة وقوعها عند من لا يعتقد لحقها أداء وربما أثرت عنده اعتداء وضرر الشهوات ان لم توافق ابتداء فتصير لمتبعها داء مثلها كمثل المسكر يلتذ صاحبه بحلاوة جناه

فاذا صحا يعرف ما قد جناه وعكس هذه القضية هي الحالة المرضية

(مولده) يبلنسية سنة ٥٣٩ وقيل بشاطبة سنة ٥٤٠ وفاته توفى بالاسكندرية ليلة الاربعاء التاسع والعشرين لشعبان سنة ٦١٤

﴿ ترجمة المصنف ﴾

من تاريخ مصر الكبير المقفى للشيخ تقي الدين أحمد المقريزى رحمه الله

محمد بن أحمد بن جبير بن محمد جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير الداخل الي الاندلس من ولد ضمرة ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة أبو الحسن بن أبى جعفر الكناني الاندلسى البلنسي مولده ليلة السبت عاشر ربيع الاول سنة ٥٤٠ يبلنسية وقيل فى مولده غير ذلك وسمع من أبيه بشاطبة ومن أبي عبد الله الاصيلى وأبى الحسن بن أبي العيش وأخذ عنه القراآت وعنى بالآداب فبلغ الغاية فيه وتقدم فى صناعة القريض وصناعة الكتابة ونال بها دنيا عريضة ثم رفضها وزهد فيها وحدث بكتاب الشفاء عن أبي عبدالله محمد بن عيسي التميمى السبتى عن القاضى عياض وتوجه الى الحج ودخل بغداد والشام وسمع بهما وقدم مصر فسمع منه الحافظان أبو محمد المنذري والحافظ أبو الحسين يحيي بن علي القرشى وتوفى فى يوم الاربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤

﴿ ترجمة المصنف ﴾

من الباب الخامس من كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للشيخ أحمد المقرى رحمه الله

ومنهم (يعنى من الراحلين الى المشرق من الاندلس) (أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير) الكنانى صاحب الرحلة وهو من ولد ضمرة ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة أندلسى شاطبي بلنسى مولده ليلة السبت عاشر ربيع الاول سنة ٥٤٠ ببلنسية وقيل فى مولده غير ذلك وسمع من أبيه بشاطبة ومن أبى عبد الله الاصيلى وأبى الحسن بن أبى العيش وأخذ عنه القرآآت وعنى بالأدب فبلغ الغاية فيه وتقدم فى صناعة القريض والكتابة ومن شعره قوله وقد دخل الى بغداد فاقتطع غصنا نضيرا من أحد بساتينها فذوى فى يده

لا تغترب عن وطن ... واذكر تصاريف النوى
اما ترى الغصن اذا ... ما فارق الاصل ذوى

وقال رحمه الله يخاطب الصدر الخجندي

يامن حواه الدين في عصره ... صدراً يحل العلم فيه فؤاد
ماذا يري سيدنا المرتضى ... فى زائر يخطب منه الوداد
لا يبتغى منه سوى أحرف ... يعتدها أشرف زخر يفاد
ترسمها انمله مثل ما ... نمق زهر الروض كف العهاد
فى رقعة كالصبح أهدى لها ... يد المعالي مسك ليل المداد
اجازة يورثنيها العلى ... جائزة تبقي وتفنى البلاد

يستصحب الشكر خديماً له | او الشكر للامجاد أسني عتاد

فأجاب الصدر الخجندي

لك الله من خاطب خلق | ومن قابس يجتدى سقط زندى
أجزت له ما أجازه لى | وما حدثوه وما صح عندى
وكاتب هذى السطور التى | تراهن عبد اللطيف الخجندي

ورافق بن جبير فى هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن حسان بن أحمد بن الحسن القضاعى وأصله من أندة من عمل بلنسية رحل معه فأديا الفريضة وسمعا بدمشق من ابن أبى الطاهر الخشوعى وأجاز لهما أبو سعيد بن أبى عصرون وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهما ودخلا بغداد وتجولا مدة ثم قفلا جميعاً الى المغرب فسمع منها به بعض ما كان عندهما وكان أبو جعفر هذا متحققاً بعلم الطب وله فيه تقييد مفيد مع المشاركة الكاملة فى فنون العلم وكتب عن السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن وجده لامه القاضى أبو محمد عبد الحق ابن عطية وتوفى أبو جعفر هذا بمراكش سنة ٨ أو ٥٩٩ ولم يبلغ الخمسين سنة رحمه الله

﴿رجع﴾ الى جبير ﴿ قال لسان الدين ﴾ فى حقه انه من علماء الاندلس بالفقه والحديث والمشاركة في الاداب وله الرحلة المشهورة واشتهرت فى السلطان الناصر صلاح الدين ابن أيوب له قصيدتان احداهما أولها

أطلعت على أفقك الزاهر | سعود من الفلك الدائر

ومنها قوله

رفعت مغارم مكس الحجاز | بأنعامك الشامل الغامر

وآمنت أكناف تلك البلاد	فهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة	على وارد وعلي صادر
فكم لك بالشرق من حامد	وكم لك بالغرب من شاكر

والاخرى منها فى الشكوى بابن شكر الذى كان آخذ المكس من الناس فى الحجاز

وما نال الحجاز بكم صلاحا	وقد نالته مصر والشام

ومن شعره

أخلاء هذا الزمان الخئون	توالت عليهم حروف العلل
قضيت التعجب من بابهم	فصرت أطالع باب البدل

وقوله

غريب تذكر أوطانه	فهيج بالذكر أشجانه
يحل عرى صبره بالاسي	ويعقد بالنجم أجفانه

وقال رحمه الله لما رأى البيت الحرام زاده الله شرفا

بدت لى أعلام بيت الهدى	بمكة والنور باد عليه
فأحرمت شوقا له بالهوى	وأهديت قلبي هديا اليه

وقوله يخاطب من أهدى له موزا

يامهدى الموز تبقى	وميمه لك فاه
وزايه عن قريب	لمن يعاديك تاه

وقال رحمه الله

قد ظهرت في عصرنا فرقة	ظهورها شوم على العصر

لاتقتدى في الدين الا بما ... سن بن سينا وأبو نصر

وقال

يا وحشة الاسلام من فرقة ... شاغلة أنفسها بالسفه
قد نبذت دين الهدي خلفها ... وادعت الحكمة والفلسفه

وقال

ضلت بأفعالها الشنيعه ... طائفة عن هدي الشريعه
ليست تري فاعلا حكيما ... يفعل شيئاً سوى الطبيعه

وكان انفصاله رحمه الله من غرناطة قصد الرحلة المشرقية أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ٥٧٨ ووصل الاسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذى القعدة الحرام من السنة فكانت اقامته على متن البحر عن الاندلس الى الاسكندرية ثلاثين يوما ونزل البر الاسكندراني فى الحادي والثلاثين وحج رحمه الله وتجول فى البلاد ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها وكان رحمها الله كما (قال ابن الرقيق) من أعلام العلماء العارفين بالله كتب في اول أمره عن السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة فاستدعاه لان يكتب عنه كتاباً وهو على شرابه فمد يده اليه بكاس فأظهر الانقباض وقال ياسيدى ما شربتها قط فقال والله لتشربن منها سبعاً فلما رأى العزيمة شرب سبع اكؤس فملأ له السيد الكاس من دنانير سبع مرات وصب ذلك فى حجره فحمله الي منزله وأضمر ان يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير ثم رغب للسيد وأعلمه انه حلف بايمان لا خروج

له عنها ان يحج فى تلك السنة فأسعفه وباع ملكا له تزود به وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر ومن شعره فى جارية تركها بغرناطة

طول اغتراب وبرحُ شوق　　لا صبر والله لى عليه
اليك اشكو الذي ألاقى　　يا خير من يشتكى اليه
ولى بغرناطة حبيب　　قد غلق الرهن فى يديه
ودعته وهو بارتحاض　　يظهر لى بعض ما لديه
فلو ترى طل نرجسيه　　ينهل فى ورد وجنتيه
أبصرت دراً على عقيق　　من دمعه فوق صفحتيه

وله رحلة مشهورة بأيدي الناس ولما وصل بغداد تذكر بلده

سقى الله باب الطاق صوب غمامة　　ورد الي الاوطان كل غريب

(انتهى) وقال فى رحلته فى حق دمشق جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق الخ (وقال العلامة ابن جابر) الوادي آشى بعد ذكره وصف ابن جبير لدمشق ما نصه ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد وتوق الانفس للتطلع على صورتها بما أفاد هذا ولم تكن له بها اقامة فيعرب عنها بحقيقة علامه وما وصف ذهبيات أصيلها وقد حان من الشمس غروب ولا أزمان فصولها المنوعات ولا أوقات سرورها المنهات وقد اختصر من قال ألفيتها كما تصف الالسن وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين (انتهى رجع) الى كلام ابن جبير فنقول ثم ذكر فى وصف الجامع انه من أشهر جوامع الاسلام حسناً والاتقان بناء وغرابة صنعة واحتفال تنميق وتزيين الخ ثم مد النفس وما به من العجائب ثم

قال بعد عدة أوراق ما نصه وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذى امامه غرفة ولها هيئة طاق كبير الخ (وحكي ابن سعيد) وغيره ان غرناطة تسمى دمشق الاندلس لسكني أهل دمشق الشام بها عند دخولهم الاندلس وقد شبهوها بها لما راوها كثيره المياه والاشجار وقد أطل عليها جبل الثلج وفى ذلك يقول بن جبير صاحب الرحلة

يا دمشق الغرب هاتى ... بك لقدزدت عليها
تحتك الانهار تجري ... وهى تنصب اليها

(قال بن سعيد) أشار بن جبير الى أن غرناطة فى مكان مشرف وغوطتها تحتها تجري فيها الانهار ودمشق فى وهدة تنصب اليها الانهار وقد قال الله تعالى في وصف الجنة تجرى من تحتها الانهار (انتهى) ...

رجع الى ابن جبير رحمه الله ومن شعره قوله

اياك والشهوة فى ملبس ... والبس من الاثواب أسمالها
تواضع الانسان فى نفسه ... أشرف للنفس واسمي لها

وقال

تنزه عن العوراء مهما سمعتها ... صيانة نفس فهو بالحر اشبه
اذا أنت جاوبت السفيه مشاتما ... فمن يتلقي الشتم بالشتم أسفه

وقال

أقول وقد حان الوداع وأسلمت ... قلوب الى حكم الاسى ومدامع
أيا رب أهلي فى يديك وديعة ... وما عدمت صونا لديك الودائع

وقال أبو عبدالله ابن الحاج المعروف بمدغليس صاحب الموشحات يمدح ابن جبير المذكورا

لابي الحسين مكارم لو انها عدّت لما فرغت ليوم المحشر
وله على فضائل قد قصرت عن بعض نماها عظام الابحر

وقال ابن جبير من قصيدة مطلعها

يا وفد الله فزتم بالمنا فهنيئاً لكم أهل منى
قد عرفنا عرفات بعدكم فلهذا برّح الشوق بنا
نحن في الغرب ويجرى ذكركم بغروب الدمع يجرى هتنا

ومنها

فيناديه على شحط النوي من لنا يوما فقلت ملنا
سر بنا يا حادي الركب عسى ان نلاقي يوم جمع سربنا
ما دعى داعى النوى لما دعي غير صب شفه برح العنا
شم لنا البرق اذ لاح وقل جمع الله بجمع شملنا
علنا نلقى خيالا منكم بلذيذ الذكر وهنا عانا
لو دنا الدهر علينا لقضي باجتماع بكم بالمنحنا
لاح برق موهنا من نحوكم فلعمرى ما هنا العيش هنا
أنتم الاحباب نشكو بعدكم هل شكوتم بعدنا من بعدنا

وله رحمه الله قصيدة مطولة أولها

لعل بشير الرضى والقبول يعال بالوصل قلب الخليل

وله أخرى أنشدها عند استقباله المدينة المشرفة علي صاحبها الصلاة وأتم

السلام وهي ثلاثة وثلاثون بيتاً من الغر أولها

أقول وآنست بالليل نارا الايات الثلاثة

وكان أبو الحسين بن الحسين بن جبير المترجم به قد نال بالادب دنيا عريضة ثم رفضها وزهد فيها (وقال صاحب الملتمس) في حقه الفقيه الكاتب أبو الحسين بن جبير ممن لقيته وجالسته كثيراً ورويت عنه وأصله من شاطبة وكان أبوه أبو جعفر من كتابها ورؤسائها ذكره ابن اليسع في تاريخه ونشأ أبو الحسين على طريقة أبيه ونولع بغرناطة فسكن بها قال ومما أنشدنيه لنفسه قوله يخاطب أبا عمران الزاهد باشبيلية

أبا عمران قد خلفت قلبي لديك وأنت أهل للوديعة
صحبت بك الزمان اخاوفاء فها هو قد تمر القطيعة

قال وكان من أهل المروءات عاشقا في قضاء الحوائج والسعي في حقوق الاخوان والمبادرة لا يناس الغرباء وفي ذلك يقول

يحسب الناس بأني متعب في الشفاعات وتكليف الورى
والذي يتعبهم من ذلك لي راحة في غيرها لن أفكري
وبودي لو أقضي العمر في خدمة الطلاب حتى في الكرى

قال ومن أبدع ما أنشده رحمه الله أول رحلته

طال شوقي الى بقاع ثلاث لا تشد الرحال الا اليها
ان للنفس في سماء الاماني طائر لا يحوم الا عليها
قص منه الجناح فهو مهيض كل يوم يرجو الوقوع لديها

وقال

اذا بلغ العبد أرض الحجاز اليثين
وعاد رحمه الله الى الاندلس بعد رحلته الاولى التى حل فيها دمشق
والموصل و بغداد وركب الى المغرب من عكا مع الافرنج فعطب في
خليج صقلية الضيق وقاسي شدائد الي أن وصل الاندلس سنة ٥٨١
ثم أعاد المسير الى المشرق بعد مدة الي أن مات بالاسكندرية كما
تقدم ومن شعره أيضاً

لى صديق خسرت فيه ودادى حين صارت سلا مق منه ربحا
حسن القـول سيئ الفعل كالجز ار سمى واتبع القـول ذبحا

وحدث رحمه الله بكتاب الشفاء عن أبى عبدالله محمد بن عيسى التميمي
عن القاضى عياض ولما قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذري
وأبو الحسين يحيى بن على القرشى وتوفى ابن جبير بالاسكندرية يوم
الاربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ والدعاء عند قبره
مستجاب قاله ابن الرقيق رحمه الله وقال ابن الرقيق فى السنة بعدها
وقال (أبو الربيع بن سالم) أنشدني أبو محمد عبد الله بن التميمى
البجائى ويعرف بابن الخطيب لابى الحسين بن جبير وقال وهو مما
كتب به الي من الديار المصرية في رحلته الاخيرة لما بلغه ولايتي
قضاء سبتة وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك وتوفيت هنالك زوجته
بنت أبي جعفر الوقشي فدفنها بها

بسبتة لى سكن فى الثرى وخل كريم اليها أتي
فلو استطيع ركبت الهوى فزرت بها الحى والميتا

وأنشد ابن جبير رحمه الله لنفسه عند صدوره عن الرحلة الاولى الى غرناطة أو فى طريقها قوله

الى نحو أرض المنى من شرق اندلس شوق يؤلف بين الماء والقبس

الي آخرها ومن شعره قوله

يا خير مولى دعاه عبد اعمل فى الباطل اجتهاده
هب لى ما قد علمت منى ياعالم الغيب والشهاده

وقال رحمه الله

وانى لاوثر من اصطفي واغضى على زلة العاثر
وأهوى الزيارة ممن أحب لاعتقد الفضل للزائر

وقال رحمه الله

عجبت للمرء فى دنياه تطمعه من العيش والاجل المحتوم يقطعه
يمسي ويصبح فى عشواء يخبطها اعمى البصيرة والآمال تخدعه
يغتر بالدهر مسروزا بصحبته وقد تيقن ان الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصا لا يفارقه وقد درى انه للغير يجمعه
تراه يشفقه من تضييع درهمه وليس يشفق من دين يضيعه
واسوء الناس تدبير العاقبة من أنفق العمر فيما ليس ينفعه

وقال

صبرت علي غدر الزمان وجهده وشاب لى السم الذعاف بشهده
وجربت اخوان الزمان فلم اجد صديقا جميل الغيب فى حال بعده
وكم صاحب عاشرته وألفته فما دام لى يوما على حسن عهده

وكم غرني تحسين ظني به فلم ... يفيء لي على طول اقتداحي لزنده

واغرب من عنقاء في الدهر مغرب ... أخو ثقة يسقيك صافي وده

بنفسك صادم كل أمر تريده ... فليس مضاء السيف الا بحده

وعزمك جرد عند كل مهمة ... فما نافع مكث الحسام بغمده

وشاهدت في الاسفار كل عجيبة ... فلم أر من قد نال جداً بجده

فكن ذا اقتصاد في أمورك كلها ... فاحسن أحوال الفتى حسن قصده

وما يحرم الانسان رزقا لعجزه ... كما لا ينال الرزق يوماً بكده

حظوظ الفتى من شقوة وسعادة ... جرت بقضاء لا سبيل لرده

وقال

الناس مثل ظروف حشوها صبر ... وفوق أفواهها شيء من العسل

تغر ذائقها حتي اذا كشفت ... له تبين ما تحويه من دخل

وقال

تغير اخوان هذا الزمان ... وكل صديق عراه الخلل

وكانوا قديما على صحة ... فقد داخلتهم حروف العلل

قضيت التعجب من أمرهم ... فصرت أطالع باب البدل

وقد تقدم بيتان من هذه الثلاثة على وجه آخر أول ترجمة المذكور ورأيت بخط ابن سعيد البيتين علي وجه آخر وهو قوله

ثكلت اخلاء هذا الزمان ... فعندي مما جنوه خلل

قضيت التعجب من شأنهم ... فصرت أطالع باب البدل

انتهى ولابن جبير رحمه الله تعالى

من الله فسأل كل أمر تريده ... فما يملك الانسان نفعا ولا ضرا
ولا تتواضع للولاة فانهم ... من الكبر في حال تموج بهم سكرا
واياك ان ترضى بتقبيل راحة ... فقد قيل عنها انها السجدة الصغرا

وهو نحو قول القائل

أيها المستطيل بالبغي أقصر ... ربما طأطأ الزمان الرؤسا
وتذكر قول الاله تعالى ... ان قارون كان من قوم موسى

وقال وقد شهد العيد بطندتة من قري مصر

شهدنا صلاة العيد في أرض غربة ... بأحواز مصر والاحبة قد بانوا
فقلت لخلي في النوى جد بمدمع ... فليس لنا الا المدامع قربان

وقال ابن جبير

قد أحدث الناس أموراً فلا ... تعمل بها انى امرؤ ناصح
فما جماع الخير الا الذي ... كان عليه السلف الصالح

وقال

رب أن لم تؤتني سعة ... فأطو عنى فضلة العمر
لا أحب اللبث فى زمن ... حاجتى فيه الى البشر
فهم كسر لمنجبر ... ما هم جبر لمنكسر

ولما وصل ابن جبير رحمه الله مكة ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ أنشد قصيدته التى اولها

بلغت المنى وحللت الحرم ... فعاد شبابك بعد الهرم
فأهلا بمكة اهلا بها ... وشكراً لمن شكره يلتزم

وهي طويلة وسيأتي بعضها وقال رحمه الله عند تحركه للرحلة الحجازية

أقول وقد دعا للخير داع ... حننت له حنين المستهام

حرام ان يلذلى اغتماض ... ولم ارحل الى البيت الحرام

ولا طافت بي الآمال إن لم ... اطف ما بين زمزم والمقام

ولا طابت حياة لي اذا لم ... ازر في طيبة خير الانام

واهديه السلام واقتضيه ... رضى يدنى الي دار السلام

ولنختم ترجمته بقوله

وأحب النبي المصطفى وابن عمه ... عليا وسبطيه وفاطمة الزهرا

هم اهل بيت اذهب الرجس عنهم ... واطلعهم افق الهدي انجما زهرا

موالاتهم فرض على كل مسلم ... وحبهم اسنى الذخائر للاخرى

وما انا للصحب الكرام بمبغض ... فانى أري البغضاء فى حقهم كفرا

هم جاهدوا فى الله حق جهاده ... وهم نصروا دين الهدي بالظبي نصرا

عليهم سلام الله مادام ذكرهم ... لدى الملأ الأعلى وأكرم به ذكرا

وقوله فى آخر الميمية

نبي شفاعته عصمة ... فيوم التنادي به يعتصم

عسى ان تجاب لنا دعوة ... لديه فنكفي بها ما أهم

ويرعى لزواره في غد ... زماما فما زال يرعي الذمم

عليه السلام وطوبى لمن ... ألم بتربته فاستلم

أخي كم تتابع أهواءنا ... ونخبط عشواءها فى الظلم

رويدك جرت فعج واقتصد | امامك نهج الطريق الاعم
وبت قبل عض بنان الاسى | ومن قبل قرعك سن الندم

ومنها

وقل رب هب رحمة فى غد | لعبد بسيم العصاة اتسم
جري فى مباديها عصيانه | مسيئاً ودان بكفر النعم
فيارب صفحك عما جنى | ويارب عفوك عما اجترم

وقال المقري رحمة الله عليه فى الباب السابع من كتابه ما نصه ومن الحكايات فى مروءة أهل الاندلس ما ذكره صاحب الملتمس فى ترجمة الكاتب الاديب الشهير أبي الحسين بن جبير صاحب الرحلة وقد قدما ترجمته فى الباب الخامس من هذا الكتاب وذكرنا هنالك انه كان من أهل المروآت عاشقا فى قضاء الحوائج والسعي في حقوق الاخوان وأنشدنا هنالك قوله (يحسب الناس بانى متعب الخ) وقد ذكر ذلك كله صاحب الملتمس ثم قال أعنى صاحب الملتمس ومن أغرب ما يحكى انى كنت أحرص الناس على ان أصاهر قاضى غرناطة أبا محمد عبد المنعم بن الفرس فجعلته يعنى ابن جبير الواسطة حتى تيسر ذلك فلم يوفق الله ما بينى وبين الزوجة فجئته وشكوت له ذلك فقال انا ما كان القصد لى فى اجتماعكما ولكن سعيت جهدى فى غرضك وها أنا أسعى أيضاً فى افتراقكما اذ هو من غرضك وخرج في الحين ففصل القضية ولم أرفى وجهه أولا ولا أخيراً عنوانا لامتنان ولا تصعيب ثم انه طرق بابى ففتحت له ودخل وفي يده محفظة فيها مائة

دينار مؤمنية فقال يا ابن أخي اعلم انى كنت السبب في هذا القضية ولم أشك انك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذي وجدته الآن عند عمك فبالله الاما سررتنى بقبوله فقلت له انا ما استحى منك فى هذا الامر والله ان أخذت هذا المال لاتلفته فيما أتلفت فيه مال والدى من أمور الشباب ولا يحل لك ان تمكننى به بعد ان شرحت لك أمري فتبسم وقال لقد احتلت في الخروج عن المنة بحيلة وانصرف بماله انتهي ثم قال صاحب الملتمس وتذا كرنا يوما معه حالة الزاهد أبو عمران المارتلى فقال صحبته مدة فما رأيت مثله وأنشدنى شعرين ما نسيتهما ولا أنساهما ما استطعت فالاول قوله

الى كم أقول فلا أفعل	وكم ذا أحوم ولا أنزل
وازجرعينى فلا ترعوي	وانصح نفسى فلا تقبل
وكم تعلـل لي ويحها	بعل وسوق وكم تمطل
وكم ذا أؤمل طول البقا	واغفل والموت لا يغفل
وفي كل يوم ينادي بنام	نادى الرحيل ألا فارحلوا
أمن بعد سبعين أرجو البقا	وسبع أتت بعدها تعجل
كان بي وشيكا الى مصرعي	يساق بنعشى ولا أمهل
فياليت شعري بعد السؤ	ال وطول المقام لما أنقل

والثانى قوله

اسمـع أخي نصيحتى	والنصح من محصل الديانه
لا تقـربن الي الشهادة	والوسـاطـة والامانه

تسلم من ان تعزى لزور　　أو فضول أو خنانه

قال فقلت له أراك لم تعمل بوصية فى الوساطة فقال ماساعدتنى رقة وجهى على ذلك انتهى

وفى كتاب رحلة العبدري ما صورته قال وأنشدنى (شيخنا أبو زيد) أيضاً قال أنشدني أبو عمرو بن الشقر قال أنشدني الفقيه الزاهد المنقطع الى الله بمهجته أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني بالاسكندرية لنفسه

تأن فى الامر لا تكن عجلا　　فمن تأنى صاب أو كادا
وكن بحبل الالاه معتصما　　تأمن به بغى كل من كادا
فمن رجاه فنال بغيته　　عبد مسيء بنفسه كادا
ومن تطل صحبة الزمان له　　يلق خطوبا به وانكادا

وبنحوه له

من العقل عن لحظة فى هوي　　فان البصيرة طوع البصر
وغض جفونك عن عفة　　فان زناء العيون النظر

وأنشدنى أيضاً مثله

أما في الدهر معتبر　　ففيه الصفو والكدر
فسلنى عن تقلبه　　فعند جهينة الخبر
صحبناه الى أجل　　نراقبه ونحتذر
فيا عجبا لمرتحل　　ولا يدرى متى السفر

وقال العبدرى أيضاً بعد وصفه الاسكندرية وعجائبها ومن الامر

المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم (يعني أهل الاسكندرية) انهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من بحر الاهانة الملح الاجاج ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج يبحثوا عما بأيديهم من مال ويأمرون بتفتيش النساء والرجال وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبي وجعل الانفصال عنهم غاية أربي وذلك لما وصل اليها الركب جاءت شرذمة من الحرس لا حرس الله فهجتهم الخبيثة ولا أعدم منهم لاسد الآفات فريسة فمدوا في الحجاج أيديهم وفتشوا الرجال والنساء وألزموهم أنواعا من المظالم واذاقوهم ألوانا من الهوان ثم استحلفوهم وراء ذلك كله وما رأيت هذه العادة الذميمة والشيمة اللئيمة فى بلد من البلاد ولا رأيت فى الناس أقسى قلوبا ولا أقل حياء ومروءة ولا أكثر اعراضا عن الله سبحانه وجفاء لاهل دينه من أهل هذا البلد نعوذ بالله من الخذلان فلو شاء لاعتدل المائل وانتبه الوسنان وكنت اذ رأيت فعل المذكورين ظننت ان ذلك أمر أحدثوه حتى حدثني نور الدين أبو عبد الله بن زين الدين أبي الحسن يحيي بن الشيخ وجيه الدين أبي علي منصور بن عبد العزيز بن حباسة الاسكندري بمدرسة جده المذكور حكاية اقتضت ان لهم في هذه الفضائح سلفا غير صالح وذلك انه حدثنى املاء من كتابه قال حدثنى الشيخ الصالح أبو العباس احمد بن عمر بن محمد السبتى الحميرى بثغر الاسكندرية سنة ٦٦٢ قال حدثنى الشيخ الامام المحدث أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير الكنانى الاندلسى سنة

٦١١ انه ورد الى الاسكندرية فى ركب عظيم عن المغاربة برسم الحج فأمر الناظر على البلاد بعد اليدفيهم للتفتيش والبحث عما بأيديهم ففتش الرجال والنساء وهتكت حرمة الحرم ولم يكن فيهم ابقاء على أحد قال فلما جاءتنى النوبة وكانت معى حرم ذكرتهم بالله ووعظتهم فلم يعرجوا على قولي ولا التفتوا الي كلامي وفتشونى كما فتشوا غيرى فاستخرت الله تعالى ونظمت هذه القصيدة ناصحا لامير المسلمين صلاح الدين يوسف بن أيوب ومذكرا بالله فى حقوق المسلمين ومادحا له فقلت

اطلت على أفقك الزاهر ... سعود من الفلك الدائر
فأبشر فان رقاب العدي ... تمد الى سيفك الباتر
وعما قليل يحل الردى ... بكيدهم الناكث الغادر
وخصب الورى يوم يسقي ... الثرى سحائب من دمها الهامر
فكم لك من فتكة فيهم ... حكت فتكة الاسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة ... فلله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها ... فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدك فى غزوهم ... فتعسا لجدهم العاثر
فأدبر ملكهم بالشآم ... وولى كأمسهم الدابر
جنود بالرعب منصورة ... فناجز متى شئت أو صابر
فكلهم غارق هالك ... بتيار عسكرك الزاخر
ثأرت لدين الهدي فى العدي ... فأثرك الله من ثائر

وقمت بنصر إله الورى … فسماك بالملك الناصر
وتسهر جفنك فى حق من … سيرضيك في جفنك الساهر
فتحت المقدس من أرضه … فعادت الى وصفها الطاهر
وجئت الى قدسه المرتضى … فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى … وأحييت من رسمه الدائر
لكم زخر الله هذي الفتوح … من الزمن الاول الغابر
وخص من بعد ما ذرته … بها لاصطناعك فى الآخر
محبتكم ألقيت فى النفوس … بذكر لكم في الورى طاهر
فكم لهم عند ذكر الملوك … بمثلك من مثل سائر
رفعت مغارم أرض الحجاز … بأنعامك الشامل الغامر
وآمنت اكناف تلك البلاد … فهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة … على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد … وكم لك فى الغرب من شاكر
وكم بالدعاء لكم كل عام … بمكة من معلن جاهر
وكم بقيت حبسه بالظلام … وتلك الذخيرة في الذاخر
يعنت حجاج بيت الاله … ويسطو بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم … وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا بعدما كوشفوا … كأنهم فى يد الآسر
ويلزمهم حلفا باطلا … وعقبي اليمين على الفاجر
وان عرضت بينهم حرمة … فليس لها عنه من ساتر

أليس بمخاف غدا عرضه ... علي الملك القادر القاهر
وليس على حرم المسلمين ... بتلك المشاهد من غائر
ولا حاضر نافع زجره ... فياذلة الحاضر الزاجر
الا ناصح مبلغ نصحه ... الى الملك الناصر الظافر
ظلوما تضمن مال الزكاة ... لقد نفست صفقة الخاسر
يسر الخيانة في باطن ... ويبدى النصيحة فى الظاهر
فأوقع به حادث انه ... بقبح أحدوثة الذاكر
فما للمناكر من زاجر ... سواك وبالعرف من آمر
وحاشاك ان لم تزل رسمها ... فما لك فى الناس من عاذر
ورفعك امثالها موسعا ... رداء فخارك من ناشر
وآثرك العز تبغي بها ... وتلك المآثر للآثر
نذرت النصيحة فى حقكم ... وحق الوفاء على الناذر
وحبك الطفنى بالقريض ... وما ابتغي صلة الشاعر
ولا كان فيما مضي مكسبي ... وبئس البضاعة للتاجر
اذا الشعر صار شعار الفتى ... فناهيك من لقب شاهر
وان كان نظمى له نادر ... فقد قيل لا حكم للنادر
ولكنها خطرات الهوى ... تعز فتغلب بالخاطر
وأما وقد زار تلك العلى ... فقد فاز بالشرف الباهر
وان كان منك قبول له ... فتلك الكرامة للزائر
ويكفيك سمعك من سامع ... ويكفيك لحظك للناظر

ويزهي على الروض غب الحيا بما حاذ من ذلك العاطر

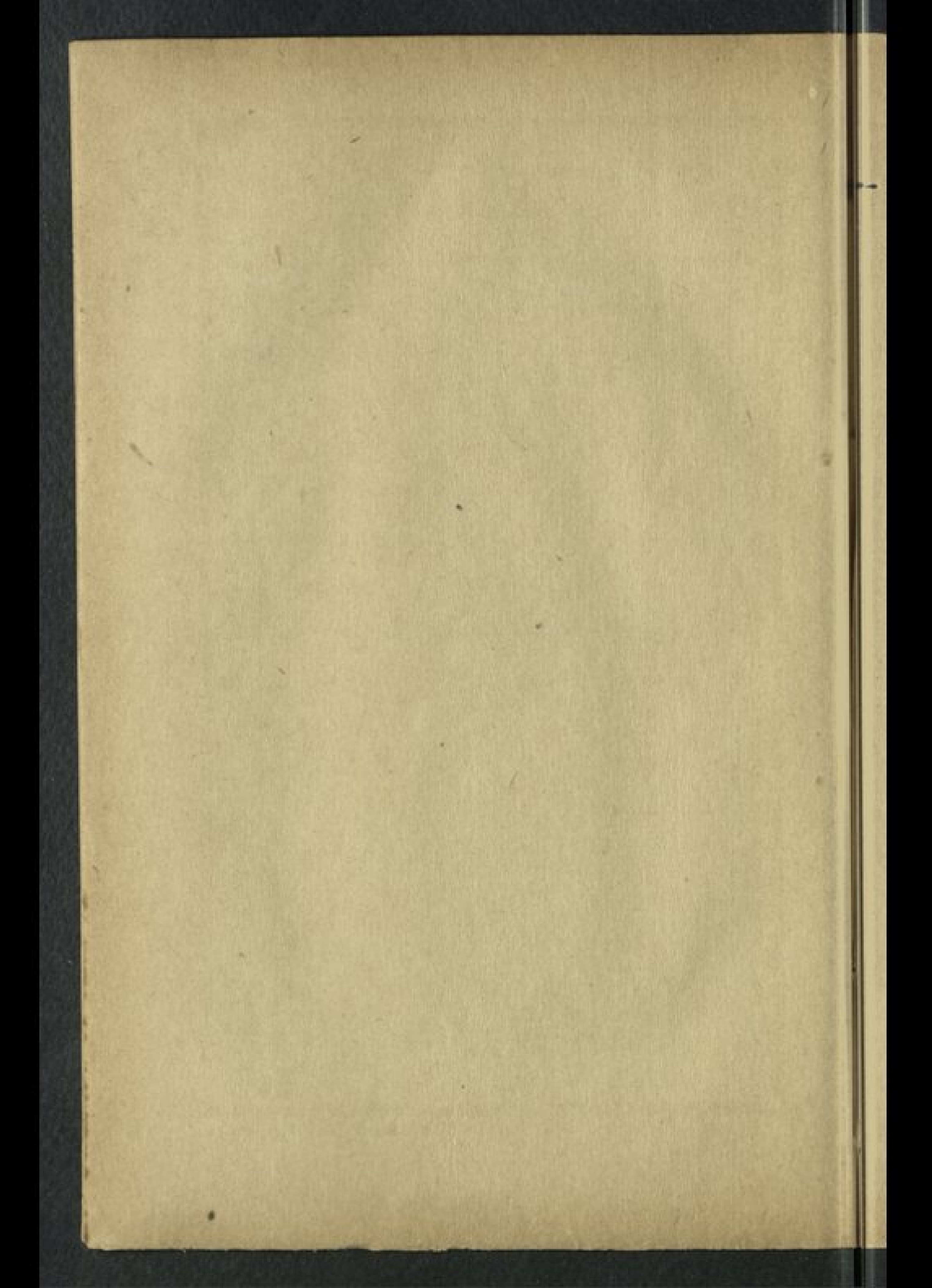
قلت هكذا حدثني أبو عبد الله بهذه الحكاية وقد وقعت في كتابه مشهورة لم يذكر فيه الا ما أثبته وبالله التوفيق وأنشدني أبو عبد الله أيضاً عن ابي العباس المذكور عن ابن جبير قصيدة نظمها ارتجالا حين تراءت له مدينة رسول الله صلي الله عليه وسلم وهي هذه اقول وآنست الايات

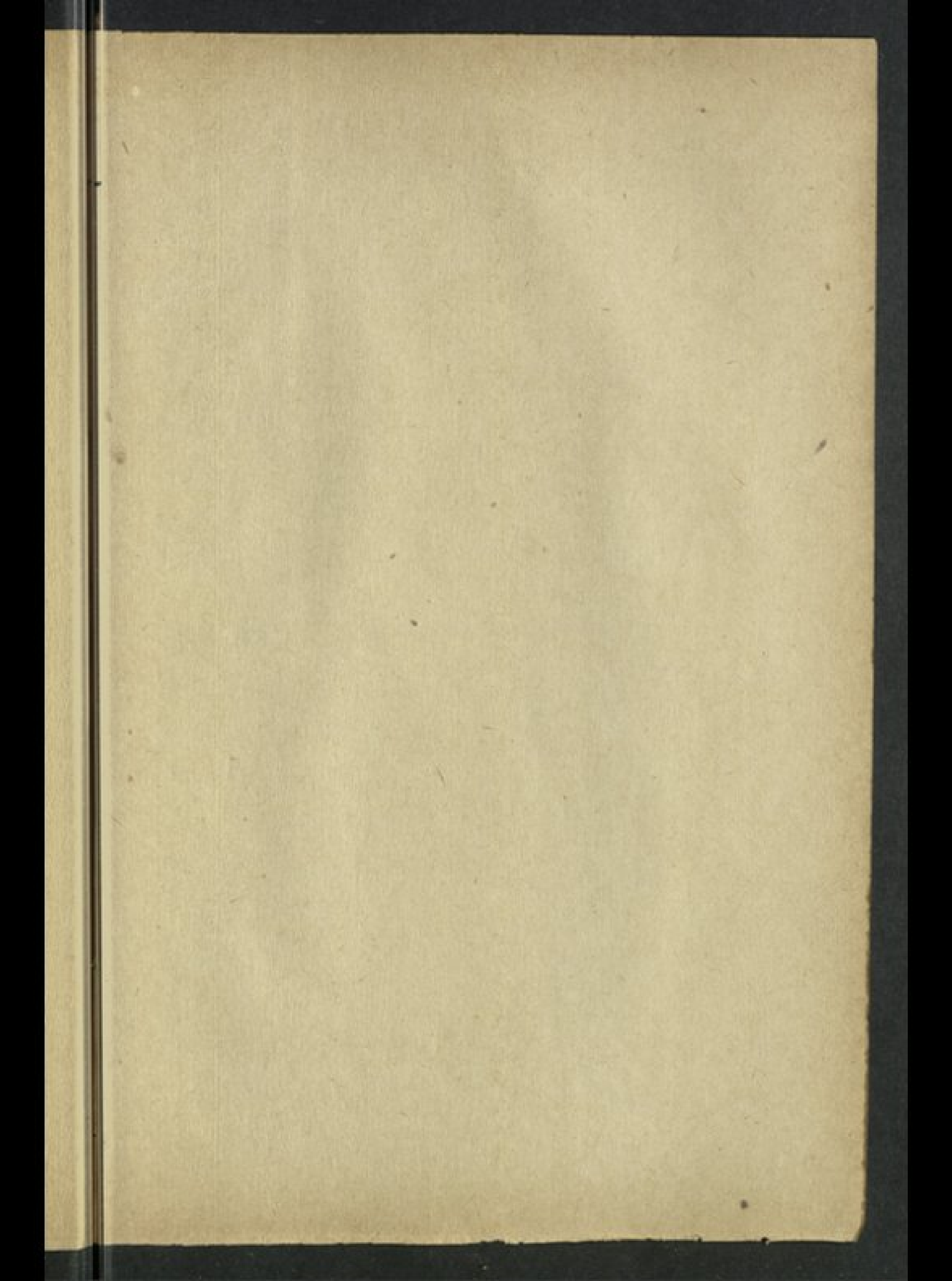
وقال علي بن ظافر في بدائع البداية انبأني المسكي نزلت من الفراق لوداع الاجل ابي الحسين بن جبير فقال كنت على المجيء اليك فقلت وهمة سيدي هي التي آتت به فسأل عن القرافة فقلت هي موضع يصلح للخير والشر من طلب شيئاً وجده فقال خذ هذه الحكاية كنت متفرجا في مكان وبت به ثم اقبلت منه بكرة فلقيني تلميذلي فقال

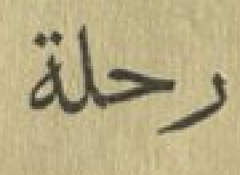
من اين اقبلت يا من لا نظير له ومن هو الشمس والدنيا له فلك

فأجبته مسرعا

من موضع تعجب النساك خلوته وفيه ستر علي الفتاك ان فتكوا







الكاتب الاديب البارع اللبيب أبي الحسين
محمد بن أحمد بن جبير الكناني الاندلسي
البلنسي تغمده الله برحمته آمين

طبعت على النسخة المطبوعة بمطبعة ابريل بليدن

﴿ الطبعة الأولى ﴾

﴿ ١٣٢٦ ـ ١٩٠٨ م ﴾

على نفقة مصطفى فهمي الكتبي بمصر

(طبع بمطبعة السعاده بجوار محافظة مصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

﴿ تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار ﴾

ابتدي بتقيدها يوم الجمعة الموفي ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة على متن البحر بمقابلة جبل شلير عرفنا الله السلامة بمنه وكان انفصال احمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطه حرسها الله للنية الحجازية المباركة قرنها الله بالتيسير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل . . أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الاعجمى وكان الاجتياز على جيّان لقضاء بعض الاسباب ثم كان الخروج منها أول ساعة من يوم الاثنين التاسع عشر لشهر شوال المذكور وبموافقة اليوم الثالث عشر لشهر فبراير المذكور أيضاً وكانت مرحلتنا الاولى منها الى حصن القبذاق ثم منه الى حصن قبرة ثم منه الى مدينة إستجة ثم منها الى حصن أشونه ثم منه الى شَلبره ثم منه الى حصن اركش ثم منه الى قرية تعرف بقرية النشمة من قرى مدينة ابن السليم ثم منها الى جزيرة طريف وذلك يوم الاثنين السادس والعشرين من الشهر المؤرخ فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم الثاني يسر الله علينا في عبور البحر الى قصر مصمودة تيسيراً عجيباً والحمد لله

ونهضنا منه الى سبتة غدوة يوم الاربعاء الثامن والعشرين منه والفينا
بها مركباً للروم الجنويين مقلعاً الى الاسكندرية بحول الله عز وجل
فسهل الله علينا في الركوب فيه وأقلعنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين
منه وبموافقة الرابع والعشرين من فبراير المذكور بحول الله تعالى
وعونه لا رب غيره ، وكان طريقنا في البحر محازياً لبر الاندلس
وفارقنا يوم الخميس السادس لذى القعدة بعده عند ما حازينا دانية
وفي صبيحة يوم الجمعة السابع من الشهر المذكور آنفاً قابلنا بر جزيرة
يابسة ثم يوم السبت بعده قابلنا بر جزيرة ميورقة ثم يوم الاحد بعده
قابلنا جزيرة منورقة ومن سبتة اليها نحو ثمانية مجار والمجرى مائة ميل
وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة وقام معنا برّ جزيرة سردانية أول
ليلة الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور وهو الثامن من مارس
دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل وبين الجزيرتين سردانية ومنورقة
نحو الاربعمائة ميل فكان قطعاً مستغرباً في الساعة وطرأ علينا من
مقابلة البر في الليل هول عظيم عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى في
الحين من تلقاء البر فاخرجنا عنه والحمد لله على ذلك وقام علينا نوء
هال له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور فبقينا مترددين بسببه حول
بر سردانية الى يوم الاربعاء بعده فاطلع الله علينا في حال الوحشة
وانغلاق الجهات بالنوء فلا نميز شرقاً من غرب مركباً للروم قصدنا الى
ان حاذانا فسئل عن مقصده فاخبر انه يريد جزيرة صقلية وانه من
قرطاجنة عمل مرسية وقد كنا استقبلنا طريقه التى جاء منها من غير

علم فاخذنا عند ذلك في اتباع اثره والله الميسر لا رب سواه فخرج
علينا طرف من بر سرادنية المذكور فاخذنا فى الرجوع عوداً على
بدء الى ان وصلنا طرفاً من البر المذكور ويعرف بقوسمركة وهو
مرسى معروف عندهم فارسينا به ظهر يوم الاربعاء المذكور والمركب
المذكور معنا وبهذا الموضع المذكور اثر لبنيان قديم ذكر لنا انه كان
منزلاً لليهود فيما سلف ثم انا اقلعنا منه ظهر يوم الاحد السادس عشر من
الشهر المذكور وفي مدة مقامنا بالمرسى المذكور جددنا فيه الماء والحطب
والزاد وهبط واحد من المسلمين ممن يحفظ اللسان الرومى مع جملة من
الروم الى أقرب المواضع المعمورة منا فاعلمنا انه رأى جملة من أسرى
المسلمين نحو الثمانين بين رجال ونساء يباعون فى السوق وكان ذلك
عند وصول العدو دمره الله بهم من سواحل البحر ببلاد المسلمين
والله يتداركهم برحمته ووصل الى المرسى المذكور يوم الجمعة الثالث
من يوم ارسينا فيه سلطان الجزيرة المذكورة مع جملة من الخيل فنزل
اليه اشياخ المركب من الروم واجتمعوا به وطال مقامهم عنده ثم
انصرفوا وانصرف الى موضع سكناه وتركنا المركب المذكور في
موضع ارسائه بسبب مغيب بعض اصحابه في البلد عند هبوب الريح
الموافقة لنا وفي ليلة الثلاثاء الثامن عشر لذي القعدة المذكور والخامس
عشر من شهر مارس المذكور أيضاً وفي الربع الباقي منها فارقنا برّ
سردانية المذكورة وهو بر طويل جرينا بحذائه نحو المائتي ميل
ومنتهى دور الجزيرة على ما ذكر لنا الى ازيد من خمسمائة ميل ويسر

الله علينا في التخلص من بحرها لانه أصعب ما في الطريق والخروج
منه يتعذر فى اكثر الاحيان والحمد لله على ذلك وفي ليلة الاربعاء
بعدها من أولها عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله
الرياح بقوة كانه شآبيب سهام فعظم الخطب واشتد الكرب وجاءنا
الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة فبقينا على تلك الحال الليل
كله واليأس قد بلغ منا مبلغه وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا
بعض ما نزل بنا فجاء النهار وهو يوم الاربعاء التاسع عشر من ذى القعدة
بما هو أشد هولا وأعظم كرباً وزاد البحر اهتياجاً وأربدت الآفاق
سواداً واستشرت الريح والمطر عصوفاً حتى لم يثبت معها شراع فلجيء
الى استعمال الشرُع الصغار فأخذت الريح أحدها ومزقته وكسرت
الخشبة التي ترتبط الشرُع فيها وهى المعروفة عندهم بالقرية فحينئذ
تمكن اليأس من النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء الى الله عز
وجل وأقمنا على تلك الحال النهار كله فلما جن الليل فترت الحال
بعض فتور وسرنا فى هذه الحالة كلها نرمح السواري سيراً سريعاً وفي
ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية وبتنا تلك الليلة التى هي ليلة الخميس
التالية لليوم المذكور مترددين بين الرجاء واليأس فلما أسفر الصبح نشر
الله رحمته وأقشعت السحاب وطاب الهواء وأضاءت الشمس وأخذ في
السكون البحر فاستبشر الناس وعاد الانس وذهب اليأس والحمد لله
الذي أرانا عظيم قدرته ثم تلافى بجميل رحمته ولطيف رأفته حمداً
يكون كفاء لمنته ونعمته وفي هذا الصباح المذكور ظهر لنا بر صقلية

وقد اجزنا أكثره ولم يبق منه الا الاقل وأجمع من حضر من رؤساء
البحر من الروم وممن شاهد الاسفار والاهوال فى البحر من المسلمين
انهم لم يعاينوا قط مثل هذا الهول فيما سلف من أعمارهم والخبر عن
هذه الحالة يصغر في خبرها وبين البرين المذكورين بر سردانية وبر
صقلية نحو الاربعمائة ميل واستصحبنا من بر صقلية أزيد من مائتي ميل
ثم ترددنا بمحاذاته بسبب سكون الريح فلما كان عصر يوم الجمعة الحادي
والعشرين من الشهر المذكور أقلعنا من الموضع الذي كنا أرسينا فيه
وفارقنا البر المذكور اول تلك الليله وأصبحنا يوم السبت وبيننا وبينه
مسافة بعيدة وظهر لنا اذ ذاك الجبل الذي كان فيه البركان وهو جبل
عظيم مصعد فى جو السماء قد كساه الثلج وأعلمنا انه يظهر في البحر
مع الصحو على أزيد من مسيرة مائة ميل فأخذنا ملججين وأقرب
مانؤمله من البر الينا جزيرة اقريطش وهي من جزائر الروم ونظرها
الى صاحب القسطنطينية وبينها وبين جزيرة صقلية مسيرة سبعمائة ميل
والله كفيل بالتيسير والتسهيل بمنه وفى طول هذه البحيرة جزيرة
اقريطش المذكورة نحو من ثلثمائة ميل وفي ليلة الثلاثاء الخامس
والعشرين من الشهر المذكور وهو الثاني والعشرين من شهر مارث
حاذينا البر المذكور تقديراً لا عياناً وفي صبيحة اليوم المذكور فارقناه
متوجهين لقصدنا وبين هذه الجزيرة المذكورة وبين الاسكندرية
ستمائة ميل أو نحوها وفى صبيحة يوم الاربعاء السادس والعشرين منه
ظهر لنا البر الكبير المتصل بالاسكندرية المعروف ببر الغرب وحاذينا

منه موضعاً يعرف بجزائر الحمام على ماذكر لنا وبينه وبين الاسكندرية نحو الاربعمائة ميل على ماذكر لنا فأخذنا فى السير والبر المذكور منا يميناً وفى صبيحة يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر المذكور أطلع الله علينا البشرى بالسلامة بظهور منار الاسكندرية على نحو العشرين ميلا والحمد لله على ذلك حمداً يقتضى المزيد من فضله وكريم صنعه وفي آخر الساعة الخامسة منه كان ارساؤنا بمرسي البلد ونزولنا أثر ذلك والله المستعان فيما بقى بمنه فكانت اقامتنا على متن البحر ثلاثين يوماً ونزلنا في الحادي والثلاثين لان ركوبنا اياه كان يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر شوال ونزولنا عنه في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ذى القعدة وبموافقة السادس والعشرين من مارس والحمد لله على مامن به من التيسير والتسهيل وهو سبحانه المسؤول بتتميم النعمة علينا ببلوغ الغرض من المقصود وتعجيل الاياب الى الوطن على خير وعافية انه المنعم بذلك لارب سواه وكان نزولنا بها بفندق يعرف بفندق الصفار بمقربة من الصبانة ...

﴿ شهر ذى الحجة من السنة المذكورة ﴾

أوله يوم الاحد ثانى يوم نزولنا بالاسكندرية فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء الى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسئل كل واحد عما

لديه من سلع أو ناض ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو مالم يحل وكان أكثرهم متشخصين لاداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم فلزموا اداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا واستنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب فطيف به مرقباً على السلطان أولا ثم على القاضي ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان وفي كل يستفهم ثم يقيد قوله فخلى سبيله وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم وبحمل جميع ما أنزلوه الى الديوان فاستدعوا واحداً واحداً وأحضر ما لكل واحد من الاسباب والديوان قد غص بالزحام فوقع التفتيش لجميع الاسباب ما دق منها وما جل واختلط بعضهم ببعض وأدخلت الايدي الى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الايدي وتكاثر الزحام ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزي عظيم نسأل الله أن يعظم الاجر بذلك وهذه لا محالة من الامور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وايثار الرفق لازال ذلك وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة واستردوا الزكاة على أجمل الوجوه وما لقينا ببلاد هذا الرجل مايلم به قبيح لبعض الذكر سوى هذه الاحدوثة التي هي من نتائج عمال الدواوين

﴿ ذكر بعض أخبار الاسكندرية وآثارها ﴾

فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه حتى انا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضاً ومن العجب في وضعه ان بناءه تحت الارض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن لان الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الارض فتتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضاً وعاينا فيها أيضاً من سوارى الرخام وألواحه كثيرة وعلواً واتساعاً وحسناً مالا يتخيل بالوهم حتى انك تلقى في بعض الممرات بها سوارى يغص الجو بها صعوداً لا يدري مامعناها ولا لما كان أصل وضعها وذكر لنا انه كان عليها في القديم مبان للفلاسفة خاصة ولاهل الرئاسة في ذلك الزمان والله أعلم ويشبه أن يكون ذلك للرصد ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها (المنار) الذى قد وضعه الله عز وجل على يدى من سخر لذلك آية للمتوكلين وهداية للمسافرين لولاه ما اهتدوا في البحر الى بر الاسكندرية ويظهر على أزيد من سبعين ميلا ومبناه في غايه العتاقة والوثاقة طولا وعرضا يزاحم الجو سمواً وارتفاعاً يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف الخبر عنه يضيق والمشاهدة له تتسع ذرعنا أحد جوانبه الاربع فألفينا فيه نيفاً وخمسين باعاً ويذكر ان فى طوله أزيد من مائة وخمسين قامة وأما داخله فرأي هائل اتساعه معارج ومداخل وكثرة مساكن حتى ان المتصرف فيها والوالي في مسالكها ربما ضل وبالجملة لا

يحصلها القول والله لا يخليه من دعوة الاسلام ويبقيه وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة يتبرك الناس بالصلاة فيه طلعنا اليه يوم الخميس الخامس لذي الحجة المؤرخ وصلينا في المسجد المبارك المذكور وشاهدنا من شأن مبناه عجبا لا يستوفيه وصف واصف ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة الى سلطانه المدارس والمحارس الموضوعة فيه لاهل الطلب والتعبد يفدون من الاقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعليمه واجراء يقوم به جميع أحواله واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيهامتى احتاجوا الى ذلك ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء وقد رتب أيضا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون الى الاطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً ان السلطان عين لابناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان في كل يوم بالغاً ما بلغوا ونصب لتفريق ذلك كل يوم انساناً أميناً من قبله فقد ينتهى الى الفى خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة هكذا دائماً ولهذا كله اوقاف من قبله حاشا ما عينه من زكاة العين لذلك واكد على المتولين لذلك متى نقصهم من الوظائف المرسومة شيء ان يرجعوا الى صلب ماله وأما أهل بلده ففي نهاية من

الترفه واتساع الاحوال لا يلزمهم وظيف البتة ولا فائدة للسلطان بهذا البلد سوي الاوقاف المحبسة المعينة من قبله بهذه الوجوه وجزية اليهود والنصارى وما يطرأ من ذكاة العين خاصة وليس منها سوى ثلاثة أثمانها والخمسة الاثمان مضافة للوجوه المذكورة وهذا السلطان الذي سن هذه السنن المحمودة ورسم هذه الرسوم الكريمة على عدمها في المدة البعيدة هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب وصل الله صلاحه وتوفيقه ومن أعجب ما اتفق للغرباء ان بعض من يريد التقرب بالنصائح الى السلطان ذكر ان اكثر هؤلاء يأخذون جراية الخبز ولا حاجة لهم بها رغبة في المعيشة لانهم لا يصلون الا بزاد يقلهم فكاد يؤثر سعي هذا المتنصح فلما كان في احدى الايام خرج السلطان المذكور على سبيل التطلع خارج بلده فتلقى منهم جماعة قد لفظتهم الصحراء المتصلة بطرابلس وهم قد ذهب رسومهم عطشاً وجوعاً فسألهم عن وجهتهم واستطلع ما لديهم فاعلموه انهم قاصدون بيت الله الحرام وانهم ركبوا البر وكابدوا مشقة صحرائية فقال لو وصل هؤلاء وهم قد اعتسفوا هذه المجاهل التى اعتسفوها وكابدوا من الشقاء ما كابدوه وبيد كل واحد منهم زنته ذهباً وفضة لوجب ان يشاركوا ولا يقطعوا عن العادة التي أجريناها لهم فالعجب ممن يسعى على مثل هؤلاء ويروم التقرب الينا بالسعي في قطع ما أوجبناه لله عز وجل خالصاً لوجهه ومآثر هذا السلطان ومقاصده فى العدل ومقاماته في الذب عن حوزة الدين لا تحصى كثرة ومن الغريب أيضاً في احوال

هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع احوالهم وهو اكثر بلاد الله مساجد حتى ان تقدير الناس لها يطفف فمنهم المكثر والمقل فالمكثر ينتهي في تقديره الى اثنى عشر الف مسجد والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك وبالجملة فهى كثيرة جداً لكون منها الاربعة والخمسة في موضع وربما كانت مركبة بائمة مرتبين من قبل السلطان فمنهم من له الخمسه دنانير مصرية فى الشهر وهى عشرة مؤمنية ومنهم من له فوق ذلك ومنهم من له دونه وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان الى غير ذلك مما يطول ذكره من المآثر التى يضيق عنها الحصر ثم كان الانفصال عنه على بركة الله تعالى وحسن عونه صبيحة يوم الاحد الثامن لذي الحجة المذكورة وهو الثالث لا بريل فكانت مرحلتنا منه الى موضع يعرف بدمنهور وهو بلد مسور في بسيط من الارض افيح متصل من الاسكندرية اليه الى مصر والبسيط كله محرث يعمه النيل بفيضه والقرى فيه يميناً وشمالاً لا تحصى كثرة ثم في اليوم الثانى وهو يوم الاثنين اجزنا النيل بموضع يعرف بصا في مركب تعديه واتصل سيرنا الى موضع يعرف بيرمة فكان مبيتنا بها وهي قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق ثم بكرنا منها يوم الثلاثاء وهو يوم عيد النحر من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة المؤرخة فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطندته وهي من القرى الفسيحة الآهلة فابصرنا بها مجمعاً حفيلاً وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة واتصل سيرنا

الى موضع يعرف بسبك وكان مبيتنا بها واجتزنا في ذلك اليوم على
موضع حسن يعرف بمليج والعمارة متصلة والقرى منتظمة في طريقنا
كلها (ثم) بكرنا منها يوم الاربعاء بعده فمن أحسن بلد مررنا عليه
موضع يعرف بقليوب على ستة أميال من القاهرة فيه الاسواق الجميلة
ومسجد جامع كبير حفيل البنيان ثم بعده المنية وهو موضع أيضاً
حفيل ثم منها الى القاهرة وهي مدينة السلطان الحفيلة المتسعة ثم منها
الى مصر المحروسة وكان دخولنا فيها أثر صلاة العصر من يوم الاربعاء
وهو الحادي عشر من ذي الحجة المذكور والسادس من ابريل عرفنا
الله فيها الخير والخيرة وتمم علينا صنعه الجميل بالوصول الى الغرض
المأمول ولا أخلانا من التيسير والتسهيل بعزته وقدرته انه على مايشاء
وقدير وفي يوم الاربعاء المذكور اجتزنا القسم الثاني من النيل في
مركب تعدية أيضاً بموضع يعرف بدجوة وذلك وقت الغداة الصغرى
كان نزولنا في مصر بفندق أبي الثناء في زقاق القناديل بمقربة من جامع
عمرو بن العاص رضي الله عنه في حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور

﴿ ذكر مصر والقاهرة وبعض آثارهما العجيبة ﴾

فاول ما نبدأ بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة التي ببركتها يمسكها
الله عز وجلّ فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة حيث
رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما وهو في تابوت فضة مدفون
تحت الارض قد بنى عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولا يحيط

الادراك به مجلل بانواع الديباج محفوف بامثال العمد الكبار شمعاً أبيض ومنه ماهودون ذلك قد وضع اكثرها فى أتوار فضة خالصة ومنها مذهبة وعلقت عليه قناديل فضة وحف اعلاه كله بامثال التفافيح ذهباً في مصنع شبيه الروضة يقيد الابصار حسناً وجمالا فيه من انواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا تجتليه المتخيلون ولا يحق أدنى وصفه الواصفون والمدخل الى هذه الروضة على مسجد على مثالها فى التأنق والغرابة حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بنيان من كليهما المدخل اليها وهما أيضاً على تلك الصفة بعينها والاستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع ومن أعجب ماشاهدناه في دخولنا الى هذا المسجد المبارك حجر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص يصف الاشخاص كلها كأنه المرآة الهندية الحديثة الصقل وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك واحداقهم به وانكبابهم عليه وتمسحهم بالكسوة التى عليه وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين الى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ومتضرعين بما يذيب الاكباد ويصدع الجماد والامر فيه أعظم ومرأى الحال أهول نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم وانما وقع الالماع بنبذة من صفته مستدلا على ما وراء ذلك اذ لا ينبغي لعاقل ان يتصدى لوصفه لانه يقف موقف التقصير والعجز وبالجملة فما أظن في الوجود كله مصنعاً أحفل منه ولا مرأى من البناء أعجب ولا ابدع قدس الله العضو الكريم

الذى فيه بمنه وكرمه وفى ليلة اليوم المذكور بتنا بالجبانة المعروفة بالقرافة وهي أيضاً احدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين وأهل البيت والصحابة رضوان الله عليهم والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والاولياء ذوى الكرامات الشهيرة والانباء الغريبة وانما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته فنها قبر ابن النبي صالح وقبر روبيل بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين وقبر آسية امرأة فرعون رضي الله عنها ومشاهد أهل البيت رضى الله عنهم أجمعين مشاهد أربعة عشر من الرجال وخمس من النساء وعلى كل واحد منها بناء حفيل فهي بأسرها روضات بديعة الاتقان عجيبة البنيان قد وكل بها قوم يسكنون فيها ويحفظونها ومنظرها منظر عجيب والجرايات متصلة لقوامها فى كل شهر

﴿ ذكر مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم ﴾

مشهد على بن الحسين بن على رضى الله عنه ومشهدان لابنى جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهم ومشهد القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد بن على زين العابدين المذكور رضى الله عنهم ومشهدان لابنيه الحسن والحسين رضى الله عنهما ومشهد ابنه عبد الله بن القاسم رضى الله عنه ومشهد ابنه يحيي بن القاسم ومشهد على بن عبد الله بن القاسم رضى الله عنهم ومشهد أخيه عيسى بن عبد الله رضى الله عنه ومشهد يحيي بن الحسن بن زيد بن الحسن رضى الله عنه ومشهد محمد بن

عبد الله بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم ومشهد جعفر بن محمد من ذرية على بن الحسين رضى الله عنهم وذكر لنا انه كان ربيب الامام مالك رضى الله عنه

﴿مشاهد الشريفات العلويات رضى الله عنهن﴾

مشهد السيدة أم كلثوم ابنة القاسم بن محمد بن جعفر رضى الله عنهم ومشهد السيدة زينب ابنة يحيى بن زيد بن الحسين بن على رضى الله عنهم ومشهد أم كلثوم ابنة محمد بن جعفر الصادق رضي الله عنهم ومشهد السيدة أم عبد الله بن القاسم بن محمد رضي الله عنهم وهذا ذكر ما حصله العيان من هذه المشاهد العلوية المكرمة وهي أكثر من ذلك وأخبرنا ان فى جملتها مشهداً مباركا لمريم ابنة على بن أبي طالب رضى الله عنه وهو مشهور لكنا لم نعاينه وأسماء أصحاب هذه المشاهد المباركة انما تلقيناها من التواريخ الثابتة عليها مع تواتر الاخبار بصحة ذلك والله أعلم بها وعلى كل واحد منها بناء حفيل فهي بأسرها روضات بديعة الاتقان عجيبة البنيان قد وكل بها قَوَمَةٌ يسكنون فيها ويحفظونها ومنظرها منظر عجيب والجرايات متصلة لقوامها في كل شهر

(ذكر مشاهد بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالقرافة المذكورة ومشاهد التابعين والائمة والعلماء والزهاد والاولياء المشهورين بالكرامات رضي الله عنهم أجمعين)

والمقيد يبرأ من القطع بصحة ذلك وانما رسم من أسمائهم ما وجده مرسوماً في تواريخها وبالجملة فالصحة غالبة لايشك فيها ان شاء الله عز وجل) • مشهد معاذ بن جبل رضى الله عنه مشهد عقبة بن عامر الجهني حامل راية رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهد صاحب برده صلى الله عليه وسلم مشهد أبي الحسن صائغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهد سارية الجبل رضي الله عنه مشهد محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه مشهد أسماء ابنة أبي بكر الصديق رضى الله عنهم • مشهد ابن الزبير بن العوام رضي الله عنهما مشهد عبد الله ابن حذافة السهمى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهد ابن حليمة رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ مشاهد الأئمة العلماء الزهاد رضى الله عنهم أجمعين ﴾

مشهد الامام الشافعى رضى الله عنه وهو من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعاً وبنى بازائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها لا اوسع مساحة ولا أحفل بناء يخيل لمن يتطوف عليها انها بلد مستقل بذاته بازائها الحمام الى غير ذلك من مرافقها والبناء فيها حتى الساعة والنفقة عليها لا تحصي تولى ذلك بنفسه الشيخ الامام الزاهد العالم المعروف

نجم الدين الخبوشاني وسلطان هذه الجهات صالح الدين يسمح له بذلك كله ويقول زد احتفالا وتأنقاً وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله فسبحان الذي جعله صلاح دينه كاسمه ولقينا هذا الرجل الخبوشاني المذكور تبركا بدعائه لانه قد كان ذكر لنا أمره بالاندلس فألفيناه في مسجده بالقاهرة وفي البيت الذي يسكنه داخل المسجد المذكور وهو بيت ضيق الفناء فدعا لنا وانصرفنا ولم نلق من رجال مصر سواه مشهد المزني صاحب الامام الشافعي رضى الله عنه مشهد أشهب صاحب مالك رضى الله عنه مشهد عبد الرحمن ابن القاسم صاحب مالك رضى الله عنهما مشهد أصبغ صاحب مالك رضى الله عنهما مشهد القاضي عبد الوهاب رضى الله عنه مشهد عبد الله ابن (عبد) الحكم ومحمد ابن عبد الله ابن عبد الحكم رضى الله عنهما مشهد الفقيه الواعظ الزاهد أبي الحسن الدينوري رضى الله عنه مشهد بنان العابد رضى الله عنه مشهد الرجل الصالح العابد الزاهد المعروف بصاحب الابريق وقصته عجيبة في الكرامة مشهد أبي مسلم الخولاني رضى الله عنه مشهد المرأة الصالحة المعروفة بالعيناء رضي الله عنها مشهد الروزباري رضي الله عنه مشهد محمد بن مسعود بن محمد بن هارون الرشيد المعروف بالسبتي رضي الله عنه مشهد الرجل الصالح مقبل الحبشي رضي الله عنه مشهد ذي النون بن ابراهيم المصري رضي الله عنه مشهد القاضي الانباري قبر الناطق الذي سمع عند وضعه في لحده يقول اللهم أنزلني منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين رضي الله عنه مشهد العروس ولها أثر

من الكرامة في حال جلوتها على زوجها لم يسمع أعجب منه ومشهد
الصامت الذى يحكي عنه انه لم يتكلم أربعين سنة مشهد العصافيري
رضى الله عنه مشهد عبد العزيز بن أحمد بن علي بن الحسن
الخوارمي مشهد الفقيه الواعظ الافضل الجوهرى ومشاهد أصحابه
بازائه رضي الله عنهم أجمعين مشهد شقران شيخ ذى النون المصرى
مشهد الرجل الصالح المعروف بالاقطع المغربي مشهد المقرئ ورش مشهد
الطبرى مشهد شيبان الراعى والمشاهد الكريمة بها أكثر من ان تضبط
بالتقييد أو تحصل بالاحصاء وانما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته وبقبلة
القرافة المذكورة بسيط متسع يعرف بموضع قبور الشهداء وهم الذين
استشهدوا مع السارية رضي الله عنهم جميعاً والبسيط المذكور منهم
كله للعيان على مثال أسنمة القبور دون بناء ومن العجيب ان القرافة
المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوى اليها الغرباء
والعلماء والصلحاء والفقراء والاجراء على كل موضع منها متصل من
قبل السلطان في كل شهر والمدارس التي بمصر والقاهرة كذلك وحقق
عندنا ان الاجراء على ذلك كله نيف على ألفى دينار مصرية في الشهر
وهى أربعة آلاف دينار مؤمنية وذكر لنا ان لجامع عمرو بن العاص
بمصر من الفائدة نحو الثلاثين ديناراً مصرية في كل يوم تتفرق فى
مصالحه ومرتبات قومته وسدنته وأئمته والقراء فيه ومما شاهدناه
بالقاهرة أربعة جوامع حفيلة البنيان أنيقة الصنعة الى مساجد عدة
وفي أحد الجوامع الخطبة اليوم ويأخذ الخطيب فيها مأخذ سنّي يجمع فيها

الدعاء للصحابة رضي الله عنهم وللتابعين ومن سواهم ولامهات المؤمنين
زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ولعميه الكريمين حمزة والعباس
رضى الله عنهما وبلطف الوعظ ويرقق التذكير حتى تخشع القلوب
القاسية وتتفجر العيون الجامدة ويأتى للخطبة لابساً السواد على رسم
العباسية وصفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان شرب أسود وهو
الذي يسمى بالمغرب الاحرام وعمامة سوداء متقلداً سيفاً وعند صعوده
المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر في أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين
كأنها ايذان بالانصات وفي توسطه أخرى وفي انتهاء صعوده ثالثة ثم
يسلم على الحاضرين يميناً وشمالا ويقف بين رايتين سوداويين فيهما
تجزيع بياض قد ركزتا في اعلاه المنبر ودعاؤه في هذا التاريخ للامام
العباس أبي العباس أحمد الناصر لدين الله ابن الامام أبي محمد الحسن
المستضيء بالله ابن الامام أبي المظفر يوسف المستنجد بالله ثم لمحيي دولته
أبي المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين ثم لاخيه ولى عهده أبي بكر
سيف الدين وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة
حصين المنعة يريد السلطان ان يتخذه موضع سكناه ويمد سوره حتى
ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة والمسخرون فى هذا البنيان والمتولون
لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام
وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور وهو خندق ينقر
بالمعاول نقراً في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار العلوج
الاسارى من الروم وعددهم لايحصى كثرة ولا سبيل ان يمتهن في

ذلك البنيان أحد سواهم وللسلطان أيضاً بمواضع أخر بنيان والاعلاج يخدمون فيه ومن يمكن استخدامه من المسلمين في مثل هذه المنفعة العامة موفقة عن ذلك كله ولا وظيفة في شيء من ذلك على أحد ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان

المارستان الذى بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً وعين قيما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الاشربة واقامتها على اختلاف أنواعها ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الاغذية والاشربة ما يليق بهم وبازاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضي ولهن من يكفلهن ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها والسلطان يتطلع هذه الاحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد وبمصر

مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب الى أبي العباس أحمد بن طولون وهو من الجوامع العتيقة الانيقة الصنعة الواسعة البنيان جعله السلطان مأوي للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه وأجري عليهم الارزاق في كل شهر (ومن أعجب) ماحدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل

أحكامهم اليهم ولم يجعل يداً لاحد عليهم فقدموا من أنفسهم حاكما يمتثلون أمره ويتحاكمون في طواري أمورهم عنده واستصحبوا الدعة والعافية وتفرغوا لعبادة ربهم ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذي هم بسبيله وما منها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس الا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى اليها ويلزم السكن فيها تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الاموال ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة انه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والايتام خاصة وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم ومن مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنتفعة للمسلمين القناطر التى شرع في بنائها بغربي مصر وعلى مقدار سبعة أميال منها بعد وصيف ابتدئ به من حيز النيل باذاء مصر كأنه جبل ممدود على الارض تسير به مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة وهي نحو الاربعين قوساً من أكبر مايكون من قسى القناطر والقنطرة متصله بالصحراء التى تفضى منها الى الاسكندرية له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة أعدادا لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الاسكندرية عند فيض النيل وانغمار الارض به وامتناع سلوك العساكر بسببه فأعد ذلك مسلكا في كل وقت ان احتيج الى ذلك والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحذور بمنه ولاهل مصر فى شأن هذه القنطرة انذار من الانذرات الحدثانية يرون أن حدوثها

ايذان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات الشرقية والله أعلم بغيبه ولا إله سواه وبمقربة من هذه القنطرة المحدثة (الاهرام) القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر المربعة الشكل كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء ولا سيما الاثنان منها فانهما يغص الجو بهما سموا في سعة الواحد منها من أحد أركان الى الركن الثانى ثلثمائة خطوة وست وستون خطوة قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة وركبت تركيباً هائلا بديع الالصاق دون أن يتخللها مايعين على الصاقها محددة الاطراف فى رأى العين وربما أمكن الصعود اليها على خطر ومشقة فتلفى أطرافها المحددة كاوسع مايكون من الرحاب لو رام أهل الارض نقض بنائها لاعجزهم ذلك للناس في أمرها اختلاف فمنهم من يجعلها قبوراً لعاد وبنيه ومنهم من يزعم غير ذلك وبالجملة فلا يعلم شأنها الا الله عز وجل ولاحد الكبيرين منها باب يصعد اليه على نحو القامة من الارض أو أزيد ويدخل منه الى بيت كبير سعته نحو الخمسين شبراً وطوله نحو ذلك وفى جوف ذلك البيت رخامة طويلة مجوفة شبه التى تسميها العامة البيلة يقال انها قبر والله أعلم بحقيقة ذلك ودون الكبير هرم سعته من الركن الواحد الى الركن الثاني مائة وأربعون خطوة ودون هذا الصغير خمسة صغار ثلاثة متصلة والاثنان على مقربة منها متصلان وعلى مقربة من هذه الاهرام بمقدار غلوة صورة غريبة من حجر قد قامت كالصومعة على صفة آدمي هائل المنظر وجهه الى الاهرام وظهره الى القبلة مهبط النيل تعرف بأبى الاهوال وبمدينة مصر المسجد الجامع

المنسوب لعمرو بن العاص رضي الله عنه وله أيضاً بالاسكندرية جامع آخر ومصلى الجمعة للمالكين وبمدينة مصر آثار من الخراب الذى أحدثه الاحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين وذلك سنة أربع وستين وخمسمائة وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل وهي مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها وعلى مقربة منها ظاهرة تدل على عظم اختطاطها فيما سلف وعلى شط نيلها مما يلي غربيها والنيل معترض بينهما قرية كبيرة حفلة البنيان تعرف بالجيزة لها كل يوم أحد سوق من الاسواق العظيمة يجتمع اليها ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان وعلالى مشرفة وهي مجمع اللهو والنزهة وبينها وبين مصر خليج من النيل يذهب بطولها نحو الميل ولها مخرج له وبهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه ويتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة واستشعار ابتداءه في شهر يونيه ومعظم انتهائه أغشت وآخره أول شهر اكتوبر وهذا المقياس عمود رخام أبيض مثمن فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه اليه وهو مفصل على اثنين وعشرين ذراعا مقسمة على أربعة وعشرين قسما تعرف بالاصابع فاذا انتهي القبض عندهم الى أن يستوفى الماء تسع عشرة ذراعا منغمرة فيه فهي الغاية عندهم في طيب العام وربما كان العام فيه كثيراً بعموم الفيض والمتوسط عندهم مااستوفي سبع عشرة ذراعا وهو الاحسن عندهم من الزيادة المذكورة والذى يستحق به السلطان خراجه من بلاد مصر ست عشرة ذراعا فصاعداً وعليها

لعطى البشارة الذي يراعى الزيادة فى كل يوم والزيادة في أقسام الزراعة
المذكورة ويعلم بها مياومة حتى تستوفي الغاية التى يقض بها وان قصر
عن ست عشرة ذراعافلا مجبا للسلطان فى ذلك العام ولا خراج ذلك لنا
أن بالجيزة المذكورة قبر كعب الاحبار رضي الله عنه وفى صدر الجيزة
المذكورة أحجار رخام قد صورت فيهـا التماسيح فيقال أن بسببها
لاتظهر التماسيح فيما يلى البلد من النيـل مقـدار ثلاثة أميال عـلواً
وسفلا والله أعلم بحقيقة ذلك ومن مفاخر هـذا السلطان المزلفة من
الله تعالي وآثاره التى ابقاها ذكراً جميـلا للدين والدنيا
ازالتـه رسم المكس المضروب وظيفـة على للحجاج مـدة دولة
العبيديين فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استئدائها عنتا مجحفاً
ويسلبون فيها خطة خسف باهظة وربما ورد منهـم من لا فضـل
لديه على نفقته أولا نفقة عنده فيلزم اداء الضريبة المعلومة وكان سبعة
دنانير ونصف دينار ومن الدنانير المصرية التى هي خمسة عشر ديناراً
مؤمنية على كل رأس يعجز عن ذلك فيتناول بأليم العـذاب بعيذاب
فكانت كاسمهامفتوحة العين وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق
من الانثيين أو غير ذلك من الامور الشنيعة نعوذ بالله من سوء قدره
وكان بجدة امثال هـذا التنكيل واضعافه لمن لم يؤدي مكسه بعيذاب
ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الاداء فمحي هذا السـلطان هذا الرسم
اللعين ورفع عوضاً منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها وعين مجبيء
موضع معين بأمره كذلك وتكفل بتوصل جميع ذلك الى الحجاز

بأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة عمرهما الله فعوض من ذلك أجل عوض وسهل السبيل للحجاج وكانت في حيز الانقطاع وعدم الاستطلاع وكفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثا عظيما وخطبا أليما فترتب له على كل من يعتقد من الناس ان حج البيت الحرام أحد القواعد الخمس من الاسلام حتى يعم جميع الآفاق ويوجب الدعاء له في كل صقع من الاصقاع وبقعة من البقاع والله من وراء مجازاة المحسنين وهو جلت قدرته لا يضيع أجر من أحسن عملا الى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ضرائب على كل مايباع ويشترى مما دق أو جل حتى كان يؤدي على شرب ماء النيل المكث فضلا عما سواه فمحى هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها وبسط العدل ونشر الامن ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل ان الناس في بلاده يخلعون لباس الليل تصرفا فيما يعنيهم ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والاسكندرية حسبما تقدم ذكره

﴿ شهر محرم سنة تسعة وسبعين عرفنا الله يمنها وبركتها ﴾

استهل هلاله ليلة الثلاثاء وهو اليوم السادس والعشرون من ابريل ونحن بمصر يسر الله علينا مرامنا وفي صبيحة يوم الاحد السادس من محرم المذكور كان انفصالنا من مصر وصعودنا في النيل على الصعيد قاصدين الى (قوص) عرفنا الله عادته الجميلة من التيسير وحسن المعونة

بمنه ووافق يوم أقلاعنا المذكور أول يوم من مايه بحول الله عز وجل والقري في طريقنا متصلة في شط النيل والبلاد الكبار حسبما يأتي ذكره ان شاء الله فمنها قرية تعرف (بالسكون) في الضفة الشرقية من النيل مباشرة للصاعد فيه ويذكر ان فيها كان مولد النبي موسى الكليم صلي الله عليه وسلم ومنها ألقته أمه فى اليم وهو النيل حسبما ذكر وعاينا أيضاً بغربي النيل ميامنا لنا وذلك كله يوم أقلاعنا المذكور وفى الثاني منه المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصديق صلى الله عليه وسلم وبها موضع السجن الذى كان فيه وهو الآن ينقض وينقل احجاره الى القلعه المبتناه الآن على القاهرة وهو حصن حصين المنعة وبهذه المدينة المذكور الطعام التي اختزنها يوسف صلى الله عليه وسلم وهي مجوفة على ما يذكر ومنها الموضع المذكور (بمنية ابن الخصيب) وهو بلد على شط النيل ميامنا للصاعد فيه كبير فيه الاسواق والحمامات وسائر مرافق المدن اجتزنا عليه ليلة الاحد الثالث عشر لمحرم المذكور وهو الثامن يوم أقلاعنا من مصر لان الريح سكنت عنا فتربصنا في الطريق ولو ذهبنا الى وسم كل موضع يعترضنا في شطي يمينا أو شمالا لضاق الكتب عنه لكن نقصد من ذلك الى الاكبر الاشهر وقابلنا على مقربة من هذا الموضع مياسراً لنا المسجد المبارك المنسوب لابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه وعلى نبينا وسلم وهو مسجد مذكور مشهور معلوم بالبركة مقصود ويقال ان بفنائه أثر الدابة التى كان يركبها الخليل صلى الله عليه وسلم ومنها موضع يعرف (بأنصنا) مياسراً لنا وهي قرية فسيحة جميلة لها آثار قديمة وكان في السالف مدينة عتيقة

وكان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين وجعل على كل مركب منحدر في النيل وظيفة من حمل صخره الى القاهرة فنقل بأسره اليها وفي صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من محرم المذكور وهو التاسع من اقلاعنا من مصر أجزنا بالجبل المعروف بجبل المقله وهو بالشط الشرقى من النيل مباشراً للصاعد فيه وهو نصف الطريق الى (قوص) من مصر اليه ثلاثة عشر بريداً ومنه الى قوص مثلها ومما يجب ذكره على جهة التعجب ان من حيز مصر في شط النيل الشرقى مصاعداً للصاعد فيه حائطاً متصلا قديم البنيان منه ما قد تهدم ومنه ما بقى أثره يتمادى على الشط المذكور الى اسوان آخر صعيد مصر وبين اسوان وبين قوص ثمانية برد والاقوال في أمر هذا الحائط تتشعب وتختلف بالجملة فشأنه عجيب ولا يعلم سره الا الله عز وجل وهو يعرف بحائط العجوز ولها خبر مذكور أظن هذه العجوز هي الساحرة المذكور خبرها في المسالك والممالك التى كانت لها المملكة بها مدة

﴿ ذكر ما استدرك خبره مما كان اغفل ﴾

وذلك انا حللنا الاسكندرية في الشهر المؤرخ أولا عاينا مجتمعاً من الناس عظيما بروزا لمعاينة اسرى من الروم ادخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوهم الى اذنابها وحولهم الطبول والابواق فسألنا عن قصتهم فأخبرنا بأمر تتفطر له الاكباد اشفاقا وجزعا وذلك ان جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب في أقرب الموضع التى لهم من بحر

القلزم ثم حملوا انقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم
عليه ولما حصلوا بساحل البحر سمروا مراكبهم وأكملوا انشاءها
وتأليفها ورفعوها فى البحر وركبوها قاطعين بالحجاج وانتهوا الى بحر
النعم فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا وانتهوا الى عيذاب فأخذوا فيه
مركبا كان يأتي بالحجاج من جدة وأخذوا أيضاً في البر قافلة كبيرة تأتى
من قوص الى عيذاب وقتلوا الجميع ولم يحيوا أحداً وأخذوا مركبين
كانا مقبلين بتجار من اليمن وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل
كانت معدة لميرة مكة والمدينة أعزهما الله وأحدثوا حوادث شليعة
لم يسمع مثلها في الاسلام ولا انتهى رومي الى ذلك الموضع قط
ومن عظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة وذلك انهم كانوا
عازمين على دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم واخراجه
من الضريح المقدس أشاعوا ذلك وأجروا ذلك على ألسنتهم فأخذهم
الله باجترائهم عليه وتعاطيهم مايحول عناية القدر بينهم وبينه ولم يكن بينهم
وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت
من مصر والاسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلولو مع انجاد
من المغاربة البحريين فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه
فأخذوا عن آخرهم وكانت آية من آيات العنايات الجبارية وأدركوهم
عن مدة طويلة كان بينهم من الزمان نيف على شهر ونصف أو حوله
وقتلوا وأسروا وفرق من الاسارى على البلاد ليقتلوا بها ووجه منهم
الى مكة والمدينة وكفى الله بجميل صنعه الاسلام والمسلمين أمراً عظيما

والحمد لله رب العالمين (رجع الذكر) ومن المواضع التى اجتزنا عليها فى الصعيد بعد جبل المقلة التي ذكرنا انه نصف الطريق من مصر الى قوص حسبما تقدم ذكره بموضع يعرف (بمنفلوط) بمقربة من الشط الغربي ميامناً للصاعد فى النيل فيه الاسواق وسائر مايحتاجون اليه من المرافق فى نهاية من الطيب فى الصعيد مثلها وقمحها يجلب الى مصر لطيبه ورزانة حبته قد اشتهر عندهم بذلك فالتجار يصعدون في المراكب لاستجلابه ومنها مدينة (أسيوط) وهي من مدن الصعيد الشهيرة بينها وبين الشط الغربى من النيل مقدار ثلاثة أميال وهي جميلة المنظر حولها بساتين النخل وسورها سور عتيق ومنها موضع يعرف (بأبى تيج) وهو بلد فيه الاسواق وسائر مرافق المدن وهو فى الشط الغربي من النيل منها مدينة أخميم وهي أيضاً من مدن الصعيد الشهيرة المذكورة بشرقي النيل وعلى شطه قديمة الاختطاط عتيقة الوضع فيها مسجد ذى النون المصرى ومسجد داود أحد الصالحين المشهورين بالخير والزهادة ومنها مسجدان مرسومان بالبركة دخلنا اليها متبركين بالصلاة فيها وذلك يوم السبت التاسع عشر لمحرم المذكور وبهذه المدينة المذكورة آثار ومصانع من بنيان القبط وكنائس معمورة الى الآن بالمعاهديين من نصارى القبط ومن أعجب الهياكل المتحدث بغرائبها في الدنيا هيكل عظيم فى شرقى المدينة المذكورة وتحت سورها طوله مائتا ذراع وعشرون ذراعا وسعته مائة وستون ذراعا يعرف عند أهل هذه الجهة بالبردا وكذلك يعرف كل هيكل عندهم وكل مصنع

قديم قد قام هذا الهيكل المعظم على أربعين سارية حاشي حيطانه دور كل سارية منها خمسون شبراً وبين كل سارية وسارية ثلاثون شبراً ورؤسها فى نهاية من العظم والاتقان قد نحتت نحتاً غريباً فجاءت مركبة بديعة الشكل كان الخراطين تناولوها وهي كلها مزركشة بأنواع الاصبغة اللازوردية وسواها والسواري كلها منقوشة من أسفلها الى أعلاها وقد انتصب على رأس كل سارية منها الى رأس صاحبتها التى تليها لوح عظيم من الحجر المنحوت من أعظمها ما كلنا فيه ستة وخمسين شبراً طولا وعشرة أشبار عرضاً وثمانية أشبار ارتفاعا وسقف هذا الهيكل كله من أنواع الحجارة المنتظمة ببديع الالصاق فجاءت كأنها فرش واحد وقد انتظمت جميعه التصاوير البديعة والاصبغة الغريبة حتى يخيل للناظر فيها انها سقف من الخشب المنقوش والتصاوير على أنواع في كل بلاطة من بلاطاته فمنها ماقد جللته طيور لصور رائقة باسطة أجنحتها توهم الناظر اليها انها تهم بالطيران ومنها ماقد جللته تصاوير آدمية رائقة المنظر رائعة الشكل قد أعدت لكل صورة منها هيئة هي عليها كامساك تمثال بيدها أو سلاح أو طائر أو كأس أو اشارة شخص الى آخر بيده أو غير ذلك مما يطول الوصف له ولا تتأتي العبارة لاستيفائه داخل هذا الهيكل المعظم وخارجه وأعلاه وأسفله تصاوير كلها مختلفات الاشكال والصفة منها تصاوير هائلة المنظر خارجة عن صور الآدميين يستشعر الناظر اليها رعباً ويملأ منها عبرة وتعجباً وما فيه مغرز اشفاً ولا ابرة الا وفيه صورة أو نقش أو خط

بالمسند لايفهم قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع
ويتأنى في صم الحجارة من ذلك مالايتأتى في الرخو من الخشب فيحسب
الناظر استعظاماً له ان عمل الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزيينه
لضاق عنه فسبحان الموجد للعجائب لااله سواه وعلى أعلى هذا الهيكل
سطح مفروش بألواح الحجارة العظيمة على الصفة المذكورة وهو في
نهاية الارتفاع فيحار الوهم فيها ويضل العقل في الفكرة في تطليعها ووضعها
وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج والمصاعد
والمعارج والمسارب والموالج ماتضل فيه الجماعات من الناس ولايهتدى
بعضهم لبعض الا بالنداء العالى وعرض حائطه ثمانية عشر شبراً وهو
كله من حجارة مرصوصة على الصفة التى ذكرناها وبالجملة • فشأن
هذا الهيكل عظيم ومرآه احدى عجائب الدنيا التى لايبلغها الوصف
ولا ينتهى اليها الحد وانما وقع الالماع بنبذة من وصفه دلالة عليه والله
محيط بالعلم فيه او الخبير بالمعنى الذى وضع له فلا يظن المتصفح لهذا
المكتوب ان في الاخبار عنه بعض غلو ان كل مخبر عنه لو كان قساً بياناً
أو سحباناً يقف موقف العجز والتقصير والله المحيط بكل شيء علماً لااله
سواه وببلاد هذا الصعيد المعترضة في الطريق * للحجاج والمسافرين كاخميم
وقوص ومنية ابن الخصيب من التعرض لمراكب المسافرين وتكشفها
والبحث عنها وادخال الايدى الى أوساط التجارة فحصاً عما تأبطوه أو
أو احتضنوه من دراهم أو دنانير مايقبح سماعه وتستبشع الا حدوثه
عنه كل ذلك برسم الزكاة دون مراعاة لمحلها أو مايدرك النصاب عنها

حسبما ذكرناه في ذكر الاسكندرية من هذا المكتوب وربما ألزموهم
الايمان على ما بأيديهم وهل عندهم غير ذلك ويحضرون كتاب الله العزيز
يقع اليمين عليه فيقف الحجاج بين أيدى هؤلاء المتناولين لها مواقف
خزي ومهانة تذكرهم أيام المكوس وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح
الدين لايعرفه ولو عرفه لأمر بقطعه كما أمر بقطع ماهو أعظم منه
ولجاهد المتناول له فان جهادهم من الواجبات لما يصدر عنهم من التعسف
وعسير الازهاق وسوء المعاملة مع غرباء انقطعوا الى الله عز وجل
وخرجوا مهاجرين الى حرمه الامين ولو شاء الله لكانت هذه الخطة
مندوحة في اقتضاء الزكاة على أجمل الوجوه من ذوى البضائع في
التجارات مع مراعاة رأس كل حول الذى هو محل الزكاة وتجنب
اعتراض الغرباء المنقطعين ممن تجب الزكاة له لا عليه وكان يحافظ على
جانب هذا السلطان العادل الذى قد شمل البلاد عدله وسار في الآفاق
ذكره ولا يسعى فيما يسيء الذكر ممن قد حسن الله ذكره ويقبح
المقالة في جانب من اجمل الله المقالة عنه ومن (أشنع ماشاهدناه) من ذلك
خروج شرذمة من مردة أعوان الزكاة في أيديهم المسال الطوال ذوات
الانصبة فيصعدون الى المراكب استكشافاً لما فيها فلا يتركون عكماً ولا
غرارة الا ويتخللونها بتلك المسال الملعونة مخافة أن يكون في تلك
الغرارة او العكم الذين لا يحتويان سوى على الزاد شيئاً غيب عليه من
بضاعة أو مال وهذا اقبح ما يؤثر فى الاحاديث الملعنة وقد نهى الله
عن التجسيس فكيف عن كشف لما يرجى بستر الصون دونه من حال

لا يريد صاحبها أن يطلع عليها اما استحقاراً او استنفاساً دون بخل بواجب يلزمها والله الآخذ على أيد هؤلاء الظلمة بيد هذا السلطان العادل وتوفيقه ان شاء الله ومن المواضيع التي اجتزنا عليها بعد اخميم المذكورة موضع منشأة السودان على الشط الغربى من النيل هي قرية معمورة ويقال انها كانت في القدم بديعة كبيرة وقد قام امام هذه القرية بينها وبين النيل رصيف عال من الحجارة كانه الصور يضرب فيه النيل ولا يعلوه عند فيضه ومده فالقرية بسببه في أمن من آتيه ومنها موضع يعرف (بالبلينة) وهي قرية حسنة كثيرة النخل بالشط الغربى من النيل بينها وبين قوص أربعة برد ومنها موضع يعرف (بدشنة) بالشط الشرقى من النيل وهي مدينة معمورة في جميع مرافق المدن وبينها وبين قوص بريدان ومنها موضع بغربي النيل وعلى مقربة من (شعله) يعرف بدندره وهي مدينة من مدن الصعيد كثيرة النخل مستحسنة المنظر مشهورة بطيب الرطب بينها وبين قوص بريد وذكر لنا ان فيها هيكلاً عظيما وهو معروف عند أهل هذه الجهات بالبربا حسبما ذكرنا عند ذكر اخميم وهيكلها يقال ان هيكل دندره أحفل منه وأعظم ومنها مدينة (قنا) وهي من مدن الصعيد بيضاء أنيقة المنظر ذات مبان حفيلة ومن مآثرها المأثورة صون نساء أهلها والتزامهن البيوت فلا تظهر في زقاق من أزقتها امرأة البتة صحت بذلك الاخبار عنهن وكذلك نساء (دشنة)المذكورة قبيل هذا وهذه المدينة المذكورة في الشط الشرقي من النيل وبينها وبين قوص نحو البريد ومنها (قفط)وهي مدينة بشرقي

النيل وعلى مقدار ثلاثة أميال من شطه وهي من المدن المذكورة في
الصعيد حسناً ونظافة بنيان واتقان وضع ثم كان الوصول الى (قوص)
يوم الخميس الرابع والعشرين لمحرم المؤرخ وهو التاسع عشر من مايو
فكان مقامنا في النيل ثمانية عشر يوماً ودخلنا قوص في التاسع عشر
وهذه المدينة حفيلة الاسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة
الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض
الحبشة لانها محط للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج
المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم ومنها يفوزون
بصحراء عيذاب واليها انقلابهم في صدرهم من الحج وكان نزولنا
فيها بفندق ينسب لابن العجمي بالمنية وهي ربض كبير خارج المدينة على
باب الفندق المذكور

﴿شهر صفر عرفنا الله يمنه وبركته﴾

استهل هلاله ليلة الاربعاء وهو الخامس والعشرين من شهر مايو
ونحن بقوص نروم السفر الى عيذاب يسر الله علينا مرامه بمنه وكرمه
وفي يوم الاثنين الثالث عشر منه وهو السادس من يونيو اخرجنا
جميع رحالنا من زاد وسواه الى المبرز وهو موضع بقبلي البلد وعلى
مقربة منه فسيح الساحة محدق بالنخيل يجتمع فيه رحال الحاج والتجار
وتشد فيه ومنه يستقلون ويرحلون وفيه يوزن ما يحتاج الى وزنه على
الجمالين فلما كان اثر صلاة العشاء الآخرة رفعنا منه الى ماء يعرف

بالحاجر فبتنا به واصبحنا يوم الثلاثاء وبعده مقيمين به بسبب تفقد
بعض الجمالين من العرب لبيوتهم وكانت على مقربة منهم وفي ليلة
الاربعاء الخامس عشر منه ونحن بالحاجر المذكور خسف القمر خسوفاً
كلياً اول الليل وتمادى الى هده منه ثم اصبحنا يوم الاربعاء المذكور
ظاعنين وقلنا بموضع يعرف بقلاع الضياع ثم كان المبيت بموضع يعرف
بمحط المقيطة كل ذلك فى صحراء لا عمارة فيها ثم غدونا يوم الخميس
فنزلنا على ماء ينسب للعبدين ويذكر انهما ماتا عطشاً قبل ان يرداه
فسمى ذلك الموضع بهما وقبراهما به رحمهما الله ثم تزودنا منه الماء لثلاثة
ايام وفوزنا سحر يوم الجمعة السابع عشر منه وسرنا فى الصحراء نبيت
منه حيث جن علينا الليل والقوافل العيذابية والقوصية صادرة وواردة
والمفازة معمورة آمناً فلما كان يوم الاثنين الموفي عشرين منه نزلنا على
ماء بموضع يعرف بدنقاش وهي بئر معينة يرد فيها من الانعام والانام
ما لا يحصيهم الا الله عز وجل ولا يسافر في هذه الصحراء الا على
الابل لصبرها على الظماء أحسن ما يستعين عليها ذوو الترفية الشقاديف
وهي أشباه المحامل وأحسن أنواعها اليمانية لانها كالاشاكيز السفرية مجلدة
متسعة يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة ويوضع على البعير ولها أذرع
قد حفت بأركانها يكون عليها مظلة فيكون الراكب فيها مع عديله فى
كن من لفح الهاجرة ويقعد مستريحاً في وطائه ومتكأ ويتناول مع عديله
مايحتاج اليه من زاد وسواه ويطالع متى شاء المطالعة في مصحف أو
كتاب ومن شاء ممن يستجيز اللعب بالشطرنج أن يلاعب عديله تفكهاً

واجماماللنفس لاعبه وبالجملة فانها مريحة من نصب السفر وأكثر
المسافرين يركبون الابل على احمالها فيكابدون من مشقة سموم الحر
عنتاً ومشقة وفي هذا الماء وقعت بين بعض جمالى العرب اليمنيين أصحاب
طريق عيذاب وضمانها وهم من بلى من الخاذ قضاعة وبين بعض
الاغزاز بسبب التزاحم على الماء مهاوشة كادت تفضي الى الفتنة ٠ ثم
عصم الله منها والقصد الى عيذاب من قوص على طريقين احداهما
تعرف بطريق العبدين وهي هذه التي سلكناها وهي أقصد مسافة
والاخري طريق دون ٠٠٠ وهي قرية على شاطئ النيل ويجتمع
هاتين الطريقين على مقربة من ماء دنقاش المذكور ولهما مجتمع آخر
على ماء يعرف بشاغب امام ماء دنقاش بيوم فلما كان عشاء يوم الاثنين
المذكور تزودنا الماء ليوم وليلة ورفعنا الى ماء بموضع يعرف بشاغب
فوردناه ضحوة يوم الاربعاء الثاني والعشرين لصفر المذكور وهذا
الماء ثماد يحفر عليه في الارض فتسمح به قريباً غير بعيد ثم رحلنا منه
سحر يوم الخميس بعده وتزودنا الماء لثلاثة أيام الي ماء بموضع يعرف
بامتان وتركنا طريق الماء بموضع يعرف با ٠٠٠٠ يسارا الا انه زعاق
وليس بينه وبين شاغب غير مسافة يوم والطريق عليه وعر للابل فلما
كان ضحوة يوم الاحد السادس والعشرين لصفر المذكور نزلنا بأمتان
المذكور وفى هذا اليوم كان فراغنا من حفظ كتاب الله عز وجل
له الحمد وله الشكر على مايسر لنا من ذلك وهذ الماء بأمتان المذكور
وفي بئر معينة قد خصها الله بالبركة وهو أطيب مياه الطريق وأعذبها

فيلتقى فيهـا من دلاء الوارد ما لا يحصي كثرة فتروى القوافل النازل عليها على كثرتها وتروى من الابل البعيدة الا ظمأ مالو وردت نهراً من الانهار لانضبته وأنزفته ورمنا فى هذه الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة الى اليمن ثم من اليمن الى عيذاب وأكثر ماشاهدنا من ذلك احمال الفلفل فلقد خيل الينا لكثرته انه يوازى التراب قيمة ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء انك تلتقى بقارعة الطريق احمال الفلفل والقرفة وغيرها من السلع مطروحة لاحارس لها تترك بهذه السبيل اما لاعياء الابل الحاملة لها أوغير ذلك من الاعذار وتبقى بموضعها الى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس ثم كان رفعنا من أمتان المذكور ضحوة يوم الاثنين بعد الاحد المذكور ونزلنا على ماء بموضع يعرف بمجاج بمقربة من الطريق ظهر يوم الاثنين المذكور ومنـه تزودنا الماء لاربعة أيام الى ماء بموضع يعرف بالعشراء على مسافة يوم من عيذاب ومن هذه الرحلة المجاجية يسلك الوضح وهي رملة ميثاء تتصل بساحل بحرجده يمشى فيها الي عيذاب ان شاء الله وهي في أفيح من الارض مد البصر يميناً وشمالا وفي ظهر يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشـهر المذكور كان رفعنا من مجاج المذكور سالكين على الوضح

﴿ شهر ربيع الاول عرفنا الله بركته ﴾

استهل هلال ليلة الجمعة الرابع والعشرين من شـهر يونيه ونحن

بآخر الوضح على نحو ثلاث مراحل من عيذاب وفي وقت الغداة
من يوم الجمعة المذكور كان نزولنا على الماء بموضع يعرف بالعشراء
على مرحلتين من عيذاب وبهذا الموضع كثير من شجر العشر وهو شبيه
شجر الأترج لكن لا شوك له وماء هذا الموضع ليس بخالص العذوبة
وهو في بئر غير مطوية وألفينا الرمل قد انهال عليها وغطى ماءها فرام
الجمالون حفرها واستخراج ماءها فلم يقدروا على ذلك وبقيت القافلة لاماء
عندها فأسرى بنا تلك الليلة وهي ليلة السبت الثاني من الشهر المذكور
فنزلنا ضحوة على ماء الخبيب وهو بموضع بمرآى العين من عيذاب
يستقي منها القوافل وأهل البلد ويعم الجميع وهي بئر كبيرة كأنها الجب الكبير
فلما كان عشي يوم السبت دخلنا عيذاب وهي مدينة على ساحل بحر جدة
غير مصورة أكثر بيوتها الاخصاص وفيها الآن بناء مستحدث بالجص
وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها
وتقلع منها زائداً الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة وهي في صحراء
لانبات فيها ولا يؤكل فيها شيء الا مجلوب لكن أهلها بسبب الحجاج تحت
مرفق كثير ولا سيما مع الحاج لان لهم على كل حمل طعام يجلبونه ضريبة
معلومة خفيفة المؤنة بالاضافة الى الوظائف المكوسية والتي كانت قبل
اليوم التي ذكرنا رفع صلاح الدين لها ولهم أيضاً من المرافق من الحاج
اكراء الجلاب منهم وهي المراكب فيجتمع لهم في ذلك مال كثير في
حملهم الى جده وردهم وقت انفضاضهم من آداء الفريضة وما من
أهلها ذوي اليسار الا من له الجلبة والجلبات فهي تعود عليهم برزق

واسع سبحان قاسم الارزاق على اختلاف أسبابها لا اله سواه وكان نزولنا
فيها بدار تنسب لموخ أحد قوادها الحبشيين الذين نالوا بها الديار والرباع
والجلاب وفي بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها
وأوان الغوص عليه فى هذا التاريخ المقيدة في هذه الاحرف وهو شهر
يونيو العجمي والشهر الذي يتلوه ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة
سنية يذهب الغائصون عليه الى تلك الجزائر في الزواريق ويقيمون فيها
الايام فيعودون بما قسم الله لكل واحـد منهم بحسب حظه من الرزق
والمغاص منهـا قريب القعر ليس ببعيد ويستخرجونه في أصداف لها
أزواج كأنهـا نوع من الحيتان أشبه شيء بالسلحفاة فاذا شقت ظهرت
الشقتان من داخلها كأنها محارتا فضة ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة
من الجوهر قد غطي عليها لحم الصدف فيجتمع لهم من ذلك بحسب
الحظوظ والارزاق فسبحان مقدرها لا اله سواه لكنهم ببلدة لا رطب
فيها ولا يابس قد ألفوا بها عيش البهائم فسبحان الله المحبب الاوطان
الي أهلها على انهم أقرب الي الوحش منهم الى الانسان والركوب من جدة
اليها آفة للحجاج عظيمة الا الاقل منهم ممن يسلم الله عز وجل وذلك
ان الرياح تلقيهم على الاكثر فى مراسي بصحاري تبعد منهـا مما يلى
الجنوب فينزل اليهـم البجاة وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال
فيكرون منهم الجمال ويسلكون بهم غير طريق الماء فربما ذهب أكثرهم
عطشاً وحصلوا على ما يخلفه من نفقة أوسواها وربما كان من الحجاج
من يتعسف تلك المجهلة على قدميـه فيضل ويهلك عطشاً والذى يسلم

منهم يصل الى عيذاب كأنه منشر من كفن شاهدنا منهم مدة مقامنا
أقواما قد وصلوا على هذه الصفة فى مناظرهم المستحيلة وهيئاتهم المتغيرة
آية للمتوسمين وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسى ومنهم من تساعده
الريح الى أن يحط بمرسى عيذاب وهو الاقل والجلاب التي يصرفونها
في هذا البحر الفرعونى ملفقه الانشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة انما
هى مخيطة بامراس من القنبارى وهو قشر جوز النارجيل يدرسون
الى ان يتخيط ويفتلون منه امراسا يخيطون بها المراكب ويخللونها
بدسر من عيدان النخل فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة
سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها وهذا
القرش حوت عظيم فى البحر يبتلع الغرقى فيه ومقصدهم في دهان
الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر
ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسمارى وعود هذه الجلاب مجلوب
من الهند واليمن وكذلك القنبارى المذكور ومن أعجب أمر هذه الجلاب
ان شرعها منسوجة من خوص شجر المقل فمجموعه متناسب فى اختلال
البنية ووهنها فسبحان مسخرها على تلك الحالة والمسلم فيها لا اله سواه
ولاهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيت وذلك انهم يشحنون بهم
الجلاب وهي المراكب حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها اقفاص
الدجاج المملوءة يحمل أهلها علي ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى
يستوفي صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحده ولا يبالى بما يصنع
البحر بها بعد ذلك ويقولون علينا بالالواح وعلي الحجاج بالارواح

هذا مثل متعارف بينهم فأحق بلاد الله بحسبة يكون السيف دونها هذه البلدة والاولى بمن يمكنه ذلك ان لا يراها وان يكون طريقه على الشام الي العراق ويصل مع أمير الحاج البغدادي وان لم يمكنه ذلك أولا فيمكنه آخرا عند انفضاض الحاج يتوجه مع أمير الحاج المذكور الي بغداد ومنها الى عكة فان شاء دخل منها الى الاسكندريه وان شاء الله الى صقلية أو سواهما ويمكن ان يجد مركبا من الروم يقع الى سبته أو سواها من بلاد المسلمين وان طال طريقه بهذا التحليق فيهون لما يلقى بعيذاب ونحوها وأهلها الساكنين بها من قبيل السودان يعرفون بالبجاة ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم فى الجبال المتصلة بها وربما وصل في بعض الاحيان واجتمع بالوالي الذي فيها من الغز اظهاراً للطاعة ومستنابه مع الوالى فى البلد والفوائد كلها له الا البعض منها وهذه الفرقة من السودان المذكورين من فرقة أضل من الانعام سبيلا وأقل عقولا لادين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها اظهاراً للاسلام ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم مالا يرضي ولايحل ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة الا خرقا يسترون بها عوراتهم وأكثرهم لا يسترون وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم وفى يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الاول المذكور وهو الثامن عشر يوليه ركبنا الجلبة للعبور الى جدة فأقمنا يومنا ذلك بالمرسى لركود الريح ومغيب النواتية فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء أقلعنا على بركة الله عز وجل وحسن عونه المأمول فكانت مدة المقام بعيذاب حاشي يوم

الاثنين المذكور ثلاثة وعشرين يوم محتسبة عند الله عز وجل لشظف العيش وسوء الحال واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة وحسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء والعطش أشهى الى النفس منه فأقمنا بين هواء يذيب الاجسام وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام فما ظلم من غنى عن هذه البلدة

يقوله *ماء زعاف وجو كله لهب*

فالحلول بها من أعظم المكاره التي حف بها السبيل الى البيت العتيق زاده الله تشريفاً وتكريما وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدون ولاسيما في تلك البلدة الملعونة ومما لهج الناس بذكر قبائحها حتى يزعمون ان سليمان بن داود على نبينا وعليه السلام كان اتخذ سجنا للعفارتة أراح الله الحجاج منها بعمارة السبيل القاصدة الى بيته الحرام وهي السبيل التي من مصر على عقبة أيلة الى المدينة المقدسة وهي مسافة قريبة يكون البحر منها يمينا وجبل الطور المعظم يساراً لكن للافرنج بمقربة منها حصن مندوب يمنع الناس من سلوكه والله ينصر دينه ويعز كلمته بمنه وكرمه فتمارى سيدنا في البحر يوم الثلاثاء السادس والعشرين لربيع الاول المذكور ويوم الاربعاء بعده بريح فاترة المهب فلما كان العشاء الآخرة من ليلة الخميس ونحن قد استبشرنا برؤية الطير المحلقة من بر الحجاز لمع برق من جهة البر المذكور وهي جهة الشرق ثم نشأ نوء أظلم له الافق الى أن كسا الآفاق كلها وهبت ريح شديدة صرفت المركب عن طريقه راجعاً وراءه وتمادي عصوف

الرياح واشتدت حلكة الظلمة وعمت الآفاق فلم ندري الجهة المقصودة منها الى أن ظهر بعض النجوم فاستدل بها بعض الاستدلال وحط القلع الى أسفل الدقل وهو الصارى وأقمنا ليلتنا تلك في هول يؤذن باليأس وأوانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة الى أن أتى الله بالفرج مقترنا مع الصباح ... فسكن الريح وأقشع الغيم وأصحت السماء ولاح لنابر الحجاز على بعد لانبصر منه الا بعض جباله وهي شرقا من جدة زعم ربان المركب وهو الرايس ان بين تلك الجبال التى لاحت لنا وبر جدة يومين والله يسهل لنا كل صعب وييسر لنا كل عسير لعزته وكرمه فجرينا يومنا ذلك وهو يوم الخميس المذكور بريح رخاء طيبة ثم ارسينا عشية فى جزيرة صغيرة في البحر على مقربة من البر المذكور بعد ان لقينا شعاباً كثيرة يكثر فيها الماء ويصعد علينا فتخللنا أثناءها على حذر وتحفظ وكان الربان بصيرا بصنعته حاذقا فيها فخلصنا الله منها حتى أرسينا بالجزيرة المذكورة ونزلنا اليها وبتنا بها ليلة الجمعة التاسع والعشرين لربيع الاول المذكور وأصبح الهواء راكداً والريح غير متنفسة الامن الجهة التى لا توافقنا فأقمنا بها يوم الجمعة المذكورة فلما كان يوم السبت الموفي ثلاثين تنفست الريح بعض تنفس فأقلعنا بذلك النفس نسير سيراً رويداً وسكن البحر حتي خيل لناظره انه صحن زجاج أزرق فأقمنا على تلك الحال نزجو لطيف صنع الله عز وجل وهذه الجزيرة تعرف بجزيرة عائقة السفن فعصمنا الله عزوجل من فأل اسمها المذموم ولله الحمد والشكر على ذلك

﴿شهر ربيع الآخر عرفنا الله بركته﴾

استهل هلاله ليلة السبت بالجزيرة المذكورة ولم يظهر تلك الليلة للابصار بسبب النوء لكن ظهر في الليلة الثانية كبيراً مرتفعاً فتحققنا اهلال ليلة السبت المذكور وهو الثالث والعشرين من شهر يوليه وفي عشي يوم الاحد ثانيه أرسينا بمرسي يعرف بأبحر وهو على بعض يوم من جدة وهو من أعجب المراسي وضعاً وذلك أن خليجاً الى البحر يدخل الى البر والبر مطيف به من كلتا حافتيه فترسى الجبال منه في قرارة مكنة هادية فلما كان سحر يوم الاثنين بعده أقلعنا منه على بركة الله تعالى بريح فاتره والله الميسر لارب سواه فلما جن الليل أرسينا على مقربة من جدة وهي بمرآى العين منا وحالت الريح صبيحة يوم الثلاثاء بعده بيلنا وبين دخول مرساها ودخول هذه المرسى صعب المرام بسبب كثرة الشعاب والتفافها وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية في التصرف بالجلبة أثناءها أمراً ضخماً يدخلونها على مضائق ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان السلس القياد ويأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه وفي ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر المذكور وهو السادس والعشرين من شهر يوليه كان نزولنا بجدة حامدين الله عز وجل وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ماعاينا في تلك الثمانية ايام طول مقامنا على البحر وكانت أهوال شتي عصمنا الله منها بفضله وكرمه فنها ماكان يطرأ من البحر واختلاف رياحه وكثرة شعابه

المعترضة فيه ومنها ما كان يطرأ من ضعف عـدة المركب واختلالهـا
واقتصامها المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه او جذب مرسى
من مراسيه وربما سنحت الجلبة باسفلها على شعب من تلك الشعاب
أثناء تخللها فلسمع لهـا هدا يؤذن باليأس فكنا فيها نموت مراراً ونحي
مراراً والحمد لله على ما من به من العصمة وتكفل به من الوقاية والكفاية
حمداً يبلغ رضاه ويستهدى المزيد من نعماه بعزته وقدرته لا اله سواه
وكان نزولنا فيها بدار القائد علي وهو صاحب جدة من قبل امير مكة
المذكور في صرح من تلك الصروح الخصوصية التى يبنونها في أعالى
ديارهم ويخرجون منها الى سطوح يبيتون فيها وعند احتلالنا جـدة
المذكورة عاهدنا الله عزوجل سروراً بما أنعم الله به من السلامة الا
يكون انصرافنا على هذا البحر الملعون الا ان طرأت ضرورة تحول
بيلنا وبين سواه من الطرق والله ولى الخيرة في جميع مايقضيه ويسنيه
بعزته (وجدة) هـذه قرية على ساحل البحر المذكور أكثر بيوتها
اخصاص وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين وفي أعلاها بيوت من
الاخصاص كالغرف ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر وبهذه
القرية آثار قديمة تدل على انها كانت مدينة قديمة وأثر سورها المحدق
بها باق الي اليوم وبها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكر ان كان منزل
حواء أم البشر صلى الله عليها وسلم عند توجهها الى مكة فبنى ذلك المبني
عليه تشهيراً لبركته وفضله والله أعلم بذلك وفيها مسجد مبارك منسوب
الى عمر ابن الخطاب رضي الله عنـه ومسـجد آخر له ساريتان من

خشب الابنوس ينسب أيضاً اليه رضى الله عنه ومنهم من ينسبه الي
هارون الرشيد رضى الله عنه وأكثر سكان هذه البلدة مع ما فيها من
الصحراء والجبال اشراف وعلويون وحسنيون وحسينيون وجعفريون
رضى الله عن سلفهم الكريم وهم من شظف العيش بحال يتصدع له
الجماد اشفاقاً ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن من اكراء
جمال ان كان له أو مبيع لبن أو ماء الى غير ذلك من تمر يلتقطونه أو
حطب يحتطبونه وربما تناولوا ذلك نسائهم الشريفات بأنفسهن فسبحانه
المقدر لما يشاء ولا شك انهم أهل بيت ارتضي الله لهم الآخرة ولم
يرتضى لهم الدنيا جعلنا الله ممـا يدين بحب أهل البيت الذين أذهب
عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وبخارج هذه البلدة مصانع قديمة تدل
على قدم اختطاطها ويذكر انها كانت من مدن الفرس وبها جباب
منقورة في الحجر الصلد تتصل بعضها ببعض تفوت الاحصاء كثيرة هي داخل
البلد وخارجة حتى انهم يزعمون ان التى خارج البلد ثلثمائة وستون جباً
ومثل ذلك داخل البلد وعاينا نحن جملة كثيرة لا يأخذها الاحصاء
وعجائب الموضوعات كثيرة فسبحان المحيط علماً بها واكثر هذه
الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم قد تفرقوا على مذاهب
شتي وهم يعتقدون في الحاج مالا يعتقد في أهل الذمة قد صيروهم من
أعظم غلاتهم التي يستغلونها ينهبونهم انتهاباً ويسببون لاستجلاب ما
بأيديهم استجلاباً فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤنة الى ان ييسر
الله رجوعه الى وطنه ولولا ما تلافى الله به المسلمين فى هذه الجهات

بصلاح الدين لكانوا من الظلم في أمر لا ينادى وليدهم ولا يلين شديدهم فانه رفع ضرائب المكوس عن الحاج وجعل عوض ذلك مالا وطعاماً يأمر بتوصيلها الي مكثر أمير مكة فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم عاد هذا الامير الى ترويع الحاج واظهار تثقيفهم بسبب المكوس واتفق لنا من ذلك ان وصلنا جدة فأمسكنا بها خلال ما خوطب مكثر الامير المذكور فورد امره بأن يضمن الحاج بعضهم بعضا ويدخلوا الى حرم الله فان ورد المال والطعام اللذان برسمه من قبل صلاح الدين والا فهو لا يترك ماله قبل الحاج هذا لفظه كان حرم الله ميراث بيده محللا له اكتراؤه من الحاج فسبحان مغير السنن ومبدلها والذى جعل له صلاح الدين بدلا الامن مكث الحاج الفا دينار اثنان والفا اردب من القمح وهو نحو الثمانمائة قفيز بالكيل الاشبيلى عندنا حاشي اقطاعات اقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن بهذا الرسم المذكور ولولا مغيب هذا السلطان العادل صلاح الدين بجهة الشام في حروب له هناك مع الافرنج لما صدر عن هذا الامير المذكور ماصدر في جهة الحاج فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة فى سبيل الله هذه البلاد الحجازية لما هم عليه من فك عرية الاسلام واستحلال أموال الحاج ودمائهم فمن يعتقد من فقهاء اهل الاندلس اسقاط هذه الفريضة عنهم فاعتقاده صحيح لهذا السبب وبما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه الله عز وجل فراكب هذا السبيل راكب خطر ومعتسف وغرر والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال فكيف وبين الله الآن

بأيدى أقوام اتخذوه معيشة حرام وجعلوه سبباً الى استلاب الاموال واستحقاقها من غير حل ومصادرة الحجاج عليها ودرب الذلة والمسكنة الدنية عليهم تلافاها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين بسيوف الموحدين أنصار الدين وحزب الله اولي الحق والصدق والذائبين عن حرم الله عز وجل والغائرين على محارمه والجادين في اعلاء كلمته واظهار دعوته ونصر ملته انه على مايشاء قدير وهو نعم المولى ونعم النصير وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد انه لا اسلام الا ببلاد المغرب لانهم على جادة واضحة لا بنيان لها وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة وشيع الا من عصم الله عز وجل من اهلها كما انه لاعدل ولاحق ولا دين على وجهه الا عند الموحدين أعزهم الله فهم آخر أئمة العدل فى الزمان وكل من سواهم من الملوك في هذا الاوان فعلى غير الطريقة يعشرون تجار المسلمين كانهم أهل ذمة لديهم ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها اللهم الا هذا السلطان العادل صلاح الدين الذى قد ذكرنا سيرته ومناقبه لو كان له اعوان على الحق مما أريد الله عز وجل بتلافا المسلمين بجميل نظره ولطيف صنعه ومن عجيب ماشاهدناه فى أمر الدعوة المؤمنية الموحدية وانتشار كلمتها بهذه البلاد واستشعار اهلها لملكتها ان أكثر أهلها بل الكل يرمزون بذلك رمزاً خفياً حتي يؤدي ذلك بهم الى التصريح وينسبون ذلك لآثار حدثانية وقعت بأيدي بعضهم أنذرت بأشياء من الكوائن

فعاينوها صحيحة فمن بعض الآثار المؤذنة بذلك عندهم ان بين جامع
ابن طولون والقاهرة برجين مقتربين عتيقى البناء على أحدهما تمثال ناظر
الى جهة المغرب وكان على الآخر تمثال ناظر الى المشرق فكانوا يرون ان
أحدهما اذا سقط أنذر بغلبة أهل الجهة التي كان ناظراً اليها على ديار مصر
وسواها وكان من الاتفاق العجيب أن وقع التمثال الناظر الى المشرق فتلا
وقوعه استيلاء الغز على الدولة العبيدية وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد وهم
الآن متوقعون سقوط التمثال الغربي وحدثان ما يؤملون من ملكه أهله
لهم ان شاء الله ولم يبق الا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد
فهم يستطلعون بها سبحاً جلياً ويقطعون بصحتها ويترقبونها ارتقاب الساعة
التي لا يمترون في انجاز وعدها شاهدنا من ذلك بالاسكندرية ومصر
وسواها مشافهة وسماعاً أمراً غريباً يدل على ان ذلك الامر العزيز أمر
الله الحق ودعوته الصدق ونمى الينا ان بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة
وزعمائها قد حبر خطباً أعدها للقيام بها بين يدي سيدنا أمير المؤمنين
أعلى الله أمره وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة وينتظره انتظار
الفرج بالصبر الذي هو عبادة والله عز وجل يبسطها من كلمة ويعليها من
دعوة انه على ما يشاء قدير وفي عشي يوم الثلاثاء الحادى عشر من الشهر
المذكور وهو الثاني من شهر اغشت كان انفصالنا من جدة
بعد ان ضمن الحجاج بعضهم بعضاً وثبتت اسماؤهم في زمام عند قائد
جدة على بن موفق حسبما نفذ اليه ذلك من سلطانه صاحب مكة مكثر
ابن عيسى المذكور وهذا الرجل مكثر من ذرية الحسن بن على رضوان

الله عليهما لاكنه مما يعمل غير صالح فليس من أهل سلفه الكريم رضاهم واسرينا تلك الليلة الى ان وصلنا القرين مع طلوع الشمس وهذا الموضع هو منزل الحاج ومحط رحالهم ومنه يحرمون وبه يريحون اليوم الذى يصبحونه فاذا كان في عشيه رفعوا واسروا ليلتهم وصبّحوا الحرم الشريف زاده الله تشريفاً وتعظيما والصادرون من الحج ينزلون به أيضاً ويسرون منه الى جدة وبهذا الموضع المذكور بئر معينة عزبة والحاج بسببها لا يحتاجون الى تزود الماء غير ليلة اسرائهم اليه فاقمنا بياض يوم الاربعاء المذكور مريحين بالقرين فلما حان العشى رحنا منه محرمين بعمرة فاسرينا ليلتنا تلك فكان وصولنا مع الفجر الى قريب الحرم فنزلنا مرتقبين لانتشار الضوء ودخلنا مكة حرسها الله في الساعة الاولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور وهو الرابع من شهر اغشت على باب العمرة وكان اسراؤنا تلك الليلة المذكورة والبدر قد التى على البسيطة شعاعه والليل قد كشف عنا قناعه والاصوات تصك الآذان بالتلبية من كل مكان والالسنة تضج بالدعاء وتبتهل الى الله بالرغباء فتارة تشتد التلبية وآونة تتضرع بالادعية فيالها ليلة كانت في الحسن بيضة العقد فهى عروس ليالي العمر وبكر بنيات الدهر الي ان وصلنا في الساعة المذكورة من اليوم المذكور حرم الله العظيم ومبوأ الخليل ابراهيم فالفينا الكعبة البيت الحرام عروساً مجلوة مزفوفة الى جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمان فطفنا طواف القدوم ثم صلينا بالمقام الكريم وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم وهو

بين الحجر الاسود والباب وهو موضع استجابة الدعوة ودخلنا قبة زمزم وشربنا من مائها وهو لما شرب له كما قال صلى الله عليه وسلم ثم سعينا بين الصفا والمروة ثم حلقنا واحللنا فالحمد لله الذى كرمنا بالوفادة عليه وجعلنا ممن انتهت الدعوة الابراهيمية اليه وهو حسبنا ونعم الوكيل وكان نزولنا فيها بدار تعرف بالنسبة الى الحلال قريباً من الحرم ومن باب السدة أحد ابوابه في حجرة كثيرة المرافق المسكنية مشرفة على الحرم وعلى الكعبة المقدسة

﴿شهر جمادى الاولى عرفنا الله بركته﴾

استهل هلاله ليلة الاثنين الثانى والعشرين لاغشت وقد كمل لنا بمكة شرفها الله تعالى ثمانية عشر يوما فهلال هذا الشهر اسعد هلال اجتلته ابصارنا فيما سلف من اعمارنا طلع علينا وقد تبوأنا مقعد الجدار الكريم وحرم الله العظيم والقبة التى فيها مقام ابراهيم مبعث الرسول ومهبط الروح الامين جبريل بالوحى والتنزيل فاوزعنا الله شكر هذه المنة وعرفنا قدر ماخصنا به من نعمته وختم لنا بالقبول واجرانا على كريم عوائده من الصنع الجميل ولطيف التيسير والتسهيل بعزته وقدرته لا اله سواه

﴿ذكر المسجد الحرام والبيت العتيق كرمه الله وشرفه﴾

البيت المكرم له أربعة اركان وهو قريب من التربيع واخبرني زعيم الشيبيين الذين اليهم سدانة البيت وهو محمد بن اسماعيل بن عبدالرحمن

ابن .... من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبة بن طلحة بن عبد الدار
صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب حجابة البيت ان
ارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يقابل باب الصفا وهو من الحجر
الاسود الى (الركن) اليماني تسع وعشرون ذراعا وسائر الجوانب
ثمان وعشرون بسبب انصباب الصطح الى الميزاب واول اركانه الركن
الذى فيه الحجر الاسود ومنه ابتداء الطواف ويتقهقر الطائف عنه
ليمر جميع بدنه به والبيت المكرم عن يساره واول ما يلقى بعده الركن
العراقى وهو ناظر الى جهة الشمال ثم الركن الشامى وهو ناظر الى
جهة الغرب ثم الركن اليماني وهو ناظر الى جهة الجنوب ثم يعود الى
الركن الاسود وهو ناظر الى جهة الشرق وعند ذلك يتم شوطاً واحداً
وباب البيت الكريم فى الصفح الذى بين الركن العراقى وركن الحجر
الاسود وهو قريب من الحجر بعشرة اشبار محققة وذلك الموضع
الذى بينهما من صفح البيت يسمى الملتزم وهو موضع استجابة الدعاء
والباب الكريم مرتفع عن الارض باحد عشر شبراً ونصف وهو من
فضة مذهبة بديع الصنعة رائق الصفة يستوقف الابصار حسناً وخشوعا
للمهابة التى كساها الله بيته وعضادتاه كذلك والعتبة العليا كذلك ايضاً
وعلى رأسها لوح ذهب خالص ابريز في سعته مقدار شبرين وللباب مقازنا
فضة كبيرتان يتعلق عليهما قفل الباب وهو ناظر للشرق وسعته
ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبراً وغلظ الحائط الذى ينطوي عليه
الباب خمسة أشبار وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزع

وحيطانه كلها رخام مجزع قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج معترضة الطول وبين كل عمود وعمود أربع خطا وهي على طول البيت متوسطة فيه فأحد الاعمدة وهو أولها يقابل نصف الصفح الذى يحف به الركنان اليمانيان وبينه وبين الصفح مقدار ثلاث خطا والعمود الثالث وهو آخرها يقابل الصفح الذى يقابله الركنان العراقى والشامى ودائر البيت كله من نصفه الاعلى مطلى بالفضة المذهبة الثخينة يخيل للناظر اليها انها صفيحة ذهب لغلظها وهي تحف بالجوانب الاربعة وتمسك مقدار نصف الجدار الاعلى وسقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون وظاهر الكعبة كلها من الاربعة جوانب مكسو بستور من الحرير الاخضر وسداها قطن وفي أعلاها رسم بالحرير الاخضر فيها مكتوب ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة الآية واسم الامام الناصر لدين الله في سعته قدر ثلاثة أذرع يطيف بها كلها قد شكل في هذه السطور من الصنعة الغريبة التى يبصره أشكال محاريب رائقة ورسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى وبالدعاء للناصر العباسي المذكور الآمر باقامتها وكل ذلك لا يخالف لونها وعدد السطور من الجوانب الاربعة أربعة وثلاثون سطراً وفي الصفحين الكبيرين منها ثمانية عشر وفى الصفحين الصغيرين ستة عشر وله خمسة مضاو وعليها زجاج عراقى بديع النقش أحدها في وسط السقف ومع كل ركن مضوى والواحد منها لا يظهر لانه تحت القبو المذكور بعد وبين الاعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاثة عشر واحداها من ذهب واول ما يلقى الداخل

على الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الاسود وفيه صندوقان
فيهما مصاحف وقد علاهما في الركن بويبان من فضة كأنهما طاقان
ملصقان بزاوية الركن وبينهما وبين الارض أزيد من قامة وفي الركن
الذي يليه وهو اليماني كذلك لكنهما اقتلعا وبقي العود الذى كانا
ملصقين عليه وفي الركن الشامي كذلك وهما باقيان وفي جهة الركن
العراقي كذلك وعن يمينه الركن العراقي وفيه باب يسمى بباب الرحمة
يصعد منه الى سطح البيت المكرم وقد قام له قبو فهو متصل باعلى
سطح البيت داخله الادراج وفي اوله البيت المحتوي على المقام الكريم
فتجد للبيت العتيق بسبب هذا القبو خمسة أركان وفي سعه صفحيه
قامتان وهو محتو على الركن العراقي بنصفين من كل سطح وثلثا قناة
هذا القبو مكسوان بسرق الحرير الملون كانه قد لف فيه ثم وضع وهذا
المقام الكريم الذى داخل هذا القبو هو مقام ابراهيم صلى الله على نبينا
وعليه وسلم وهو حجر مغشى بالفضة وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار وسعته
مقدار شبرين وأعلاه أوسع من أسفله فكأنه وله التنزيه والمثل الاعلى
كانون فخار كبير أوسطه يضيق عن أسفله وعن أعلاه عاينّاه وتبركنا
بلمسه وتقبيله وصب لنا في أثر القدمين المباركتين ماء زمزم فشربناه
نفعنا الله به وأثرهما بين وأثر الاصابع المكرمة المباركة فسبحان من ألان
لواطئه حتى تأثر فيه ولا تأثير القدم في الرمل الوثير سبحان جاعله من
الآيات البينات ولمعاينته ومعاينة البيت الكريم هول يشعر النفوس من
الذهول ويطيش الافئدة والعقول فلا تبصر الا لحظات خاشعة وعبرات

هامعة ومدامع باكية وألسنة الى الله عز وجل ضارعة داعية وبين
الباب الكريم والركن العراقى حوض طوله أثناعشر شبراً وعرضه
خمسة أشبار ونصف وارتفاعه نحو شبر متصل من قبالة عضارة الباب
التي تلى الركن المذكور آخذاً الى جهته وهو علامة موضع المقام مدة
ابراهيم عليه السلام الى أن صرفه النبي صلى الله عليه وسلم الى الموضع
الذى هو الآن مصلى وبقى الحوض المذكور مصباً لماء البيت اذا غسل
وهو موضع مبارك يقال انه روضة من رياض الجنة والناس يزدحمون
للصلاة فيه وأسفله مفروش برملة بيضاء وثيرة وموضع المقام الكريم
هو الذى يصلى خلفه يقابل ما بين الباب الكريم والركن العراقى
وهو الى الباب أميل بكثير وعليه قبة خشب في مقدار القامة أو أزيد
مركبة محددة بديعة النقش سعتها من ركنها الواحد الى الثانى أربعة
أشبار وقد نصبت على الموضع الذى كان فيه المقام وحوله تكفيف من
حجارة نصبت على حرف كالحوض المستطيل في ارتفاعه نحو شبر وطوله
خمس خطا وعرضه ثلاث خطا وأُدخل المقام الى الموضع الذى وصفناه
في البيت الكريم احتياطاً عليه بينه وبين صفح البيت الذى يقابله سبع عشر
خطوة والخطوة كلها ثلاثة أشبار ولموضع المقام أيضاً قبة مصنوعة من
حديد موضوعة الى جانب قبة زمزم فاذا كان في أشهر الحج وكثر الناس
ووصل العراقيون والخراسانيون رفعت قبة الخشب ووضعت قبة
الحديد لتكون أحمل للازدحام ومن الركن الذى فيه الحجر الاسود
الى الركن العراقى أربعة وخمسون شبراً مخنقة ومن الحجر الاسود

الى الارض ستة أشبار فالطويل يتطاطى اليه والقصير يتطاول اليه
ومن الركن العراقى الي الركن الشامي ثمانية وار بعون شبراً مخففة وذلك
داخل الحجر وأما من خارج فنه اليه أربعون خطوة وهو مائة وعشرون
شبراً مخففة ومن خارجه يكون الطواف ومن الركن الشامي الى الركن
اليمانى ما من الركن الاسود الى العراقى لانه الصفح الذي يقابله ومن
اليمانى الى الاسود مامن العراقى الى الشامي داخل الحجر لان الصفح
الذى يقابله وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كانها الرخام
حسناً منها سود وسمر وبيض قد الصق بعضها الى بعض واتسعت عن
البيت بمقدار تسع خطا الا في الجهة التى تقابل المقام فانها امتدت اليها
حتى أحاطت به وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض
وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة وبين الركن العراقى وبين
أول جدار الحجر مدخل الى الحجر سعته أربع خطا وهي ست أذرع
محققة كلناها باليد وهذا الموضع الذى لم يحجر عليه هو الذى تركت
قريش من البيت وهو ست أذرع حسبما وردت به الآثار الصحاح
ويقابلها عند الركن الشامى مدخل آخر على مثال تلك السعة
وبين جدار البيت الذي تحت الميزاب والذي يقابله من جدار الحجر على
خط استواء يشق وسط الصحن المذكور أربعون شبراً وسعته من
المدخل الى المدخل ست عشرة خطوة وهي ثمانية وأربعون شبراً
وهو يعنى دور الجدار رخام كله مجزع بديع الالصاق ... قضبان صفر
مذهبة وضع منها في صفحه أشكال شطرنجية متداخلة بعضها على بعض

وصفات محاريب فاذا ضربت الشمس فيها لاح لها بصيص ولألاء يخيل للناظر اليها انها ذهب يرتمي بالابصار شعاعه وفي ارتفاع جدار هذا الحجر الرخام خمسة أشبار ونصف وسعته أربعة أشبار ونصف وداخل الحجر بلاط واسع ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة وهو مفروش بالرخام المجزع المقطع في دور الكعب الى دور الدينار الى ما فوق ذلك ثم الصق بانتظام بديع وتأليف معجز الصنعة غريب الاتقان رائق الترصيع والتجزيع رائع التركيب والرصف يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والاشكال الشطرنجية وسواها على اختلاف انواعها وصفاتها ما يقيد بصره حسناً فكأنه يجلبه في ازهار مفروشة مختلفات الالوان الى محاريب قد انعطفت عليها الرخام انعطاف القسيّ وداخلها هذه الاشكال الموصوفة والصنائع المذكورة وبازائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب أحدث الصانع فيهما من التوريق الرقيق والتشجير والتقضيب ما لا يحدثه الصنع باليدين في الكاغد قطعاً بالجلمين فرآهما عجيب أمر بصنعته على هذه الصفة امام المشرق ابو العباس احمد الناصر بن المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف العباسي رضى الله عنه ويقابل الميزاب في وسط الحجر وفي نصف جداره الرخامي رخامة قد نقشت أبدع نقش وحفت بها طرة منقوشة نقشاً مكحلا عجيباً فيه مكتوب مما أمر بعمله عبد الله وخليفته أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين وذلك فى سنة ست وسبعين وخمسمائة والميزاب في أعلا الصفح الذى على

الحجر المذكور وهو من صفر مذهب قد خرج الى الحجر بمقدار أربعة اذرع وسعته مقدار شبر وهذا الموضع تحت ميزاب هو أيضاً مظنة استجابة الدعوة بفضل الله تعالى وكذلك الركن اليماني ويسمى المستجار مايليه وهذا الصفح المتصل به من جهة الركن الشامي وتحت الميزاب في صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم قبر اسمعيل صلى الله عليه وسلم وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلا شكل محراب تتصل بها رخامة خضراء مستديرة وكلتاهما غريبة المنظر فيهما أنكت تنفتح من لونها الى الصفرة قليلا كأنها تجزيع وهي اشبه الاشياء بالنكت التي تبقى في البيدق من حل الذهب فيه والى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر رضي الله عنهما وعلامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر ونصف يتبرك الناس بالصلاة في هذين الموضعين من الحجر وحق لهم ذلك لانهما من البيت العتيق وقد انطبقا على جسدين مقدسين مكرمين نورهما الله ونفع ببركتهما كل من صلى عليهما وبين القبرين المقدسين سبعة أشبار وقبة بير زمزم تقابل الركن الاسود ومنها اليه أربع وعشرون خطوة والمقام المذكور الذى يصلى خلفه عن يمين القبة ومن ركنها اليه عشر خطوات وداخلها مفروش بالرخام الابيض الناصع البيض وتنور البئر المباركة في وسطها مائل عن الوسط الى جهة الجدار الذى يقابل البيت المكرم وعمقها احدي عشر قامة حسبما ذرعناه وعمق الماء سبع قامات على مايذكر وباب القبة ناظر الى الشرق وباب قبة العباس وقبة اليهودية ناظران الي الشمال والركن من الصفح

الناظر الى البيت العتيق من القبة المنسوبة الى اليهودية يتصل بالركن
الايسر من الصفح الاخير الناظر الى الشرق من القبة العباسيه فبينهما
هذا القدر من الانحراف وتلى قبة بئر زمزم من ورائها قبة الشراب
وهي المنسوبة للعباس رضي الله عنه وتلى هذه القبة العباسية على انحراف
عنها قبة تنسب لليهودية وهاتان القبتان مخزنان لاوقاف البيت الكريم
من مصاحف وكتب وأنوار شمع وغير ذلك والقبة العباسية لم تخل
من نسبتها الشرابية لانها كانت سقاية الحاج وهي حتى الآن يبرد فيها
ماء زمزم ويخرج مع الليل ليسقى الحاج في قلال يسمونها الدوارق كل
دورق منها ذو مقبض واحد وتنور بئر زمزم من رخام قد الصق
بعضه ببعض الصاقا لا تحيله الايام وأفرغ في أثنائه الرصاص وكذلك
داخل التنور وحفت به من أعمدة الرصاص الملصقة اليه ابلاغا في
قوة لزه ورصه أثنان وثلاثون عموداً قد خرجت لها رؤوس
قابضة على حافة البئر دائرة بالتنور كله ودوره أربعون شبراً وارتفاعه
أربعة أشبار ونصف وغلظه شبر ونصف وقد استدارت بداخل القبة
سقاية سعتها شبر وعمقها نحو شبرين وارتفاعها عن الارض خمسة أشبار
تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة دائرة يرتفع الناس اليها ويتوضؤن
عليها والحجر الاسود المبارك ملصق فى الركن الناظر الى جهة المشرق
ولا يدرى قدر ما دخل فى الركن وقيل انه داخل في الجدار بمقدار
ذراعين وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد وفيه أربع قطع ملصقة
ويقال ان القرمطى لعنه الله كان الذى كسره وقد شدت جوانبه

بصفيحة فضة يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الحجر ورونقه الصقيل فيبصر الرائي من ذلك منظر عجيباً هو قيد الابصار للحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتنعم بها الفم حتى يود اللاثم ان لا يقلع فه عنه وذلك خاصة من خواص العناية الآلهية وكفى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انه يمين الله في أرضه نفعنا الله باستلامه ومصافحته واوفد عليه كل شيّق اليه بمنه وفي القطعة الصحيحة من الحجر مما يلي جانبه الذي يلي يمين المستلم له أذا وقف مستقبله نقطة بيضاء صغيرة مشرقة تلوح كأنها خال فى تلك الصفحة المباركة وفى هذه الشامة البيضاء أثر ان النظر اليها يجلو البصر فيجب على المقبل ان يقصد لتقبيله موضع الشامة المذكورة ما استطاع والمسجد الحرام يطيف به ثلاثة بلاطات على ثلاث سوار من الرخام منتظمة كأنها بلاط واحد ذرعها في الطول اربعمائة ذراع وفى العرض ثلثمائة ذراع فيكون تكسيره مخففاً ثمانية واربعين مرجعاً وما بين البلاطات فضاء كبير وكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صغيراً وقبة زمزم خارجة عنه وفي مقابلة الركن الشامى رأس سارية ثابتة في الارض منها كان حد الحرم أولا وبين رأس السارية وبين الركن الشامى المذكور اثنتان وعشرون خطوة والكعبة فى وسطه على استواء من الجوانب الاربعة مابين الشرق والجنوب والشمال والغرب وعدد سواريه الرخامية التى عددتها بنفسي اربعمائة سارية واحدى وسبعون سارية حاشى الجصية التى منها فى دار الندوة وهي التى زيدت في الحرم وهي داخلة في البلاط الآخذ

من الغرب الى الشمال ويقابلها المقام مع الركن العراقى وفضاؤها متسع يدخل من البلاط اليه ويتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب تحت قسي حنايا يجلس فيها النساخون والمقرؤن وبعض أهل صنعة الخياطة والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم وفي جدار البلاط الذى يقابله أيضاً تحت حنايا على تلك الصفة وهو البلاط الآخذ من الجنوب الى الشرق وسائر البلاطات تحت جداراتها مصاطب دون حنايا عليها والبنيان فيها الآن على أكمل مايكون وعند باب ابراهيم مدخل آخر من البلاط الآخذ من الغرب الى الجنوب فيه أيضاً أسوار جصية ووجدت بخط أبي جعفر بن على الفنكى القرطبى الفقيه المحدث ان عدد سواريه اربعمائة وثمانون لانى لم أحسب التي خارج باب الصفا وللمهدى محمد ابن أبي جعفر المنصور العباسى في توسعة المسجد الحرام والتأنق فى بنائه آثار كريمه ووجدت في الجهة التى من الغرب الى الشمال مكتوباً في اعلا جدار البلاط أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره في سنة سبع وستين ومائة وللحرم سبع صوامع أربع فى الاربعة جوانب وواحدة في دار الندوة وأخرى على باب الصفا وهي أصغرها وهى علم لباب الصفا وليس يصعد اليها لضيقها وعلى باب ابراهيم صومعة قد ذكرت عند باب ابراهيم في مابعد وباب الصفا يقابل الركن الاسود بالبلاط الذى من الجنوب الى الشرق وفى وسط البلاط المقابل للباب سارتان مقابلتان الركن المذكور فيها منقوش أمر عبد الله محمد

المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله باقامة هاتين الاسطوانتين علما لطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصفا ليتأسى به حاج بيت الله وعماره على يد ابن يقطين بن موسى وابراهيم بن صالح في سنة سبع وستين ومائة وفى باب الكعبة المقدسة نقش بالذهب رائق الخط طويل الحروف غليظها يرتمي الابصار برونقه وحسنه مكتوب فيه مما أمر بعمله عبد الله وخليفته الامام أبو عبد الله محمد المقتفي بامر الله أمير المؤمنين رضى الله عنه وعن أبائه الائمة الطاهر وخلد ميراث النبوة لديه وجعلها كلمة باقية في عقبه الى يوم الدين فى سنة خمسين وخمسمائة فى صحن البابين على هذا النص المذكور ويكتنف البابين الكريمين عضادة غليظة من الفضة المذهبة البديعة النقش تصعد الى العتبة المباركة وتشق عليها وتستدير بمجاني البابين ويعترض أيضاً بين البابين عند اغلاقهما شبه العضادة الكبيرة من الفضه المذهبة هي بطول البابين متصلة بالواحد منهما الذى عن يسار الداخل الى البيت وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الاخضر حسبما ذكرناه وهي أربع وثلاثون شقة في الصفح الذي بين الركن اليماني والشامي منها تسع وفي الصفح الذي يقابله بين الركن الاسود والعراقى تسع أيضاً وفي الصفح بين العراقى والشامى ثمان وفي الصفح بين اليماني والاسود ثمان أيضاً قد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الاربعة جوانب وقد أحاط بها من أسفلها تكفيف مبنى بالجص فى ارتفاعه أزيد من شبر وفي سعته شبران أو أزيد قليلا فى داخله خشب غير ظاهر وقد سمرت فيه

أوتاد حديد في رؤسها حلقات حديد ظاهرة قد ادخل فيها مرس من القنب غليظ مفتول واستدار بالجوانب الاربعة بعد ان وضع في ازيال مسطور حجر السراويلات وأدخل فيها ذلك المرس وخيط عليه بمخيوط من القطن المفتولة الوثيقة ومجتمع السطور فى الاركان الاربعة مخيط الى أزيد من قامة ثم منها الى أعلاها تتصل بعرى من حديد تدخل بعضها في بعض واستدار أيضاً بأعلاها على جوانب السطح تكفيف ثان وقعت فيه أعالي الستور في حلقات حديد على تلك الصفة المذكورة فجاءت الكسوة المباركة مخيطة الاعلى والاسفل وثيقة الازرار لا تخلع الا من عام الى عام عند تجديدها فسبحان من خلد لها الشرف الى يوم القيامة لا اله سواه وباب الكعبة الكريم يفتح كل يوم اثنين ويوم جمعة الا في رجب فانه يفتح فى كل يوم وفتحه أول بزوغ الشمس يقبل سدنة البيت الشيبيون فيبادر منهم من ينقل كرسياً كبيراً شبه المنبر الواسع له تسعة أدراج مستطيلة قد وضعت له قوائم من الخشب متطأمنة مع الارض لها اربع بكرات كبار مصفحة بالحديد لمباشرتها الارض يجرى الكرسى عليها حتى يصل الى البيت الكريم فيقع الاعلى متصلا بالعتبة المباركة من الباب فيصعد زعيم الشيبيين اليه وهو كهل جميل الهيئة والشارة وبيده مفتاح القفل المبارك ومعه من السدنة من يمسك في يده ستر اسود تفتح يديه به امام الباب خلال مايفتحه الزعيم الشيبي المذكور فاذا فتح القفل قبل العتبة ثم دخل البيت وحده وسد الباب خلفه وأقام قدر ما يركع ركعتين ثم

يدخل الشيبيون ويسدون الباب أيضاً ويركعون ثم يفتح الباب
ويبادر الناس بالدخول وفي أثناء محاولة فتح الباب الكريم يقف الناس
مستقبلين اياه بأبصار خاشعة • وأيد مبسوطة الى الله ضارعة • واذا انفتح
الباب كبر الناس وعلا ضجيجهم ونادوا بألسنة مستهلة اللهم افتح لنا
بواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين ثم يدخلوا بسلام آمنين وفي
الصفح المقابل للداخل فيه الذى هو من الركن اليمانى الى الركن الشامى
خمس رخامات منتصبات طولا كأنها أبواب تنتهي الى مقدار خمسة أشبار
من الارض وكل واحدة منها نحو القامة الثلاث منها حمر والاثنتان
خضروان فى كل واحدة منها تجزيع بياض لم ير أحسن منظراً منه
كأن فيها تنقيط فتتصل بالركن اليمانى منها الحمراء ثم تليها بخمسة أشبار
الخضراء والموضع الذى يقابلها متقهقراً عنها بثلاثة أذرع هو مصلى
النبي صلى الله عليه وسلم فيزدحم الناس على الصلاة فيه تبركا به ووضعهن
على هذا الترتيب وبين كل واحدة وأخرى القدر المذكور ويتصل
بينهما رخام أبيض صافي اللون ناصع البياض قد أحدث الله عز وجل
في أصل خلقته أشكالا غريبة مائلة الى الزرقة مشجرة مغصنة وفي التي
تليها مثل ذلك بعينه من الاشكال كأنها مقسومة فلو أطبقتا لعاد كل شكل
يصافح شكله فكل واحدة شقة الاخرى لا محالة عند ما نشرت انشقت
على تلك الاشكال فوضعت كل واحدة بإزاء أختها والفاصل منها بين
كل خضراء وحمراء رخامتان سعتهما خمسة أشبار لا الاشبار المذكورة
أو الاشكال فيها تختلف هيآتها وكل أخت منها بإزاء أختها وقد شدت

جوانب هذه الرخامات تكافيف غلظها قدر أصبعين من الرخام المجزع
من الاخضر والاحمر المنقطين والابيض ذي التحيلان كانها أنابيب
مخروطة بمحار الوهم فيها فاعترضت في هذا الصفح المذكور من فرج
الرخام الابيض ست فرج وفي الصفح الذي عن يسار الداخل وهو من
الركن الاسود الى اليماني أربع رخامات اثنتان خضراوان واثنتان حمراوان
وبينهما خمس فرج من الرخام الابيض وكل ذلك على الصفة المذكورة
وفي الصفح الذي عن يمين الداخل وهو من الركن الاسود الى العراقي
ثلاث اثنتان حمراوان وواحدة خضراء ويتصل بها ثلاث فرج من
الرخام الابيض وهذا الصفح هو المتصل بالركن الذي فيه باب الرحمة
وسعته ثلاثة أشبار وطوله سبعة وعضادته التي عن يمينك اذا استقبلته
رخامة خضراء في سعة ثلثي شبر وفي الصفح الذي من الشامي الى
العراقي ثلاث اثنتان حمراوان وواحدة خضراء ويتصل بها ثلاث فرج
من الرخام الابيض على الصفة المذكورة ولكل هذا الرخام المذكور
طرتان واحدة على الاخرى سعة كل واحدة منهما قدر شبرين ذهب
مرسوم في اللازوردي قد خط فيه خط بديع وتتصل الطرتان
بالذهب المنقوش على نصف الجدار الاعلى والجهة التي عن يمين الداخل
لها طرة واحدة وفي هاتين الطرتين بعض مواضع دراسة في كل ركن
من الاركان الاربعة مما يلي الارض رخامتان خضراوان صغيرتان
تكتنفان الركنين وتكتنف أيضاً كل ما بين من الفضة الذين في كل
ركن كانهما طاقان عضارتان من الرخام الاخضر صغيرتان على قدر

نقبيها وفي أول كل صفح من الصفحات المذكورة رخامة حمراء وفي
آخره مثلها والخضراء بينهما على الترتيب المذكور الا الصفح الذى عن
يسار الداخل فأول رخامة تجدها متصلة بالركن الاسود رخامة خضراء
ثم حمراء الى كمال الترتيب الموصوف وبأزائه المقام الكريم منبر الخطيب
وهو أيضاً على بكرات أربع شبه التي ذكرناها فاذا كان يوم الجمعة وقرب
وقت الصلاة ضم الى صفح الكعبة الذى يقابل المقام وهو بين الركن
الاسود والعراقي فيسند المنبر اليه ثم يقبل الخطيب داخلا على باب النبي
صلى الله عليه وسلم وهو يقابل المقام بالبلاط الآخذ من الشرق الى
الشمال لابساً ثوب سواد مرسوماً بذهب ومتعمما بعمامة سوداء مرسومة
أيضاً وعليه طيلسان شرب رقيق كل ذلك من كساء الخليفة التي يرسلها
الى خطباء بلاده يرفل فيها وعليه السكينة والوقار يتهادى رويداً بين
رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين وبين يديه ساعياً
أحد القومة وفي يده عود مخروط أحمر قد ربط في رأسه مرص من
الاديم المفتول رقيق طويل في طرفه عذبة صغيرة ينفضه بيده في الهواء
نفضاً فتأتي بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه كأنه ايذان
بوصول الخطيب لا يزال في نفضها الى أن يقرب من المنبر ويسمونها
الفرقعة فاذا قرب من المنبر عرج الى الحجر الاسود فقبله ودعا عنده
ثم سعى الى المنبر والمؤذن الزمزمى رئيس المؤذنين بالحرم الشريف
ساعياً امامه لابساً ثياب السواد أيضاً وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده
دون تقلد له فعند صعوده في أول درجة قلده المؤذن المذكور السيف

ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين ثم في الثانية ثم في
الثالثة فاذا انتهى الى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة ووقف داعياً
مستقبل الكعبة بدعاء خفي ثم افتتل عن يمينه وشماله وقال السلام عليكم
ورحمة الله وبركاته فيرد الناس عليه السلام ثم يقعد ويبادر المؤذنون
بين يديه في المنبر بالآذان على لسان واحد فاذا فرغوا قام للخطبة فذكر
ووعظ وخشع فأبلغ ثم جلس الجلسة الخطيبية وضرب بالسيف ضربة
خامسة ثم قام للخطبة الثانية فأكثر بالصلاة على محمد صلى الله عليه
وسلم وعلى آله ورضى عن أصحابه واختص الاربعة الخلفا بالتسمية
رضى الله عن جميعهم ودعا لعمى النبي صلى الله عليه وسلم حمزة والعباس
وللحسن والحسين ووالي الرضى عن جميعهم ثم دعا لامهات المؤمنين
زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ورضى عن فاطمة الزهراء وعن
خديجة الكبرى بهذا اللفظ ثم دعا للخليفة العباسى أبى العباس أحمد
الناصر ثم لامير مكة مكثر بن عيسى بن فليته بن قاسم بن محمد بن
جعفر بن أبي هاشم الحسنى ثم لصلاح الدين أبى المظفر يوسف بن
أيوب ولولى عهده أخيه أبي بكر بن أيوب وعند ذكر صلاح الدين
بالدعاء تخفق الالسنة بالتأمين عليه من كل مكان

واذا أحب الله يوماً عبده ... ألقى عليه محبة للناس

وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم وحسن النظر لهم
ولما رفعه من وظائف المكوث عنهم وفي هذا التاريخ اعلمنا بأن كتابه
وصل الي الامير مكثر واهم فصوله التوصية بالحاج والتأكيد في

ميرتهم وتأنيسهم ورفع أيدى الاعتداء عنهم والايعاز من ذلك الى الخدام
والاتباع والاوزاع وقال انه انما نحن وانت متقلبون في بركة الحاج لتأمل
هذا المنزع الشريف والمقصد الكريم واحسان الله يتضاعف الى من
أحسن الى عباده واعتنائه الكريم موصول لمن جعل همة الاعتناء بهم
والله عز وجل كفيل بجزاء المحسنين انه ولى ذلك لارب سواه وفي
أثناء الخطبة تركز الرايتان السوداوان في أول درجة من المنبر ويمسكها
رجلان من المؤذنين وفى جانبي باب المنبر حلقتان تلقى الرايتان فيهما
مركوزتين فاذا فرغ من الصلاة خرج والرايتان عن يمينه وشماله
والفرقعة امامه على الصفة التى دخل عليها كأن ذلك أيضاً إيذان
بانصراف الخطيب والفراغ من الصلاة ثم اعيد المنبر الى موضعه بازاء
المقام وليلة أهل هلال الشهر المذكور وهو جمادى الاولى بكر أمير مكة
مكثر المذكور فى صبيحتها الى الحرم الكريم مع طلوع الشمس وقواده
يحفون به والقراء يقرأون أمامه فدخل على باب النبى صلى الله عليه
وسلم ورجاله السودان الذين يعرفونهم بالحرابة يطوفون أمامه وبأيديهم
الحراب وهو في هيئة احتضار عليه السكينة والوقار وسمت سلفه
الكريم رضي الله عنهم لابساً ثوب بياض متقلداً سيفه محتضراً متعمماً
بكرزية صوف بيضاء رقيقة فلما انتهى بأزاء المقام الكريم وقف وبسط
له وطأ كتان فصلى ركعتين ثم تقدم الى الحجر الاسود فقبله وشرع
فى الطواف وقد علا في قبة زمزم صبي هو أخو المؤذن الزمزمى هو
أول المؤذنين أذاناً به يقتدون وله يتبعون وقد لبس أفخر ثيابه وتعمم

فعند ما يكمل الامير شوطاً واحداً ويقرب من الحجر يندفع الصبي
في أعلى القبة رافعاً صوته بالدعاء ويستفتحه بصبح الله مولانا الامير
بسعادة دائمة ونعمة شاملة ويصل ذلك بتهنئة الشهر بكلام مسجوع
مطبوع حفيل الدعاء والثناء ثم يختم ذلك بثلاثة أبيات أو أربعة من
الشعر في مدحه ومدح سلفه الكريم وذكر سابقة النبوة رضى الله عنهم
ثم يسكت فاذا اطل من الركن اليماني يريد الحجر اندفع بدعاء آخر
على ذلك الاسلوب ووصله بابيات من الشعر غير الابيات الأخر في
ذلك المعنى بعينه كأنها منتزعة من قصائد مدح بها هكذا في السبعة الاشواط
الى أن يفرغ منها والقراء في أثناء طوافه امامه فينتظم من هذه الحال
والابهة وحسن صوت ذلك الداعى على صغره وانه ابن أحدى عشر
سنة أو نحوها وحسن الكلام الذى يورده نثراً ونظماً واصوات القراء
وعلوها بكتاب الله عز وجل مجموع يحرك النفوس ويشجيها ويستوكف
العيون ويبكيها تذكراً لاهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس
وطهرهم تطهيراً فاذا فرغ من الطواف ركع عند الملتزم ركعتين ثم جاء
وركع خلف المقام أيضاً ثم ولى منصرفاً وحاشيته تحف به ولا يظهر
في الحرم الا لمستهل هلال آخر هكذا دائماً والبيت العتيق مبنى بالحجارة
الكبار الصم السمر قد رص بعضها على بعض وألصقت بالعقد الوثيق
الصاقاً لاتحيله الايام ولاتقصمه الازمان ومن العجيب ان قطعة انصدعت
من الركن اليماني فسمرت بمسامير فضة وأعيدت كاحسن ما كانت عليه
والمسامير فيها ظاهرة ومن آيات البيت العتيق انه قائم وسط الحرم كالبرج

المشيد وله التنزيه الاعلى وحمام الحرم لاتحصى كثرة وهي من الامن بحيث يضرب بها المثل ولا سبيل أن تنزل بسطحه الاعلى حمامة ولا تحل فيه بوجه ولا على حال فترى الحمام تجال من الحرم كله فاذا قربت من البيوت عرجت عنه يميناً أو شمالا والطيور سواها كذلك وقرأت في أخبار مكة انه لا ينزل عليها طائر الا عند مرض يصيبه فاما أن يموت لحينه أو يبرأ فسبحان من أورثه التشريف والتكريم ومن آياته ان بابه الكريم يفتح في الايام المعلومة المذكورة والحرم قد غص بالخلق فيدخله الجميع ولا يضيق عنهم بقدرته عز وجل ولا يبقى فيه موضع الا ويصلى فيه كل أحد ويتلاقى الناس عند الخروج منه فيسأل بعضهم بعضاً هل دخل البيت ذلك اليوم فكل يقول دخلت وصليت فى موضع كذا وموضع كذا حيث صلى الجميع ولله الآيات البينات والبراهين المعجزات سبحانه وتعالى ومن عجائب اعتناء الله تعالى به انه لا يخلو من الطائفين ساعة من النهار ولا وقتاً من الليل فلا تجد من تخبر انه رآه دون طائف به فسبحان من كرمه وعظمه وخلد له التشريف الى يوم القيامة وفي أعلا بلاطة الحرم سطح يطيف بها كلها من الجوانب الاربعة وهو مشرف كلها بشرفات مبسوطة مركنة فى كل جانب من الشرفة ثلاثة أركان كانها أيضاً شرفات أخر صغار والركن الاسفل منها متصل بالركن الذي يليه من الشرفة الأخرى وتحت كل صلة منها ثقب مستدير فى دور الشبر منفوذ يخترقه الهواء يضرب فيه شعاع الشمس أو القمر فيلوح كانها أقمار مستديرة بتصل ذلك

بالجوانب الاربعة كلها كان الشرفات المذكورة بنيت شقة واحدة ثم
أحدثت فيها هذه التقاطيع والتراكين فجاءت عجيبة المنظر والشكل وفى
النصف من كل جانب من الجونب الاربعة المذكورة شقة من الجص
معترضة بين الشرفات مخرمة ٠٠٠٠٠ طولها نحو الثلاثين شبراً
تقديراً يقابل كل شقة منها صفح من صفحات الكعبة المقدسة قد علت
على الشرفات كالتاج والصوامع اشكال بديعة وذلك انها ارتفعت بمقدار
النصف مركنة من الاربعة جوانب بحجارة رائقة النقش عجيبة الوضع
احاط بها شباك من الخشب الغريب الصنعة وارتفع عن الشباك عمود
في الهواء كانه مخروط مختم كله بالآجر تختيماً يتداخل بعضه على
بعض بصنعة تستميل الابصار حسناً ومن أعلا ذلك العمود الفحل وقد
استدار به أيضاً شباك آخر من الخشب على تلك الصنعة بعينها وهي
متميزة الاشكال كلها لا يشبه بعضها بعضاً لكنها على هذا المثال المذكور
من كون نصفها الاول مركناً ونصفها الاعلى عموداً لا ركن له وفى
الصف الاعلى من قبة زمزم والقبة العباسية التي تسمي السقاية والقبة
التي اليها منحرفة عنها يسيراً المنسوبة لليهودية صنعته من قربصة
الخشب عجيبة قد تأنق الصانع فيها وأحدق بأعلاها شباك مشرجب
من الخشب رائق الخلل والتفاريج وداخل شباك قبة زمزم سطح وقد
قام في وسطه شبه نخل الصومعة وفى ذلك السطح يؤذن المؤذن الزمزمي
وقد انخرط من ذلك الفحل عمود من الجص واستقر في رأسه صفيحة
حديد تتخذ مشعلا في شهر رمضان المعظم وفي الصفح الناظر الى البيت

العتيق من القبة سلاسل فيها قناديل من الزجاج معلقة توقد كل ليلة
وفي الصفح الذي في يمينه كذلك وهو الناظر الى الشمال وفي كل جانب
منها ثلاثة شراجيب مقومة كأنها أبواب قد قامت على سوار من الزجاج
صغار لم ير أبدع منها صنعة منها ما هو مفتول فتل السوار ولا سيما
الجانب الذي يقابل الحجر الاسود من قبة زمزم فان سواره في نهاية
من اتقان الصنعة قد أدير بكل سارية منها رؤس ثلاث أو أربعة وتحت
ما بين كل رأس ورأس .... وأحدثت فيه صنائع من النقش عجيبة
المنظر وربما فتل بعضها على الصفة السوارية وهذا الجانب الذى يقابل
الحجر الاسود من القبة المذكورة تتصل به مصطبة من الرخام دائرة
بالقبة يجلس الناس فيها معتبرين بشرف ذلك الموضع لان أشرف مواضع
الدنيا المذكورة بشرف مواضع الآخرة لان الحجر الاسود أمامك
والباب الكريم مع البيت قبالتك والمقام عن يمينك وباب الصفا عن
يسارك وبئر زمزم وراء ظهرك وناهيك بهذا وينطبق على كل شرجب
من تلك الشراجيب أعمدة حديد قد ركب بعضها على بعض كأنها
شراجيب أخر وأحد أركان شباك الخشب المحدق بالقبة العباسية يتصل
بأحد أركانه شباك قبة اليهودية حتى بماسا فمن يكون في أعلى سطح
هذه ينتقل الى سطح الاخرى من الركنين المذكورين وداخل هذه
القباب صنعة من القربصة الجصية رائقة الحسن وللحرم أربعة أئمة
سنية واماماً خامس لفرقة تسمى الزيدية وأشراف هذه البلدة على
مذهبهم وهم يزيدون فى الآذان حي على خير العمل أثر قول المؤذن

حي على الفلاح وهم روافض سبابون والله من وراء حسابهم وجزائهم
ولا يجمعون مع الناس انما يصلون ظهراً أربعاً ويصلون المغرب بعد
فراغ الائمة من صلاتها فأول الائمة السنية الشافعي رحمه الله وانما قدمنا
ذكره لانه المقدم من الامام العباسي وهو من يصلي وصلاته خلف
مقام ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم الا صلاة المغرب
فان الاربعة الائمة يصلونها في وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها يبد
مؤذن الشافعي بالاقامة ثم يقيم مؤذنوا سائر الائمة وربما دخل في هذه
الصلاة على المصلين سهو وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة فربما
ركع المالكي بركوع الشافعي أو الحنفي أو سلم أحدهم بغير سلام امامه
فتر كل أذن مصيغة لصوت أمامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو ومع
هذا فيحدث السهو على كثير من الناس ثم المالكي رحمه الله وهو يصلي
قبالة الركن اليماني وله محاريب حجر يشبه محاريب الطرق الموضوعة
فيها ثم الحنفي رحمه الله وصلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له وهو
أعظم الائمة أبهة وأفخرهم آلة من الشمع وسواها بسبب ان الدولة
الاعجمية كلها على مذهبه فالاحتفال له كثير وصلاته آخراً ثم الحنبلي
رحمه الله وصلاته مع صلاة المالكي في حين واحد وموضع صلاته
يقابل ما بين الحجر الاسود والركن اليماني ويصلي الظهر والعصر
قريباً من الحنفي في بلاطه الآخذ من الغرب الى الشمال والحنفي
يصليها في البلاط الآخذ من الغرب الى الجنوب قبالة محرابه ولا حطيم
له وللشافعي بأزاء المقام حطيم حفيل وصفة الحطيم خشبتان موصول

بينهما بأذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على تلك الصفة قد عقدت هذه الخشب على رجلين من الجص غير بائنة الارتفاع واعترض في أعلى الخشب خشبة مسمرة فيها قد نزلت منها خطاطيف حديد فيها قناديل معلقة من الزجاج وربما وصل بالخشبة المعترضة العليا شباك مشرجب بطول الخشب وللحنفي بين الرجلين الجصيتين المنعقدتين على الخشب محراب يصلي فيه وللحنبلي حطيم معطل هو قريب من حطيم الحنفي وهو منسوب لرامشت أحد الاعاجم ذوي الثراء وكانت له في الحرم آثار كريمة من النفقات رحمه الله ويقابل الحجر حطيم معطل أيضاً ينسب للوزير المقدم بهذا اللفظ المجهول ويطيف بهذه المواضع كلها دائر البيت العتيق وعلى بعد منه يسيراً مشاعيل توقد في صحاف حديد فوق خشب مركوزة فيتقد الحرم الشريف كله نوراً ويوضع الشمع بين أيدي الائمة في محاريبهم والمالكي أقلهم شمعاً وأضعفهم مالا لان مذهبه في هذه البلاد غريب والجمهور على مذهب الشافعي وعليه علماء البلاد وفقهائها الا الاسكندرية وأكثر أهلها مالكيون وبها الفقيه ابن عون وهو شيخ كبير من أهل العلم بقية الائمة المالكية وفي أثر كل صلاة مغرب يقف المؤذن الزمزمي في سطح قبة زمزم ولها مطلع على أدراج من عود في الجهة التي تقابل باب الصفا رافعاً صوته بالدعاء للامامي العباسي أحمد الناصر لدين الله ثم للامير مكثر ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن ذي المآثر الشهيرة والمناقب الشريفة فاذا انتهى الى ذكره بالدعاء ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بألسنة

تمدها القلوب الخالصة والنيات الصادقة وتخفق الالسنة بذلك خفقاً يذيب القلوب خشوعاً لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل وألقى عليه من محبة الناس وعباد الله شهدائه في أرضه ثم يصل ذلك بدعاء لامراء اليمن من جهة صلاح الدين ثم لسائر المسلمين والحجاج والمسافرين وينزل هكذا دأبه دائماً أبداً وفي القبة العباسية المذكورة خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع وفيه مصحف أحد الخلفاء الاربعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخط زيد بن ثابت رضي الله عنه منتسخ سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقص منه ورقات كثيرة وهو بين دفتي عود مجلد بمغاليق من صفر كبير الورقات واسعها عايناه وتبركنا بتقبيله ومسح الخدود فيه نفع الله بالنية في ذلك واعلمنا صاحب القبة المتولي لعرضه علينا أن أهل مكة متى أصابهم قحط أو نالتهم شدة في أسعارهم اخرجوا المصحف المذكور وفتحوا باب البيت الكريم ووضعوه في القبة المباركة مع المقام الكريم مقام الخليل ابراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم واجتمع الناس كاشفين رؤسهم داعين متضرعين وبالمصحف الكريم والمقام العظيم الى الله متوسلين فلا ينفصلون عن مقامهم ذلك الا ورحمة الله عز وجل قد تداركتهم والله لطيف بعباده لا اله سواه وبإزاء الحرم الشريف ديار كثيرة لها أبواب يخرج منها اليه وناهيك بهذا الجوار الكريم كدار زبيدة ودار القاضي ودار تعرف بالعجالة وسواها من الديار وحول الحرم أيضاً ديار كثيرة تطيف به لها مناظر وسطوح

يخرج منها الى سطح الحرم فيبيت أهلها فيه ويبردون ماءهم فى أعالي شرفات فهم من النظر الى البيت العتيق دائماً فى عبادة متصلة والله يهنئهم بما خصهم به من مجاورة بيته الحرام بمنه وكرمه وألقيت بخط الفقيه الزاهد الورع أبي جعفر المكي القرطبي ان ذرع المسجد الحرام في الطول والعرض ما أثبته اولا وهو مسجد رسول الله صلي الله عليه وسلم ثلاثمائة ذراع وعرضه مائتان وعدد سواريه ثلاثمائة ومناراته ثلاث فيكون تكسيره أربعة وعشرين مرجعاً من المراجع المغربية وهي خمسون ذراعاً فى مثلها وطول (مسجد) بيت المقدس أعاده للاسلام سبعمائة وثمانون ذراعاً وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعاً وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية وقناديله خمسمائة وأبوابه خمسون باباً فيكون تكسيره من المراجع المذكورة مائة مرجع وأربعين مرجعاً وخمسى مرجع

ذكر أبواب الحرم الشريف قدسه الله

للحرم تسعة عشر باباً أكثرها مفتح على أبواب كثيرة حسبما يأتي ذكره ان شاء الله (باب) الصفا يفتح على خمسة أبواب وكان يسمى قديماً بباب بنى مخزوم (باب) الخلقيين ويسمى بباب جياد الأصغر مفتح على بابين وهو محدث (باب) العباس رضى الله عنه وهو يفتح على ثلاثة أبواب باب على رضى الله عنه يفتح على ثلاثة أبواب (باب) النبى صلى الله عليه وسلم يفتح على بابين (باب) صغير أيضاً بازاء باب بنى شيبة المذكور لا اسم

له (باب) بنى شيبة وهو يفتح على ثلاثة أبواب وهو باب بنى عبد شمس ومنه كان دخول الخلفاء (باب دار الندوة) ثلاثة البابان من دار الندوة منتظمان والثالث في الركن الغربي من الدار فيكون عدد أبواب الحرم بهذا الباب المنفرد عشرين باباً (باب) صغير بأزاء بني شيبة شبه خوخة الابواب لا اسم له وقيل انه يسمى باب الرباط لانه يدخل منه لرباط الصوفية (باب) صغير لدار العجلة محدث (باب) السدة واحد (باب) العمرة واحد (باب) حزورة على بابين (باب) ابراهيم صلى الله عليه وسلم واحد (باب) ينسب لحزورة أيضاً على بابين (باب) جياد الاكبر على بابين (باب) جياد الاكبر أيضاً على بابين (باب) ينسب لجياد أيضاً على بابين ومنهم من ينسب البابين من هذه الابواب الاربعة الجيادة الى الدقاقين والروايات فيها تختلف لكنا اجتهدنا في اثبات الاقرب من أسمائها الى الصحة والله المستعان لارب سواه وباب ابراهيم صلى الله عليه وسلم هو فى زاوية كبيرة متسعة فيها دار المكناسي الفقيه الذي كان امام المالكية في الحرم رحمه الله وفيها أيضا غرفة هى خزانة للكتب المحبسة على المالكية في الحرم والزاوية المذكورة متصلة بالبلاط الآخذ من الغرب الى الجنوب وخارجة عنه وبأزاء الباب المذكور عن يمين الداخل عليه صومعة على غير أشكال الصوامع المذكورة فيها تخاريم فى الجص مستطيلة الشكل كأنها محاريب قد حفت بها قربصة غريبة الصنعة وعلى الباب قبة عظيمة بائنة العلو يقرب من الصومعة ارتفاعها قد ضمن داخلها غرائب من الصنعة الجصية والتخاريم القربصية يعجز عنها

الوصف وظاهرها أيضاً تقاطيع في الجص كأنها أرجل مدورة قد
ركبت دائرة على دائرة ومحل الصومعة المذكورة على أرجل من
الجص مفتح ما بين (كل) رجل ورجل وخارج باب ابراهيم بئر تنسب
اليه عليه السلام وانما بدئ بباب الصفا لانه أكبر الابواب وهو الذى
يخرج عليه الى السعى وكل وافد الى مكة شرفها الله يدخلها بعمرة
فيستحب له الدخول على باب بنى شيبة ثم يطوف سبعاً ويخرج على
باب الصفا ويجعل طريقه بين الاسطوانتين اللتين أمر المهدي رحمه الله
باقامتها علماً لطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصفا حسبما تقدم
ذكره وبين الركن اليماني وبينهما ست وأربعون خطوة ومنهما الى باب
الصفا ثلاثون خطوة ومن باب الى الصفا ست وسبعون خطوة وللصفا
أربعة عشر درجاً وهو على ثلاثة أقواس مشرفة والدرجة العليامتسعة
كانها مصطبة وقد أحدقت به الديار وفى سعته سبع عشرة خطوة وبين
الصفا والميل الاخضر ما يأتي ذكره والميل سارية خضراء وهي خضرة
صباغية وهي التي الى ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم
على قارعة الميل الى المروة وعن يسار الساعي اليها ومنها يرمل في
السعى الى الميلين الاخضرين وهما أيضاً ساريتان خضراوان على الصفة
المذكورة الواحدة منهما بازاء باب على في جدار الحرم وعن يسار
الخارج من الباب والميل الآخر يقابله في جدار دار تتصل بدار الامير
مكثر وعلى كل واحدة منهما لوح قد وضع على رأس السارية كالتاج
ألفيت فيه منقوشاً برسم مذهب ان الصفا والمروة من شعائر الله

الآية وبعدها أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته أبو محمد
المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أعز الله نصره في سنة ثلاث وسبعين
وخمسمائة وبين الصفا والميل الاول ثلاث وتسعون خطوة ومن الميل الى
الميلين خمس وسبعون خطوة وهي مسافة الرمل جائياً وذاهباً من
الميل الى الميلين ثم من الميلين الى الميل ومن الميلين الي المروة ثلثمائة
وخمس وعشرون خطوة فجميع خطا الساعي من الصفا الى المروة
أربعمائة خطوة وثلاث وتسعون خطوة وادراج المروة خمسة وهي بقوس
واحد كبير وسعتها سعة الصفا سبع عشرة (خطوة) وما بين الصفا
والمروة ميل هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب
وسائر المبيعات الطعامية والساعون لايكادون يخلصون من كثرة الزحام
وحوانيت الباعة يميناً وشمالا وما للبلدة سوق منتظمة سواها الا البزازين
والعطارين فهم عند باب بني شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد
تتصل بها وعلى الحرم الشريف جبل أبي قبيس وهو في الجهة الشرقية
بقابل ركن الحجر الاسود وفي أعلاه رباط مبارك فيه مسجد وعليه
سطح مشرف على البلد الطيبة ومنه يظهر حسنها وحسن الحرم واتساعه
وجمال الكعبة المقدسة القائمة وسطه وقرأت في أخبار مكة لابي الوليد
الازرقي انه أول جبل خلقه الله عز وجل وفيه استودع الحجر من
الطوفان وكانت قريش تسميه الامين لانه أدى الحجر الى ابراهيم
صلى الله عليه وسلم وفيه قبر آدم صلوات الله عليه وهو أحد أخشبي
مكة والاخشب الثاني الجبل المتصل بقعيقعان في الجهة الغربية صعدنا

الى جبل أبي قبيس المذكور وصلينا في المسجد المبارك وفيه موضع
موقف النبي صلى الله عليه وسلم عندانشق القمرله بقدرة الله عزجل
وناهيك بهذه الفضيلة والبركة والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء حتى
الجمادات من مخلوقاته لا اله سواه وفى أعلاه آثار بناء جص مشيد كانه
اتخذه معقلا أمير البلد عيسى أبو مكثر المذكور فهدمه عليه أمير الحج
العراقى لمخالفة صدرت عنه فغادره خراجا وألفيت منقوشاً على سارية
خارج باب الصفا تقابل السارية الواحدة من الاثنين أقيمتا علماً لطريق
النبي صلى الله عليه وسلم الى الصفا داخل الحرم المتقدمتي الذكر أمر
عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله تعالى بتوسعة المسجد
الحرام مما يلى باب الصفا لتكون الكعبة في وسط المسجد فى سنة سبع
وستين ومائة فدل ذلك المكتوب على ان الكعبة المقدسة في وسط
المسجد وكان يظن بها الانحراف الى جهة باب الصفا فاختبرنا جوانبها
المباركة بالابل فوجدنا الامر صحيحاً حسبما تضمنه رسم السارية وتحت
ذلك النقش في أسفل السارية منقوش أيضاً أمر عبدالله (محمد) المهدي
أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة الباب الاوسط الذى بين هاتين
الاسطوانتين وهو طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصفاوفي
أعلى السارية التي يليها منقوش أيضاً أمر عبد الله محمد المهدي أمير
المؤمنين أصلحه الله بصرف الوادى الى مجراه على عهد أبيه ابراهيم صلى
الله عليه وسلم وتوسعته وبالرحاب التي حول المسجد الحرام لحاج بيت
الله وعماره وتحتها أيضاً منقوش ما تحت الاول من ذكر توسعة الباب

الاوسط والوادي المذكور هو الوادى المنسوب لابراهيم صلى الله عليه وسلم ومجراه على باب الصفا المذكور وكان السيل قد خالف مجراه فكان يأتى على الميل بين الصفا والمروة ويدخل الحرم فكان مدة مده بالامطار يطاف حول الكعبة سبحاً فأمر المهدى رحمه الله برفع موضع فى أعلى البلد يسمي رأس الردم فمتى جاء السيل عرج عن ذلك الردم الي مجراه واستمر على باب ابراهيم الى الموضع الذى يسمى المسفلة ويخرج عن البلد ولا يجرى الماء فيه الا عند نزول ديم المطر الكثير وهو الوادى الذى عنى صلى الله عليه وسلم بقوله حيث حكى الله تبارك وتعالي عنه ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع فسبحان من أبقى له الآيات البينات

ذكر مكة شرفها الله تعالى وآثارها الكريمة وأخبارها الشريفة

هي بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها وهي بطن واد مقدس كبيرة مستطيلة تسع من الخلائق مالا يحصيه الا الله عز وجل ولها ثلاثة أبواب أولها (باب) المعلى ومنه يخرج الي الجبانة المباركة وهي بالموضع الذى يعرف بالحجون وعن يسار المار اليها جبل فى أعلاه ثنية عليها علم شبيه البرج يخرج منها الى طريق العمرة وتلك الثنية تعرف بكدا وهي التى عنى حسان بقوله في شعره

* تُثير النقع موعدها كداء *

فقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح أدخلوا من حيث

قال حسان فدخلوا من تلك الثنية وهذا الموضع الذي يعرف بالحجون هو الذى عناه الحرث بن مضاض الجهرمى بقوله

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا   صروف الليالى والجدود العواثر

وبالجبانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والاولياء والصالحين قد دثرت مشاهدهم المباركة وذهبت عن أهل البلد أسماءهم وفيه الموضع الذى صلب فيه الحجاج بن يوسف جازاه الله جثة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وعلى الموضع بقية علم ظاهر الى اليوم وكان عليه مبنى مرتفع فهدمه أهل الطائف غيرة منهم على ما كان يجدد من لعنة صاحبهم الحجاج المذكور وعن يمينك اذا استقبلت الجبانة المذكورة مسجد فى مسيل بين جبلين يقال انه المسجد الذى بايعت فيه الجن للنبى صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف وطريق العراق والصعود الى عرفات جعلنا الله ممن يفوز بالموقف فيها وهذا الباب المذكور بين الشرق والشمال وهو الى المشرق أميل ثم (باب) المسفل وهو الى جهة الجنوب وعليه طريق اليمن ومنه كان دخول خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم الفتح ثم (باب) الزاهر ويعرف أيضاً بباب العمرة وهو غربى وعليه طريق مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وطريق الشام وطريق جدة ومنه يتوجه الى التنعيم وهو أقرب ميقات المعتمرين يخرج من الحرم اليه على باب العمرة ولذلك أيضاً يسمى هو بهذا الاسم والتنعيم من البلدة على فرسخ وهو

طريق حسن فسيح فيه الآبار العذبة التي تسمى بالشبيكة وعندما تخرج
من البلدة بنحو ميل تلقى مسجداً بأزاءه حجر موضع على الطريق
كالمصطبة يعلوه حجر آخر مسند فيه نقش دائر الرسم يقال انه الموضع
الذى قعد فيه النبي صلى الله عليه وسلم مستريحاً عند مجيئه من العمرة
فيتبرك الناس بتقبيله ومسح الخدود فيه وحق ذلك لهم ويستندون اليه
لتنال أجسامهم بركة لمسه ثم بعد هذا الموضع بمقدار غلوة تلقى على
قارعة الطريق من جهة اليسار للمتوجه الى العمرة قبرين قد علتهما
أكوام من الصخر عظام يقال انهما قبر أبي لهب وامرأته لعنهما الله فما
زال الناس في القديم الى هلم جرا يتخذون سنة رجمهما بالحجارة حتى
علاهما من ذلك جبلان عظيمان ثم تسير منها بمقدار ميل وتلقى الزاهر
وهو مبنى على جانبي الطريق يحتوى على دار وبساتين والجميع ملك
أحد المكيين وقد أحدث فى المكان مطاهر وسقاية للمعتمرين وعلى
جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الماء ومراكن مملوءة
للوضوء وهى القصاري الصغار وفى الموضع بئر عذبة يملأ منها المطاهر
المذكورة فيجد المعتمرون فيها مرفقاً كبيراً للطهور والوضوء والشرب
فصاحبها على سبيل معمورة بالاجر والثواب وكثير من الناس
المتأخرين من يعينه على ما هو بسبيله وقيل ان له في ذلك فائدة كبيرة
وعن جانبي الطريق في هذا الموضع جبال أربعة جبلان من هنا
وجبلان من هنا عليها أعلام من الحجارة وذكر لنا انها الجبال المباركة
التى جعل ابراهيم عليه السلام عليها أجزاء الطير ثم دعاهن حسبما حكى

الله عز وجل سؤاله اياه جل وعلا أن يريه كيف يحيي الموتى وحول
تلك الجبال الاربعة جبال غيرها وقيل ان التى جعل ابراهيم عليه
السلام عليها الطير سبعة منها والله أعلم وعند أجازتك الزاهر المذكور
تمر بالوادي المعروف بذي طوى الذى ذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم
نزل فيه عند دخول مكة وكان ابن عمر رضي الله عنهما يغتسل فيه
وحينئذ يدخلها وحوله آبار تعرف بالشبيكة وفيه مسجد يقال انه مسجد
ابراهيم عليه السلام فتأمل بركة هذا الطريق ومجموع الآيات التى فيه
والآثار المقدسة التى اكتنفته وتجيز الوادى الى مضيق تخرج منه الى
الاعلام التى وضعت حجزاً بين الحل والحرام فما داخلها الى مكة حرم
وما خارجها حل وهي كالابراج مصفوفة كبار وصغار واحد بأزاء آخر
على مقربة منه تأخذ من أعلى الجبل الذى يعترض عن يمين الطريق
فى التوجه الى العمرة وتشق الطريق الى أعلى الجبل عن يساره ومنه
ميقات المعتمرين وفيها مساجد مبنية بالحجارة يصلى المعتمرون فيه
ويحرمون منها ومسجد عائشة رضى الله عنها خارج هذه الاعلام بمقدار
غلوتين واليه يصل المالكيون ومنه يحرمون وأما الشافعيون فيحرمون
من المساجد التى حول الاعلام المذكور وانما مسجد عائشة رضى الله
عنها مسجد ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن عجيب ماعرض
علينا بباب بنى شيبة المذكور عتب من الحجارة العظام طوال كأنها
مصاطب صفت أمام الابواب الثلاثة المنسوبة لبنى شيبة ذكر لنا انها
الاصنام التى كانت قريش تعبدها فى جاهليتها وكبيرها هبل بينها قد

كبت على وجوهها تطأها الاقدام وتمتهنها بأنعلتها العوام ولم تغن عن
أنفسها فضلا عن عابديها شيئاً فسبحان المنفرد بالوحدانية لا اله سواه
والصحيح في أمر تلك الحجارة ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر يوم
فتح مكة بكسر الاصنام واحراقها وهذا الذى نقل الينا غير صحيح وانما
تلك التى على الباب حجارة منقولة وعنيت القوم بتشبيهها الى الاصنام لعظمها
ومن جبال مكة المشهورة بعد جبل أبي قبيس (جبل حراء) وهو فى
الشرق على مقدار فرسخ أو نحوه مشرف على منى وهو مرتفع فى
الهواء عالى القنة وهو جبل مبارك كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا
ماينتابه ويتعبد فيه واهتز تحته فقال النبي صلى الله عليه وسلم اسكن
حراء فما عليك الانبي وصديق وشهيد وكان معه أبو بكر وعمر ويروي
أثبت فما عليك الا نبي وصديق وشهيدان وكان عثمان رضى الله عنه
معهم وأول آية نزلت من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم فى الجبل المذكور
وهو آخذ من الغرب الى الشمال ووراء طرفه الشمالى جبانة الحجون التى
تقدم ذكرها وسور مكة انما كان من جهة المعلى وهو مدخل الى البلد
ومن جهة المسفل وهو مدخل أيضاً اليه ومن جهة باب العمرة وسائر
الجوانب جبال لا يحتاج معها الى سور وسورها اليوم منهدم الا آثاره
الباقية وأبوابه القائمة

﴿ ذكر بعض مشاهدها المعظمة وآثارها المقدسة ﴾

مكة شرفها الله كلها مشهد كريم كفاها شرفاً ما خصها الله به من

مثابة بيته العظيم وما سبق لها من دعوة الخليل ابراهيم وانها حرم الله وأمنه وكفاها انها ملشأ النبى صلى الله عليه وسلم الذى أثره الله بالتشريف والتكريم وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم فهي مبدأ نزول الوحى والتنزيل وأول مهبط الروح الامين جبريل وكانت مثابة أنبياء الله ورسله الاكرمين وهي أيضاً مسقط رؤس جماعة من الصحابة القرشيين المهاجرين الذين جعلهم الله مصابيح الدين ونجوماً للمهتدين فمن مشاهدها التي عاينا ها (قبة الوحى) وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها وبها كان ابتداء النبى صلى الله عليه وسلم بها وقبة صغيرة أيضاً فى الدار المذكورة فيها كان مولد فاطمة الزهراء رضى الله عنها وفيها أيضاً ولدت سيدى شباب أهل الجنة الحسن والحسين رضى الله عنهما وهذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها ومن مشاهدها الكريمة أيضاً مولد النبى صلى الله عليه وسلم والتربة الطاهرة التى هى أول تربة مست جسمه الطاهر بنى عليه مسجد لم ير أحفل بناء منه أكثره ذهب منزّل به والموضع المقدس الذى سقط فيه صلى الله عليه وسلم ساعة الولادة السعيدة المباركة التى جعلها الله رحمة للامة أجمعين محفوف بالفضة فيالها تربة شرفها الله بأن جعلها أطهر الاجسام ومولد خير الانام صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام وسلم تسليما يفتح هذا الموضع المبارك فيدخله الناس كافة متبركين به في شهر ربيع الاول ويوم الاثنين منه لانه كان شهر مولد النبي صلى الله عليه وسلم وفي اليوم المذكور ولد صلى الله عليه وسلم وتفتح المواضيع المقدسة

المذكورة كلها وهو يوم مشهور بمكة دائماً ومن مشاهدها الكريمة أيضاً
دار الخيزران وهي الدار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعبد الله فيها
سراً مع الطائفة الكريمة المبادرة للاسلام من أصحابه رضي الله عنهم
حتى نشر الله الاسلام منها على يدي الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله
عنه وكفى بهذه الفضيلة ومن مشاهدها أيضاً دار (أبي بكر الصديق)
رضى الله عنه وهي اليوم دارسة الأثر ويقابلها جدار فيه حجر مبارك
يتبرك الناس بلمسه يقال انه كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم متى
اجتاز عليه وذكر انه جاء يوماً صلى الله عليه وسلم الى دار أبي بكر
رضى الله عنه فنادى به ولم يكن حاضراً فأنطق الله عز وجل
الحجر المذكور وقال يا رسول الله ليس بحاضر وكانت من احدى آياته
المعجزات صلى الله عليه وسلم ومن مشاهدها قبة بين الصفا والمروة
تنسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي وسطها بئر يقال انه كان
يجلس فيها للحكم رضى الله عنه والصحيح في هذه القبة أنها قبة حفيدة
عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وبأزاء داره المنسوبة اليه وفيها كان
يجلس للحكم أيام تولية مكة كذلك حكي لنا أحد أشياخنا الموثوقين
به ويقال ان البير كانت في القديم فيها ولا بير فيها الآن لانا دخلناها
فألفيناها مسطحة وهي حفيلة الصنعة وكانت بمقربة من الدار التي نزلنا
فيها دار جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه ذي الجناحين وبجهة المسفل
وهو آخر البلد مسجد منسوب لابي بكر الصديق رضى الله عنه يحف
به بستان حسن فيه النخل والرمان وشجر العناب وعاينا فيه شجر

الحناء وامام المسجد بيت صغير فيه محراب يقال انه كان مختبأ له رضي الله عنه من المشركين الطالبين له وعلى مقربة من دار خديجة رضى الله عنها المذكورة وفي الزقاق الذى الدار المكرمة فيه مصطبة فيها متكأ يقصد الناس اليها ويصلون فيها ويتمسحون بأركانها لان في موضعها كان موضع قعود النبي صلى الله عليه وسلم ومن الجبال التى فيها أثر كريم ومشهد عظيم الجبل المعروف (بأبي ثور) وهو في الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ أو أزيد وفيه الغار الذي آوى اليه النبي صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الصديق رضي الله عنه حسبما ذكر الله تعالى في كتابه العزيز وقرأت فى كتاب أخبار مكة لابي الوليد الازرقى ان الجبل نادى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الىّ يا محمد الىّ يا محمد فقد أويت قبلك نبياً وخص الله عزوجل نبيه فيه بآيات بينات فمنها انه صلى الله عليه وسلم دخل مع صاحبه على شق فيه ثلثا شبر وطوله ذراع فلما اطمأنا فيه أمر الله العنكبوت فاتخذت عليه بيتاً والحمام فصنعت عليه عشاً وفرخت فانتهى المشركون اليه بدليل قصاص للأثر مستاف أخلاق الطريق فوقف لهم عند الغار وقال ههنا انقطع الأثر فاما صعد بصاحبكم من ههنا الى السماء أوغيص به فى الارض ورأوا العنكبوت ناسجة على فم الغار والحمام مفرخة فيه فقالوا ما دخل هنا أحد فأخذوا في الانصراف فقال الصديق رضي الله عنه يا رسول الله لو ولجوا علينا من فم الغار ما كنا نصنع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ولجوا علينا منه كنا نخرج من هناك وأشار بيده المباركة الى الجانب الاخر من الغار ولم يكن فيه شق فانفتح

للحين فيه باب بقدرة الله عز وجل وهو سبحانه قدير على مايشاء وأكثر الناس يتنابون هذا الغار المبارك ويجتنبون دخوله من الباب الذي أحدث الله عز وجل فيه ويرومون دخوله من الشق الذى دخل النبي صلى الله عليه وسلم تبركا به فيمتد المحاول لذلك على الارض ويبسط خده بأزاء الشق ويولج يديه ورأسه أولا ثم يعالج ادخال سائر جسده فمنهم من يتأتى له ذلك بحسب قضافة بدنه ومنهم من يتوسط بدنه فم الغار فيعضه فيروم الدخول أو الخروج فلا يقدر فيلشب ويلاقى مشقة وصعوبة حتى يتناول بالجذب العنيف من ورائه فالعقلاء من الناس يجتنبونه لهذا السبب ولاسيما ويتصل به سبب آخر مخجل فاضح وذلك ان عوام الناس يزعمون ان الذى لايسع عليه ويتمسك فيه ولا يلجه ليس لرشدة جري هذا الخبر على ألسنتهم حتى عاد عندهم قطعاً على صحته لا يشكون فيحسب المنتشب فيه المتعذر ولوجه عليه يكسوه هذا الظن الفاضح المخجل زائد الى ما يكابده بدنه من اللز في ذلك المضيق واشرافه منه على المنية توجعاً وانقطاع نفس وبرح ألم فالبعض من الناس يقولون في مثل ليس يصعد جبل أبي ثور الا ثور وعلى مقربة من هذا الغار فى الجبل بعينه عمود منقطع من الجبل قد قام شبه الذراع المرتفعة بمقدار شبه القامة وانبسط له في أعلاه شبه الكف خارجاً عن الذراع كأن القبة المبسوطة بقدرة الله عز وجل يستظل تحتها نحو العشرين رجلاً وتسمى قبة جبريل صلى الله عليه وسلم ومما يجب أن يثبت ويؤثر لبركة معاينته وفضل مشاهدته ان في يوم الجمعة

التاسع عشر من جمادى الاولى وهـو التاسع من ستنبر ان شاء الله
بحرية فتشاءمت فأنهلت عينا غديقة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
وذلك أثر صـلاة العصر ومع العشي من اليوم المذكور فجاءت بمطر
جود وتبادر الناس الى الحجر فوقعوا تحت الميزاب المبارك متجردين
عن ثيابهم يتلقون الماء الذى يصبه الميزاب برؤسهم وأيديهم وافواههم
مزدحمين عليه ازدحاماً عظيماً أحدث ضوضاء عظيمة كل يحرص على أن
ينال جسمه من رحمة الله نصيباً ودعائهم قد علا ودموع أهل الخشوع
منهم تسيل فلا تسمع الا ضجيج دعاء أو نشيج بكاء والنساء قد وقفن
خارج الحجر ينظرن بعيون دوامع وقلوب خواشع يتمنين ذلك الموقف
لو ظفرن به وكان بعض الحجاج المتأخرين المشفقين يبل ثوبه بذلك
الماء المبارك ويخرج اليهن ويعصره في أيدى البعض منهن فتلقينه شرباً
ومسحاً على الوجوه والابدان وتمادت تلك السحابة المباركة الى قريب
المغرب وتمادى الناس على تلك الحال من الازدحام على تلقي ماء الميزاب
بالايدى والوجوه والافواه ورعاع رفعوا الاوانى ليقع فيها فكانت عشية
عظيمة استشعرت النفوس فيها الفوز بالرحمة ثقة بفضله وكرمه ولما
أقترن بها من القرائن المباركة فمنها أنها كانت عشية الجمعة وفضل اليوم
فضله والدعاء فيها يرجى من الله تعالى قبوله لما ورد فيها من الأثر
الصحيح وأبواب السماء تفتح عند نزول المطر وقد وقف الناس تحت
الميزاب وهو من المواضع التى يستجاب فيها الدعاء وطهرت أبدانهم رحمة
الله النازلة من سمائه الى سطح بيته العتيق الذي هو حيال البيت المعمور

وكفى بهذا المجتمع الكريم والمنتظم الشريف جعلنا الله ممن طهر فيه
من أرجاس الذنوب واختص من رحمة الله تعالى بذنوب ورحمته واسعة
تسع عباده المذنبين انه غفور رحيم وذكروا ان الامام أبا حامد الغزالى
دعا الله عز وجل بدعوات وهو في حرمه الكريم في رغبات رفعها الله
جل وتعالى فأعطي بعضاً ومنع بعضاً وكان مما منع نزول المطر وقت مقامه
بمكة وكان تمنى أن يغتسل به تحت الميزاب ويدعو الله عز وجل عند بيته
الكريم في الساعة التى أبواب سمائه فيها مفتوحة فمنع ذلك وأجيب دعائه
في سائر ما سأله فله الحمد وله الشكر على ما أنعم به علينا ولعل عبداً
من عباده الصالحين الوافدين على بيته الكريم خصه الله بهذه الكرامة
فدخلنا جميع المذنبين في شفاعته والله ينفعنا بدعاء المخلصين من عباده
ولا يجعلنا ممن شقى بدعائه انه منعم كبير

﴿ ذكر ماخص الله تعالى به مكة من الخيرات والبركات ﴾

هذه البلدة المباركة سبقت لها ولاهلها الدعوة الخليلية الابراهيمية
وذلك ان الله عز وجل يقول حاكياً عن خليله صلى الله عليه وسلم
(فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم
يشكرون) وقال عز وجل (أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى اليه
ثمرات كل شيء) فبرهان ذلك فيها ظاهر متصل الى يوم القيامة وذلك ان
أفئدة الناس تهوى اليها من الاصقاع النائية والاقطار الشاحطة فالطريق
اليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة والثمرات تجبى

اليها من كل مكان فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومتاجر ولو لم يكن لها من المتاجر الأوان الموسم ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب فيباع فيها في يوم واحد فضلا عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجوهر والياقوت وسائر الاحجار ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية الي غير ذلك من جلب الهند والحبشة الى الامتعة العراقية واليمانية الى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية الي ما لا يحصر ولا ينضبط مالو فرق على البلاد كلها لاقام لها الاسواق النافعة ولعم جميعها بالمنفعة التجارية كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم حاشا ما يطرأ بها مع طول الايام من اليمن وسواها فما على الارض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر الا وهي موجودة فيها مدة الموسم فهذه بركة لاخفاء بها وآية من آياتها الشريفة التى خصها الله بها وأما الارزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نظن إن الاندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغص بالنعم والفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والاترج والجوز والمقل والبطيخ والقثا والخيار الى جميع البقول كلها كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب الى سائرها الي غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة وأكثر هذه البقول كالباذنجان والقثاء والبطيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره ولكل نوع من هذه الانواع فضيلة موجودة فى حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود فى

سائر البلاد فالعجب من ذلك يطول ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل وكل فواكهها عجب لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة وذلك لان رائحته من أعطر الروائح وأطيبها يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت اليك فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك اياه حتى اذا ذقته خيل اليك انه شيب بسكر مذاب أو بجنى النحل الالباب ولعل متصفح هذه الاحرف يظن ان في الوصف بعض الغلو كلا لعمر الله انه لا كثر مما وصفت وفوق ما قلت وبها عسل أطيب من الماذي المضروب به المثل يعرف عندهم بالمسعودى وأنواع اللبن بها فى نهاية من الطيب وكلما يصنع منها من السمن فانه لا تكاد تميزه من العسل طيباً ولذاذة ويجلب اليها قوم من اليمن يعرفون (بالسرو) نوعاً من الزبيب الاسود والاحمر فى نهاية الطيب ويجلبون معه من اللوز كثيراً وبها قصب السكر أيضاً كثير يجلب من حيث تجلب البقول التى ذكرناها والسكر بها كثير مجلوب وسائر النعم والطيبات من الرزق والحمد لله وأما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى انهم ٠٠٠٠ يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة وفي الاشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان يتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة ولم يشاهد أحد أكمل منظراً منها لا بمصر ولا بسواها قد صورت منها تصاوير انسانية وفاكهية وجليت فى منصات كأنها العرائس ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة فتلوح كأنها الازاهر حسناً فتقيد الابصار وتستنزل الدرهم والدينار

وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب قد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق وضرب نواحي الاقطار انها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا وما ذاك والله أعلم الا لبركة مراعيها هذا على افراط سمنه ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهي ذلك المنتهى في السمن للفظته الافواه ودكا ولعافته وتجنبته والامر فى هذا بالضد كلما ازداد سمناً زادت النفوس فيه رغبة والنفس له قبولا فتجده هنياء رخيصاً يذوب فى الفم قبل أن يلاك مضغاً ويسرع لخفته عن المعدة انهضاماً وما أرى ذلك الا من الخواص الغريبة وبركة البلد الامين قد تكفلت بطيبه لا شك فيه والخبر عنـه يضيق عن الخبر له والله يجعل فيه رزقاً لمن تشوق بلدته الحرام وتمنى هذه المشاهد العظام والمناسك الكرام بعزته وقدرته وهذه الفواكه تجلب اليها من الطائف وهي على مسيرة ثلاثة أيام منها على الرفق والتؤدة ومن قرى حولها وأقرب هذه المواضيع يعرف با ..... هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلا وهو من بطن الطائف ويحتوى على قري كثيرة ومن بطن مرو هو على مسيرة يوم أو أقل من نخلة وهي على مثل هذه المسافة ومن أودية بقرب من البلد كعين سليمان وسواها قد جلب الله اليها من المغاربة ذوى البصارة بالفلاحـة والزراعة فأحـدثوا فيها بساتين ومزارع فكانوا أحد الاسباب فى خصب هـذه الجهات وذلك بفضل الله عز وجل وكريم اعتنائه بحرمه الكريم وبلده الامين ومن أغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله وأجرينا الحديث باستطابته ولا سيما لكوننا لم نعهده الرطب وهـو

عندهم بمنزلة التين الاخضر في شجره يجنى ويؤكل وهو فى نهاية من
الطيب واللذاذة لايسأم التفكه به وبانه عندهم عظيم بخرج الناس اليه
كخروجهم الى الضيعة أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين
والعنب ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه يبسط على الارض قدر مايجف
قليلا ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع ومن صنع
الله الجميل لنا وفضله العميم علينا أنا وصلنا الى هذه البلدة المكرمة
فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين ممن قدم عهده فيها وطال
مقامه بها يتحدث على جهة العجب بأمنها من الحرابة المتلصصين فيها على
الحاج المختلسين ما بأيديهم والذين كانوا آفة الحرم الشريف لا يغفل
أحد عن متاعه طرفة عين الا أختلس من يديه أو من وسطه بحيل
عجيبة ولطافة غريبة فما منهم الا حديد القبص فكفى الله هذا العام
شرهم الا القليل وأظهر أمير البلد التشديد عليهم فتوقف شرهم وبطيب
هوائها فى هذا العام وفتور حرارة قيظها المعهود فيها وانكسار حدة
سمومها وكنا نبيت في سطح الموضع الذى كنا نسكنه فربما يصيبنامن
برد هواء الليل ما نحتاج معه الى دثار يقينا منه وذلك أمر مستغرب بمكة
وكانوا أيضاً يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام ولين سعرها وأنها خارقة
للعوائد السالفة عندهم كان سوم الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمنى وهى
أويبتان من كيل مصر وجهاتها والاويبتان قدحان ونصف قدح من
الكيل المغربى وهذا السعر فى بلد لا ضيعة فيه ولا قوام معيشة لاهله
الا بالميرة المجلوبة اليه سعر لاخفاء بينه وبركته على كثرة المجاورين

فيها في هذا العام والنحلاب الناس اليها وترادفهم عليها فحدثنا غير واحد
من المجاورين الذى لهم بها سنون طائلة انهم لم يروا هذا الجمع بها قط
ولا سمع بمثله فيها والله يجعله جمعاً مرحوماً معصوماً بمنه وما زال
الناس فيها يسلسلون أوصاف أحوالها في هذه السنة وتميزها عما سلف
من السنين حتى لقد زعموا ان ماء زمزم المبارك زاد عذوبة ولم يكن
قبل مصادفها وهذا الماء المبارك في أمره عجب وذلك انك تشربه عند
خروجه من قرارانه فتجده في حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من
الضرع دفيئاً وتلك فيه من الله آية وعناية وبركته أشهر من أن يحتاج
لوصف واصف وهو لما شرب له كما قال صلى الله عليه وسلم أروي الله
منه كل ظامئ اليه بعزته وكرمه ومن الامور المجربة في هذا الماء المبارك
ان الانسان ربما وجد مس الاعياء وفتور الاعضاء امامن كثرة الطواف
أو من عمرة يعتمرها على قدميه أو من غير ذلك من الاسباب المؤدية
الى تعب البدن فيصب من ذلك الماء على بدنه فيجد الراحة والنشاط
لحينه ويذهب عنه ما كان أصابه

﴿ شهر جمادى الآخرة عرفنا الله يمنه وبركته ﴾

استهل هلاله ليلة الاربعاء وهو الحادى والعشرون من شهر
سبتمبر العجمي ونحن بالحرم المقدس زاده الله تعظيما وتشريفاً وفي صبيحة
الليلة المذكورة وافى الامير مكثر بأتباعه وأشياعه على العادة السالفة
المذكورة في الشهر الأول وعلى ذلك الرسم بعينه والزمزمي المفرد

بتنائه والدعاء له فوق قبة زمزم برفع عقيرته بالدعاء والثناء عند كل شوط يطوفه الامير والقراء أمامه الى أن فرغ من طوافه وأخذ في طريق انصرافه ولاهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة عند مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضاً ويتغافرون ويدعوا بعضهم لبعض كفعلهم في الاعياد هكذا دائما وتلك طريقة من الخير واقعة في النفوس تجدد الاخلاص وتستمد الرحمة من الله عز وجل بمصافحة المؤمنين بعضهم بعضاً وبركة ما يتهادونه من الدعاء والجماعة رحمة ودعاؤهم من الله بمكان ولهذه البلدة المباركة (حامان) أحدهما ينسب للفقيه الميانشي أحد الاشياخ المحلقين بالحرم المكرم والثاني وهو الاكبر ينسب لجمال الدين وكان هذا الرجل كصفته جمال الدين له رحمه الله بمكة والمدينة شرفها الله من الآثار الكريمة والصنائع الحميدة والمصانع المبلية في ذات الله المشيدة ما لم يسبقه أحد اليه فيما سلف من الزمان ولا أكابر الخلفاء فضلا عن الوزراء وكان رحمه الله وزير صاحب الموصل تمادى على هذه المقاصد السنية المشتملة على المنافع العامة للمسلمين في حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم أكثر من خمس عشر سنة لم يزل فيها باذلا أموالا لا تحصى في بناء رباع بمكة مسبلة في طرق الخير والبر مؤبدة محبسة واختطاط صهاريج للماء ووضع جباب في الطرق يستقر فيها ماء المطر الى تجديد آثار من البناء فى الحرمين الكريمين وكان من أشرف أفعاله أن جلب الماء الى عرفات وقاطع عليه العرب بني شعبة سكان تلك النواحي المجلوب منها الماء بوظيفة من المال كبيرة على أن لا

يقطعوا الماء عن الحاج فلما توفي الرجل رحمة الله عليه عادوا الى عادتهم الذميمة من قطعه ومن مفاخره ومناقبه أيضاً بعد أن جعل مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم تحت سورين عتيقين أنفق فيهما أموالا لاتحصى كثرة ومن أعجب ماوفقه الله تعالى اليه أنه جدد أبواب الحرم كلها وجدد باب الكعبة المقدسة وغشاه فضة مذهبة وهو الذى فيها الآن حسبما تقدم وصفه وجلل العتبة المباركة بلوح ذهب ابريز وقد تقدم ذكره أيضاً فأخذ الباب القديم وأمر بأن يصنع له منه تابوت يدفن فيه فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع في ذلك التابوت المبارك ويحج به ميتاً فسيق الى عرفات ووقف به على بعد وكشف عن التابوت فلما أفاض الناس أُفيض به وقضيت له المناسك كلها وطيف به طواف الافاضة وكان الرجل رحمه الله لم يحج فى حياته ثم حمل الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وله فيها من الآثار الكريمة ماقدمنا ذكره وكاد أشرافها يحملونه على رؤسهم وبنيت له روضة بإزاء روضة المصطفى صلى الله عليه وسلم وفتح فيها موضع يلاحظ الروضة المقدسة وابيح له ذلك على شدة الضنانة بمثله لسابق أفعاله الكريمة ودفن في تلك الروضة وأسعده الله بالجوار الكريم وخصه بالموارة فى تربة التقديس والتعظيم والله لايضيع أجر المحسنين وسنذكر تاريخ وفاته اذا وقفنا عليه من التاريخ الثابت فى روضته ان شاء الله عز وجل وهو ولى التيسير لارب غيره ولهذا الرجل رحمه الله من الآثار السلية والمفاخر العلية التى لم يسبقه اليها أكابر الاجواد وسراة الامجاد فيما سلف من الزمان ما يفوت الاحصاء ويستغرق الثناء ويستصحب

طول الايام من الالسنة بالدعاء وحسبك انه اتسع اعتناؤه باصلاح عامة
طرق المسلمين بجهة المشرق من العراق الى الشام الى الحجاز حسبما
نذكره واستنبط المياه وبنى الجباب واختط المنازل فى المفازات وأمر
بعمارتها مأوى لابناء السبيل وكافة المسافرين وابتنى بالمدن المتصلة
من العراق الى الشام فنادق عينها لنزول الفقراء أبناء السبيل الذين
يضعف احدهم عن تأدية الاكرية واجرى على قومه تلك الفنادق
والمنازل ما يقوم بمعيشتهم وعين لهم ذلك فى وجوه تأبدت لهم فبقيت
تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها الى الآن فسارت بجميل ذكر هذا
الرجل الرفاق وملئت ثناء عليه الآفاق وكان مدة حياته بالموصل على
ماأخبرنا به غير واحد من ثقات الحجاج التجار ممن شاهد ذلك قد
اتخذ دار كرامة واسعة الفناء فسيحة الارجاء يدعو اليها كل يوم الحفلى
من الغرباء فيعمهم شبعاً ورياً ويرد الصادر والوارد من أبناء السبيل
فى ظله عيشاً هنيئاً لم يزل على ذلك مدة حياته رحمه الله فبقية آثاره
مخلدة وأخباره بألسنة الذكر مجددة وقضى حميداً سعيداً والذكر الجميل
للسعدا حياة باقية ومدة من العمر ثانية والله الكفيل بجزاء المحسنين
الى عباده فهو أكرم الكرماء وأكفل الكفلاء ومن الامور المحظورة
بهذا الحرم الشريف زاده الله تعظيما وتكريماً ان النفقة فيه ممنوعة لا
يجد المتأجر من ذوي اليسار اليها سبيلا فى تجديد بناء أو اقامة حطيم
أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك ولو كان الامر مباحاً في ذلك
لجعل الراغبون فى نفقات البر من أهل الجدة حيطانه عسجداً وترابه

عنبراً لكنهم لا يجدون السبيل الى ذلك فمتى ذهب أحد أرباب الدنيا
الى تجديد أثر من آثاره أو اقامة رسم كريم من رسومه أخذ اذن
الخليفة في ذلك فان كان مما ينقش عليه أو يرسم فيه طرز باسم الخليفة
ونفوذ أمره بعمله ولم يذكر اسم المتولي لذلك ولا بد مع ذلك من
بذل حظ وافر من النفقة لامير البلد ربما يوازى قدر المنفوق فيه فتتضاعف
المؤنة على صاحبه وحينئذ يصل الى غرضه من ذلك ومن أغرب ما اتفق
لاحد دهاة الاعاجم ذوى الملك والثراء انه وصل الى الحرم الكريم
مدة جد هذا الامير مكثر فرأى تنور بئر زمزم وقبتها على صفة لم
يرضها فاجتمع بالامير وقال أريد أن اتأنق في بناء تنور زمزم وطيه
وتجديد قبته وأبالغ فى ذلك الغاية الممكنة وأنفق فيه من صميم مالى ولك
على في ذلك شرط أبلغ بالتزامه لك غرض المقصود وهو أن تجعل ثقة
من قبلك يقيد مبلغ النفقة في ذلك فاذا استوفى البناء التمام وانتهت
النفقة منتهاها وتحصلت محصاة بذلت لك مثلها جزاء على اباحتك لى
ذلك فاهتز الامير طمعاً وعلم ان النفقة فى ذلك تنتهي الى آلاف من
الدنانير على الصفة التى وصفها له فأباح له ذلك والزمه مقيداً يحصى
قليل الانفاق وكثيره وشرع الرجل في بنائه واحتفل واستفرغ الوسع
وتأنق وبذل المجهود فعل من يقصد بفعله ذات الله عز وجل ويقرضه
قرضاً حسناً والمقيد يسود طواميره بالتقييد والامير يتطلع الى مالديه
ويؤمل لقبض تلك النفقات الواسعة بسط يديه الى أن فرغ البناء على
الصفة التى تقدم ذكرها أولا عند ذكر بئر زمزم وقبته فلما لم يبق الا

أن يصبح صاحب النفقة بالحساب ويستقضى منه العدد المجتمع فيها خلا منه المكان وأصبح فى خبر كان وركب الليل جملا وأصبح الامير يقلب كفيه ويضرب أصدريه ولم يمكنه أن يحدث في بناء وضع فى حرم الله تعالى حادثاً يحيله أونقضاً يزيله وفاز الرجل بثوابه وتكفل الله به في انقلابه وتحسين مآبه وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين وبقى خبر هذا الرجل مع الامير يتهادى غرابة وعجباً ويدعو له كل شارب من ذلك الماء المبارك

﴿ شهر رجب الفرد عرفنا الله بركته ﴾

استهل هلاله ليلة الخميس الموفى عشرين لشهر اكتوبر بشهادة خلق كثير من الحجاج المجاورين والاشراف أهل مكة ذكروا انهم رأوه بطريق العمرة ومن جبل قعيقعان وجبل أبي قبيس فثبتت شهادتهم بذلك عند الامير والقاضى وأما من المسجد الحرام فلم يبصره أحد وهذا الشهر المبارك عند أهل مكة موسم من المواسم المعظمة وهو أكبر أعيادهم ولم يزالوا على ذلك قديماً وحديثاً يتوارثه خلف عن سلف متصلا ميراث ذلك الى الجاهلية لانهم كانوا يسمونه منصل الاسنة وهو أحد الاشهر الحرم وكانوا يحرمون القتال فيه وهو شهر الله الاصم كما جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمرة الرجبية عندهم أخت الوقفة العرفية لانهم يحتفلون لها الاحتفال الذى لم يسمع بمثله ويبادر اليها أهل الجهات المتصلة بها فيجتمع لها خلق عظيم لايحصيهم

الا الله عز وجل فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدى ذكره غرابة وعجباً شاهدنا من ذلك أمراً يعجز الوصف عنه والمقصود منه الليلة التي يستهل فيها الهلال مع صبيحتها ويقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار وذلك لانا عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الاربعاء وهي العشية التي ارتقب فيها الهلال قد امتلأت هوادج مشدودة على الابل مكسوة بأنواع كساء الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته فأخذوا في الخروج الى التنعيم ميقات المعتمرين فسالت تلك الهوادج في أباطح مكة وشعابها والابل قد زينت تحتها بأنواع التزيين وأشعرت بغير هدى بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره وربما فاضت الاستار التي على الهوادج حتى تسحب أزيالها على الارض ومن أغرب ما شاهدنا من ذلك هودج الشريفة جمانة بنت فليتة عمة الامير مكثر فان أذيال ستره كانت تسحب على الارض انسحاباً وغيره من هوادج حرم الامير وحرم قواده الى غير ذلك من هوادج لم نستطع تقييد عدتها عجزاً عن الاحصاء فكانت تلوح على ظهور الابل كالقباب المضروبة فيخيل للناظر اليها انها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق ولم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة الا من خرج للعمرة من أهلها ومن المجاورين وكنا في جملة من خرج ابتغاء بركة الليلة العظيمة فكدنا لا نخلص الى مسجد عائشة من الزحام وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج

والنيران قد أشعلت بحافتي الطريق كله والشمع يتقد بين أيدي الابل
التي عليها هوادج من يشار اليه من عقائل نساء مكة فلما قضينا العمرة
وطفنا وجئنا للسعي بين الصفا والمروة وقد مضى هدو من الليل أبصرناه
كله سراجاً ونيراناً وقد غص بالساعين والساعيات على هوادجهن
فكنا لا نتخلص الا بين هوادجهن وبين قوائم الابل لكثرة الزحام
واصطكاك الهوادج بعضها على بعض فعاينا ليلة هي أغرب ليالي الدنيا
فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجباً يحدث به ولا عجباً يذكره مرأى الحشر
يوم القيامة لكثرة الخلائق فيه محرمين ملبين داعين الى الله عز وجل
ضارعين والجبال المكرمة التي بحافتي الطريق تجيبهم بصداها حتى سكت
المسامع وسكبت من هول تلك المعاينة المدامع وذابت القلوب الخواشع
وفي تلك الليلة ملئ المسجد الحرام كله سرجاً فتلألأ نوراً وعند
ثبوت رؤية الهلال عند الامير أمر بضرب الطبول والدبادب والبوقات
اشعاراً بأنها ليلة الموسم فلما كانت صبيحة ليلة الخميس خرج الى العمرة
في احتفال لم يسمع بمثله انحشد له أهل مكة عن بكرة أبيهم فخرجوا
على مراتبهم قبيلة قبيلة وحارة حارة شاكين في الاسلحة فرساناً
ورجالة فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة يتعجب المعاين لهم لوفور
عددهم فلو أنهم من بلاد جمة لكانوا عجباً فكيف وهم من بلد واحد
وهذا أدل الدلائل على بركة البلد فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب
فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالاسلحة عليها والراجلة يتواثبون
ويتثاقفون بالاسلحة في أيديهم حراباً وسيوفاً وحجفاً وهم يظهرون

التطاعن بعضهم لبعض والتضارب بالسيوف والمدافعة بالحجف التى يستجنون بها وأظهروا من الحذق بالثقاف كل أمر مستغرب وكانوا يرمون بالحراب الى الهواء ويبادرون اليها لقفاً بأيديهم وهي قد تصوبت أسنتها على رؤسهم وهم في زحام لا يمكن فيه المجال وربما رمي بعضهم بالسيوف في الهواء فيتلقونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم الى أن خرج الامير يزحف بين قواده وأبنائه امامه وقد قاربوا سن الشباب والرايات تخفق أمامه والطبول والدبادب بين يديه والسكينة تغبض عليه وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين فلما انتهى الى الميقات وقضى غرضه أخذ في الرجوع وقد ترتب العسكران بين يديه على لعبهم ومرحهم والراجلة على الصفة المذكورة من التجاول وقد ركب جملة من أعراب البوادى نجباً صهباً لم ير اجمل منظراً منها وركابها يسابقون الخيل بها بين يدي الامير رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه الى أن وصل المسجد الحرام فطاف بالكعبة والقراء أمامه والمؤذن الزمزمي يغرد في سطح قبة زمزم رافعاً عقيرته بتهنئته بالموسم والثناء عليه والدعاء له على العادة فلما فرغ من الطواف صلى عند الملتزم ثم جاء الي المقام وصلى خلفه وقد أخرج له من الكعبة ووضع في قبته الخشبية التى يصلى خلفها فلما فرغ من صلاته رفعت له القبة عن المقام فاستلمه وتمسح به ثم أعيدت القبة عليه وأخذ في الخروج على باب الصفا الى المسعى واحتفل بين يديه فسعى راكباً والقواد مطيفون به والراجلة الحرابة أمامه فلما فرغ من السعى

استلت السيوف أمامه وأحدقت الاشياع به وتوجه على منزله على هذه
الحالة الهائلة مزحفاً به وبقى المسعي يومه ذلك بموج بالساعين والساعيات
فلما كان اليوم الثاني وهو يوم الجمعة كان طريق العمرة في العمارة
قريباً من أمسه راكبين وماشيين رجالا ونساء والنساء الماشيات المتأجرات
كثيراً يسابقن الرجال في تلك السبيل المباركة تقبل الله من جميعهم
بمنه وفي أثناء ذلك يلاقى الرجال بعضهم بعضاً فيتصافحون ويتهادون
الدعاء والتغافر بينهم والنساء كذلك والكل منهم قد لبس أفخر ثيابه
واحتفل احتفال أهل البلاد للاعياد وأما أهل البلد الامين فهذا الموسم
عيدهم لهم يعتثون بهوله يحتفلون وفي المباهاة فيه يتنافسون وله يعظمون
وفيه تنفق أسواقهم وصنائعهم يقدمون النظر في ذلك والاستعداد له
بأشهر ومن لطيف صنع الله عز وجل لهم فيه اعتناء كريم منه سبحانه
بحرمه الامين ان قبائل اليمن تعرف بالسرو هم أهل جبال حصينة باليمن
تعرف بالسراة وكأنها مضافة لسراة الرجال على ما أخبرني به فقيه من أهل
اليمن يعرف بابن أبي الصيف فاشتق الناس لهم هذا الاسم المذكور من اسم
بلادهم وهم قبائل شتى كبجيلة وسواها يستعدون للوصول الى هذه البلدة
المباركة قبل حلولها بعشرة أيام فيجمعون بين النية فى العمرة وميرة
البلد بضروب من الاطعمة كالحنطة وسائر الحبوب الى اللوبياء الى ما دونها
ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز فتجمع ميرتهم بين الطعام
والادام والفاكهة ويصلون في آلاف من العدد رجالا وجمالا موقرة
بجميع ما ذكر فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين فيه يتقوتون

ويدخرون وترخص الأسعار وتعم المرافق فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم الى ميرة أخرى ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة في شظف من العيش ومن العجب في أمر هؤلاء المائرين انهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم انما يبيعونه بالخرق والعباآت والشمل فأهل مكة يعدون لهم من ذلك مع الاقنعة والملاحف المتان وما أشبه ذلك مما يلبسه الاعراب ويبايعونهم به ويشارونهم ويذكر انهم متى أقاموا عن هذه الميرة ببلادهم تجدب ويقع الموتان في مواشيهم وأنعامهم وبوصولهم بها تخصب بلادهم وتقع البركة في أموالهم فتى قرب الوقت ووقعت منهم بعض غفلة في التأهب للخروج اجتمع نساؤهم فأخرجنهم وكل هذا لطف من الله تعالى لحرمة البلد الامين وبلادهم على ما ذكر لنا خصيبة متسعة كثيرة التين والعنب واسعة المحرث وافرة الغلاة وقد اعتقدوا اعتقاداً صحيحاً ان البركة كلها في هذه الميرة التي يجلبونها فهم من ذلك في تجارة رابحة مع الله عز وجل والقوم عرب صرحاء فصحاء جفاة أصحاء لم تغذهم الرقة الحضرية ولا هذبتهم السير المدنية ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية فهم اذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الام المشفقة لائذين بجوارها متعلقين بأستارها فحيث ما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها وانكبابهم عليها في أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب وتتفجر لها الاعين الجوامد فتصوب فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمنين على أدعيتهم

متلقنين لها من ألسنتهم على انهم طول مقامهم لا يتمكن معهم طواف ولا يوجد سبيل الى استلام الحجر واذا فتح الباب الكريم فهم الداخلون بسلام فتراهم في محاولة دخولهم يتسلسلون كأنهم بعض ببعض مرتبطون يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون وأربعون الى أزيد من ذلك والسلاسل منهم يتبع بعضهم بعضاً وربما انفصمت بواحد منهم يميل عن المطلع المبارك الى البيت الكريم فيقع الكل لوقوعه فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدى الى الضحك (وأما صلاتهم) فلم يذكر في مضحكات الاعراب أظرف منها وذلك انهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقراً ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والاربع ثم يرفعون رؤسهم من الارض قليلا وأيديهم مبسوطة عليها ويلتفتون يميناً وشمالاً التفات المروع ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد وربما تكلموا في أثناء ذلك وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده الى صاحبه وصاح به ووصاه بما شاء ثم عاد الى سجوده الى غير ذلك من أحوالهم الغريبة ولا ملبس لهم سوى أزر وسخة أو جلود يستترون بها وهم مع ذلك أهل بأس ونجدة لهم القسى العربية الكبار كأنها قسى القطانين لا تفارقهم فى أسفارهم فمتى رحلوا الى الزيارة هاب أعراب الطريق المسكون للحاج مقدمهم وتجنبوا اعتراضهم وخلوا لهم عن الطريق ويصحبهم الحجاج الزائرون فيحمدون صحبتهم وعلى ما وصفنا من أحوالهم فهم أهل اعتقاد للايمان صحيح وذكر ان النبي صلى الله عليه

وسلم ذكرهم وأثني عليهم خيراً وقال علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء وكفى بأن دخلوا في عموم قوله صلى الله عليه وسلم الايمان يمان الى غير ذلك من الاحاديث الواردة فى اليمن وأهله وذكر ان عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما كان يحترم وقت طوافهم ويتحري الدخول في جملتهم تبركا بأدعيتهم فشأنهم عجيب كله وشاهدنا منهم صبياً في الحجر قد جلس الي أحد الحجاج يعلمه فاتحة الكتاب، وسورة الاخلاص فكان يقول له قل هو الله أحد فيقول الصبي الله أحد فيعيد عليه المعلم فيقول له ألم تأمرني بأن أقول هو الله أحد قد قلت فكابد في تلقينه مشقة وبعد لأى ما علقت بلسانه وكان يقول له بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين فيقول الصبي بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله فيعيد عليه المعلم ويقول له لا تقل والحمد لله انما قل الحمد لله فيقول الصبي اذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم أقول والحمد لله للاتصال واذا لم أقل بسم الله وبدأت قلت الحمد لله فعجبنا من أمره ومن معرفته طبعاً بصلة الكلام وفصله دون تعلم وأما فصاحتهم فبديعة جداً ودعائهم كثير التخشيع للنفوس والله يصلح أحوالهم وأحوال جميع عباده بمنه والعمرة فى هذا الشهر كله متصلة ليلا ونهاراً رجالا ونساء لكن المجتمع كله انما كان فى الليلة الاولي وهي ليلة الموسم عندهم والبيت الكريم يفتح كل يوم من هذا الشهر المبارك فاذا كان اليوم التاسع والعشرون منه أفرد للنساء خاصة فيظهر للنساء بمكة في ذلك اليوم احتفال عظيم فهو عندهم يوم زينتهم المشهور المستعد له وفى يوم الخميس

الخامس عشر من الشهر المذكور شاهدنا من الاحتفال للعمرة قريباً
من المشهد الاول المذكور في أوله فكان لا يبقى أحد من الرجال
والنساء الاخرج لها وبالجملة فالشهر المبارك كله معمور بأنواع العبادات
من العمرة وسواها ويختص أوله ونصفه من ذلك بحظ متميز وكذلك
السابع والعشرون منه وفي عشي يوم الخميس المذكور كنا جلوساً
بالحجر المكرم فما راعنا الا الامير مكثر طالعاً محرماً قد وصل من
ميقات العمرة تبركاً بذلك اليوم وجرياً فيه على الرسم وأبناءه وراءه
محرمين وقد حف به بعض خاصته وبادر المؤذن الزمزمي للحين الى
سطح قبة زمزم داعياً على عادته ومتأولا في ذلك مع أخيه سفيرة
وحانت صلاة العشاء مع فراغ الامير من طوافه فصلى خلف الامام الشافعي
وخرج الى المسعى المبارك وفي يوم الجمعة السادس عشر منه خرجت
قافلة كبيرة من الحاج نحو أربعمائة جمل مع الشريف الداودى الى
زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي جمادى الثانية قبله كانت أيضاً
زيارة أخرى لبعض الحجاج في قافلة أصغر من هذه المذكورة وبقيت
الزيارة الشوالية والتى مع الحاج العراقى أثر الوقفة ان شاء الله عز وجل
وفي التاسع عشر من شعبان كان انصراف هذه القافلة الكبيرة فى كنف
السلامة والحمد لله وفى ليلة الثلاثاء السابع والعشرين منه أعنى من
رجب ظهر لاهل مكة أيضاً احتفال عظيم فى الخروج الى العمرة لم
يقصر عن الاحتفال الاول فاحتفل الجميع اليها تلك الليلة رجالا ونساء
على الصفات والهيآت المتقدمة الذكر تبركا بفضل هذه الليلة لانها من

الليالي الشهيرة الفضل فكانت مع صبيحتها عجباً في الاحتفال وحسن المنظر جعل الله ذلك كله خالصاً لوجهه الكريم وهذه العمرة يسمونها عمرة الاكمة لانهم يحرمون فيها من أكمة أمام مسجد عائشة رضى الله عنها بمقدار غلوة وهي على مقربة من المسجد المنسوب لعلى رضى الله عنه والاصل في هذه العمرة الاكمية عندهم ان عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيا حافياً معتمراً وأهل مكة معه فانتهى الى تلك الاكمة فأحرم منها وكان ذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب وجعل طريقه على ثنية الحجون المفضية الى المعلى التى كان دخول المسلمين يوم فتح مكة منها حسبما تقدم ذكره فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة في ذلك اليوم بعينه وعلى تلك الاكمة بعينها وكان يوم عبدالله رضى الله عنه مذكوراً مشهوراً لانه أهدى فيه كذا وكذا بدنة عدداً لم نحصل صحته فكنت أثبته لكنه بالجملة كثير ولم يبق من أشراف مكة وذوي الاستطاعة فيها الا من أهدى وأقام أهلها اياماً يَطعمون ويُطعمون ويتنعمون وينعمون شكراً لله عز وجل على ما وهبهم من المعونة والتيسير فى بناء بيته الحرام على الصفة التى كان عليها مدة الخليل ابراهيم صلى الله عليه وسلم فنقضها الحجاج لعنه الله وأعادها على ما كانت عليه مدة قريش لانهم كانوا اقتصروا فى بنائه عن قواعد ابراهيم صلى الله عليه وسلم وأبقى نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ذلك على حاله لحدثان عهدهم بالكفر حسب ما ثبت فى رواية عائشة رضى الله عنها في موطأ

مالك بن أنس رضى الله عنه وفي اليوم التاسع والعشرين منه وهو يوم الخميس افرزا البيت للنساء خاصة فاجتمعن من كل أوب وقد تقدم احتفالهن لذلك بأيام كاحتفالهن للمشاهد الكريمة ولم تبق امرأة بمكة الا حضرت المسجدالحرام ذلك اليوم فلما وصل الشيبيون لفتح (البيت) الكريم على العادة أسرعوا فى الخروج منه وأفرجوا للنساء عنه وأفرج الناس لهن عن الطواف وعن الحجر ولم يبق حول البيت المبارك أحد من الرجال وتبادر النساء الى الصعود حتى كاد الشيبيون لايخلصون بينهن عند هبوطهم من البيت الكريم وتسلسل النساء بعضهن ببعض وتشابكن حتى تواقعن فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهللة وظهر من تزاحمهن ما ظهر من السرو والبجنيين مدة مقامهم بمكة وصعودهم يوم فتح البيت المقدس وأشبهت الحال وتمادين على ذلك صدرا من النهار وانفسحن فى الطواف والحجر وتشفين من تقبيل الحجر واستلام الاركان وكان ذلك اليوم عندهن الاكبر ويومهن الازهر نفعهن الله به وجعله خالصاً لكريم وجهه وبالجملة فهن مع الرجال مسكينات مغبونات يرين البيت الكريم ولا يلجنه ويلحظن الحجر المبارك ولا يستلمنه فحظهن من ذلك كله النظر والاسف المستطير مستشعر فليس لهن سوى الطواف على البعد وهذا اليوم الذى هو من عام الى عام فهن يرتقبنه ارتقاب أشرف الاعياد ويكثرن له من التأهب والاستعداد والله ينفعهن في ذلك بحسن النية والاعتقاد بمنه وكرمه وفي اليوم الثانى منه بكر الشيبيون الى غسله بماء زمزم المبارك

بسبب ان كثيراً من النساء أدخلن أبنائهن الصغار والرضع معهن فيُتحري غسله تكريماً وتنزيهاً وازالة لما يحيك من النفوس من هواجس الظنون في من ليست له ملكة عقلية تمنعه من أن تصدر عنه حادثة نجس فى ذلك الموطن الكريم والمحل المخصوص بالتقديس والتعظيم فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال والنساء يبادرون اليه تبركا بغسل أوجههم وأيديهم فيه وربما جمعوا منه فى أوان قد أعدوها لذلك ولم يراعوا العلة التى غسل لها وكان منهم من توقف عن ذلك وربما لحظ الحال لحظة من لا يستجيزها ولا يصوب العقل في ذلك وما ظنك بماء زمزم المبارك قد صب داخل بيت الله الحرام وماج في جنبات أركانه الكرام ثم انصب بأزاء الملتزم والركن الاسود المستلم أليس جديراً بأن تتلقاه الافواه فضلا عن الايدى وتغمس فيه الوجوه فضلا على الاقدام وحاشا لله أن تعرض فى ذلك علة تمنع منه أو شبهة من شبهات الظنون ترفع عنه والنيات عند الله تعالى مقبولة والمثابرة على تعظيم حرماته لرضاه موصولة وهو المجازى على الضمائر وخفيات السرائر لا اله سواه

﴿ شهر شعبان المكرم عرفنا الله بركته ﴾

استهل هلاله ليلة السبت التاسع عشر لشهر نوفمبر وفى صبيحته بكر الامير مكثر الي الطواف على العادة في ذلك رأس كل شهر مع أخيه وبنيه ومن جرى الرسم باستصحابه من القواد والاشياع والاتباع

وعلى الاسلوب المتقدم الذكر والزمزمي يصرخ في مرقبته على عادته متناوباً مع أخيه صغيره وفي سحر يوم الخميس الثالث عشر منه وهو أول يوم من دجنبر بعد طلوع الفجر كسف القمر وبدأ الكسوف والناس فى صلاة الصبح فى الحرم الشريف وغاب مكسوفاً وانتهى الكسوف الى ثلثه والله يعرفنا حقيقة الاعتبار بآياته وفي يوم الجمعة الثاني من ذلك اليوم أصبح بالحرم أمر عجيب وذلك انه لم يبق بمكة صبي الا وصبحه واجتمعوا كلهم في قبة زمزم وينادون بلسان واحد هللوا وكبروا يا عباد الله فيهلل الناس ويكبرون وربما دخل معهم من عرض العامة من ينادي معهم بندائهم والناس والنساء يزدحمون على قبة البئر المباركة لانهم يزعمون بل يقطعون قطعاً جهلياً لا قطعاً عقلياً ان ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان وكانوا على ظن من هلال الشهر لانه قيل انه رؤى ليلة الجمعة فى جهة اليمن فبكر الناس الى القبة وكان فيها من الازدحام مالم يعهد مثله ومقصد الناس فى ذلك التبرك بذلك الماء المبارك الذي قد ظهر فيضه والسُقاء فوق التنور يستقون ويفيضون على رؤس الناس الماء بالدلاء قذفاً فمنهم من يصيبه في وجهه ومنهم من يصيبه فى رأسه الي غير ذلك وربما تعادى لشدة نفوذه من أيديهم والناس مع ذلك يستزيدون ويبكون والنساء من جهة أخرى يساجلنهم بالبكاء ويطارحنهم بالدعاء والصبيان يضجون بالتهليل والتكبير فكان مرأى هائلا ومسموعاً رائعاً لم يتخلص للطائفين بسببه طواف ولا للمصلين صلاة لعلو تلك الاصوات واشتغال الاسماع والاذهان بها

ودخل الى القبة المذكورة أحدنا ذلك اليوم فكابد من لذ الزحام عنتا
ومشقة فسمع الناس يقولون زاد الماء سبع أذرع فجعل يقصد الى من
يتوسم فيه بعض عقل ولظر من ذوى السبال البيض فيسأله عن ذلك
فيقول وأدمعه تسيل نعم زاد الماء سبع أذرع لا شك في ذلك فيقول
أعن خبرة وحقيقة فيقول نعم ومن العجيب ان كان منهم من قال انه
بكر سحر يوم الجمعة المذكور فألفى الماء قد قارب التنور بنحو القامة
فياعجباً لهذا الاختراع الكاذب نعوذ بالله من الفتنة وكان من الاتفاق
أن اعتنينا بهذا الامر لغلبة الاستفاضة التى سمعناها فى ذلك واستمرارها
مع سوالف الازمنه عند عوام أهل مكة فتوجه منا ليلة الجمعة
من أدلي دلوه في البئر المباركة الى أن ضرب فى صفح الماء وانتهى الحبل
الي حافة التنور وعقد فيه عقداً يصح عندنا القياس به في ذلك فلما
كان في صبيحتها ونادي الناس بالزيادة الزيادة الظاهرة خلص أحدنا
فى ذلك الزحام على صعوبته ومعه من استصحب الدلو وأدلاه فوجد
القياس على حاله لم ينقص ولم يزد بل كان من العجب ان عاد للقياس
ليلة السبت فألفى الماء قد نقص يسيراً لكثرة ماامتاح الناس منه ذلك اليوم
فلو امتيح من البحر لظهر النقص فيه فسبحان من خص ذلك الماء
بما خص به من البركة ووضع فيه من المنفعة وفي صبيحة يوم السبت
الخامس عشر منه تتبعنا هذا القياس استبراء لصحة الحال فوجدناه على
ماكان عليه ولو أن لافظاً يلفظ ذلك اليوم بانه لم يزد لصب في البئر صباً
أو لداسته الاقدام حتى تذيبه نعوذ بالله من غلبات العوام واعتدائها

وركوبها جوامح أهوائها وهذه الليلة المباركة أعني ليلة النصف من
شعبان عند أهل مكة معظمة للأثر الكريم الوارد فيها فهم يبادرون
فيها الي أعمال البر من العمرة والطواف والصلاة أفراداً وجماعة ينقسمون
في ذلك اقساماً مباركة فشاهدنا ليلة السبت التي هي ليلة النصف
حقيقة احتفالاً عظيما فى الحرم المقدس أثر صلاة العتمة جمل الناس
يصلون فيها جماعات جماعات تراويح يقرؤن فيها بفاتحة الكتاب وبقل هو الله
أحد عشر مرات فى كل ركعة الى ان يكملوا خمسين تسليمة بمائة ركعة
قد قدمت كل جماعة اماماً وبسطت الحصر وأوقدت الشمع وأشعلت
المشاعل وأسرجت المصابيح ومصباح السماء الأزهر الاقمر قد أفاض
نوره على الارض وبسط شعاعه فتلاقت الانوار في ذلك الحرم الشريف
الذى هو نور بذاته فيالك مرأى لا يتخيله المتخيل ولا يتوهمه المتوهم
فأقام الناس تلك الليلة على اقسام فطائفة التزمت تلك التراويح مع الجماعة
وكانت سبع جماعات أو ثمانيا وطائفة التزمت الحجر المبارك للصلاة على
انفراد وطائفة خرجت للاعتمار وطائفة آثرت الطواف على هذا كله
أغلبها المالكية فكانت من الليالى الشهيرة المأمولة أن تكون من غرر
القربات ومحاسنها نفع الله بها ولا أخلا من بركتها وفضلها وأوصل الى
هذه المثابة المقدسة كل شيق اليها بمنه وفى تلك الليلة المباركة شاهد احمد
ابن حسان منا امراً عجباً هو من غرائب الاحاديث المأثورات في رقة
النفوس وذلك انه أصابه النوم عند الثلث الباقى من الليل فآوى الى
المصطبة التى تحف بها قبة زمزم مما يقابل الحجر الاسود وباب البيت

فاستلقى فيها ليناد فاذا بإنسان من العجم قد جلس على المصطبة بإزائه مما يلى رأسه فجعل يقرأ بتشويق وترقيق ويتبع ذلك بزفير وشهيق أحسن قراءة وأوقعها فى النفوس وأشدها تحريكا للساكن فامتنع المذكور من المنام استمتاع بحسن ذلك المسموع وما فيه من التشويق والتخشيع الى أن قطع القراءة وجعل يقول

ان كان سوء الفعال أبعدنى فحسن ظنى اليك قربني

ويردد ذلك بلحن يتصدع له الجماد وينشق عليه الفؤاد ومضى فى ترديد ذلك البيت ودموعه تكف وصوته ترق وتضعف الى أن وقع في نفس أحمد بن حسان المذكور انه سيغشي عليه فما كان بين اعتراض هذا الخاطر بنفسه وبين وقوع الرجل مغشياً عليه من المصطبة الى الارض الاكلاولا وبقى ملقاً كانه اتى لا حراك به فقام ابن حسان مذعوراً لهول ماعاينه متردداً فى حياة الرجل أوموته لشدة تلك الوجبة والموضع من الارض بائن الارتفاع وقام أحد من كان بإزائه نائماً وأقاما متحيرين ولم يقدما على تحريك الرجل ولا على الدنو منه الى أن اجتازت امرأة أعجمية وقالت هكذا تتركون الرجل على مثل هذا الحال وبادرت الى شيء من ماء زمزم فنضحت به وجهه ودنا المذكوران منه وأقاماه فعندما أبصرهما زوى وجهه للحين عنهما مخافة أن تثبت له صفة في أعينهما وقام من فوره آخذاً الى جهة باب بنى شيبة وبقيا متعجبين مما شاهداه وعض ابن حسان بنان الاسف على ما فاته من بركة دعائه اذ لم يمكنه الحال استدعائه منه وعلى انه لم تثبت له صورة

في نفسه فكان يتبرك به متى لقيه ومقامات هؤلاء الاعاجم في رقة الانفس وتأثرها وسرعة انفعالها وشدت مجاهداتها في العبادات وطول مثابرتها على أفعال البر وظهور بركاتها مقامات عجيبة شريفة والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وفي سحر يوم الخميس الثالث عشر من الشهر المذكور كسف القمر وانتهى الكسوف منه الى مقدار ثلثين وغاب مكسوفاً عند طلوع الشمس والله يلهمنا الاعتبار بآياته

﴿ شهر رمضان المعظم عرفنا الله بركته ﴾

استهل هلاله ليلة الاثنين التاسع عشر لدجنبر عرفنا الله فضله وحقه ورزقنا القبول فيه وكان صيام أهل مكة له يوم الاحد بدعوى في رؤية الهلال لم تصح لكن أمضى الامير ذلك ووقع الايذان بالصوم بضرب دبادبه ليلة الاحد المذكور لموافقته مذهبه ومذهب شيعته العلويين ومن اليهم لانهم يرون صيام يوم الشك فرضاً حسبما يذكر والله أعلم بذلك ووقع الاحتفال في المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك وُحق ذلك من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعيل وغير ذلك من الآلات حتى تلألأ الحرم نوراً وسطع ضياء وتفرقت الأئمة لاقامة التراويح فرقاً فالشافعية فوق كل فرقة منها قد نصبت إمامها في ناحية من نواحي المسجد والحنبلية كذلك والحنفية كذلك والزيدية وأما المالكية فاجتمعت على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة وهي في هذا العام أحفل جمعاً وأكثر شمعاً لان قوماً من التجار المالكيين تنافسوا في

ذلك فجلبوا لامام الكعبة شمعاً كثيراً من أكبره شمعتان نصبتا أمام
المحراب فيهما قنطار وقد حفت بهما شمع دونهما صغار وكبار فجاءت
جهة المالكية تروق حسناً وترمي الابصار نوراً وكاد لا يبقى في المسجد
زاوية ولا ناحية الا وفيها قارئ يصلي بجماعة خلفه فيرتج المسجد لاصوات
القراءة من كل ناحية فتعاين الابصار وتشاهد الاسماع من ذلك مرأى
ومستمعاً تخلع له النفوس خشية ورقة ومن الغرباء من اقتصر على
الطواف والصلاة في الحجر ولم يحضر التراويح ورأى ان ذلك أفضل
ما يغتنم وأشرف عمل يلتزم وما بكل مكان يوجد الركن الكريم والملتزم
والشافعي في التراويح أكثر الأئمة اجتهاداً وذلك انه يكمل التراويح
المعتادة التي هي عشر تسليمات ويدخل الطواف مع جماعة فاذا فرغ من
الاسبوع وركع عاد لاقامة تراويح أخر وضرب بالفرقعة الخطيبية
المتقدمة الذكر ضربة (يسمعها) المسجد لعلو صوتها كأنها ايذان بالعود
الى الصلاة فاذا فرغوا من تسليمتين عادوا لطواف اسبوع فاذا أكملوا
ضربت الفرقعة وعادوا لصلاة تسليمتين ثم عادوا للطواف هكذا الى
أن يفرغوا من عشر تسليمات فيكمل لهم عشرون ركعة ثم يصلون الشفع
والوتر وينصرفون وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئاً والمتناوبون
لهذه التراويح المقامية خمسة أئمة أولهم امام الفريضة وأوسطهم صاحبنا
الفقيه الزاهد الورع أبو جعفر بن (علي) الفنكي القرطبي وقراءته
ترق الجمادات خشوعاً وهذه الفرقعة المذكورة تستعمل في هذا الشهر
المبارك وذلك انه يضرب بها ثلاث ضربات عند الفراغ من أذان المغرب

ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء الآخرة وهي لا محالة من جملة البدع المحدثة في هذا المسجد المعظم قدسه الله والمؤذن الزمزمي يتولى التسحير في الصومعة التي في الركن الشرقي من المسجد بسبب قربها من دار الامير فيقوم في وقت السحور فيها داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور ومعه اخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه وقد نصبت في أعلى الصومعة خشبة طويلة في رأسها عود كالذراع وفي طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يقدان مدة التسحير فاذا قرب تبين خيطي الفجر ووقع الايذان بالقطع مرة بعد مرة حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة وبدأ بالاذان وثوب المؤذنون من كل ناحية بالاذان وفي ديار مكة كلها سطوح مرتفعة فمن لم يسمع نداء التسحير ممن يبعد مسكنه من المسجد يبصر القنديلين يقدان في أعلى الصومعة فاذا لم يبصرهما علم ان الوقت قد انقطع وفي ليلة الثلاثاء الثاني من الشهر مع العشي طاف الامير مكثر بالبيت مودعاً وخرج للقاء الامير سيف الاسلام (طغتكين) ابن ايوب أخي صلاح الدين وقد تقدم الخبر بوروده من مصر منذمدة ثم تواتر الى أن صح وصوله الى الينبوع وانه خرج الى المدينة لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقدمت أثقاله الى الصفراء والمتحدث به في وجهته قصد اليمن لاختلاف وقع فيها وفتنة حدثت من أمرائها لكن وقع في نفوس المكيين منه إيحاش خيفة واستشعار خشية لخرج هذا الامير المذكور متلقياً ومسلماً وفي الحقيقة مستسلماً والله تعالى يعرف المسلمين خيراً

وفي ضحوة يوم الاربعاء الثالث من الشهر المبارك المذكور كنا جلوساً بالحجر المكرم فسمعنا بادب الامير مكثر وأصوات نساء مكة يولولن عليه فبينا نحن كذلك دخل منصرفاً من لقاء الامير سيف الاسلام المذكور وطائفاً بالبيت المكرم طواف التسليم والناس قد أظهروا الاستبشار لقدومه والسرور بسلامته وقد شاع الخبر بنزول سيف الاسلام الزاهر وضرب أبنيته فيه ومقدمته من العسكر قد وصلت الى الحرم وزاحمت الامير مكثر في الطواف فبينا الناس ينظرون اليهم اذ سمعوا ضوضاء عظيمة وزعقات هائلة فراعهم الامير سيف الاسلام داخلا من باب بني شيبة ولمعان السيوف أمامهم يكاد يحول بين الابصار وبينهم والقاضي عن يمينه وزعيم الشيبيين عن يساره والمسجد قد ارتج وغص بالنظارة والوافدين والاصوات بالدعاء له ولاخيه صلاح الدين قد علت من الناس حتى صكت الاسماع وأذهلت الاذهان والمؤذن الزمزمي في مرقبته رافعاً عقيرته بالدعاء له والثناء عليه وأصوات الناس تعلو على صوته والهول قد عظم مرأى ومستمعاً فلحين دنو الامير من البيت المعظم أغمدت السيوف وتضاءلت النفوس وخلعت ملابس العزة وذلت الاعناق وخضعت الرقاب وطاشت الالباب مهابة وتعظيما لبيت ملك الملوك العزيز الجبار الواحد القهار ، مؤتي الملك من يشاء ونازع الملك ممن يشاء سبحانه جلت قدرته وعز سلطانه ثم تهافتت هذه العصابة الغزية على بيت الله العتيق تهافت الفراش على المصباح وقد نكس أذقانهم الخضوع وبلت سبالهم الدموع وطاف القاضي وزعيم الشيبيين بسيف الاسلام والامير مكثر

قد غمره ذلك الزحام فأسرع في الفراغ من الطواف وبادر الى منزله
وعند ما أكمل سيف الاسلام طوافه صلى خلف المقام ثم دخل قبة
زمزم فشرب من مائها ثم خرج على باب الصفا الى السعى فابتدأه ماشياً
على قدميه تواضعاً وتذللا لمن يجب التواضع له والسيوف مصلوتة
أمامه وقد اصطف الناس من أول المسعى الى آخره سماطين مثل ما
صنعوا أيضاً فى الطواف فسعى على قدميه طريقين من الصفا الى المروة
ومنها الى الصفا وهرول بين الميلين الاخضرين ثم قيده الاعياء فركب
وأكمل السعى راكباً وقد حشر الناس ضحي يعنى وقتاً ثم عاد هذا الامير
الى المسجد الحرام على حالته من الارهاب والهيبة وهو يتهادى بين بروق
خواطف السيوف المصلتة وقد بادر الشيبيون الى باب البيت المكرم
ليفتحوه ولم يكن يوم فتحه وضع الكرسى الذى يصعد عليه فرقي
الامير فيه وتناول زعيم الشيبيين فتح الباب فاذا المفتاح قد سقط من
كمه في ذلك الزحام فوقف وقفة دهش مذعور ووقف الامير على
الادراج فيسر الله للحين في وجود المفتاح ففتح الباب الكريم ودخل
الامير وحده مع الشيبي وأغلق الباب وبقى وجوه الاعزاز وأعيانهم
مزدحمين على ذلك الكرسي فبعد لأي ما فتح لامرائهم المقربين فدخلوا
وتمادى مقام سيف الاسلام في البيت الكريم مدة طويلة ثم خرج
وانفتح الباب للكافة منهم فياله من ازدحام وتراكم وانتظام حتى صاروا
كالعقد المستطيل وقد اتصلوا وتسلسلوا فكان يومهم أشبه شيء بأيام
السرو فى دخولهم البيت حسبما تقدم وصفه وركب الامير سيف الاسلام

وخرج الى مضرب بنيته بالموضع المذكور وكان هذا اليوم بمكة من الايام الهائلة المنظر • العجيبة المشهد • الغريبة الشان • فسبحان من لا ينقضي ملكه • ولا يبيد سلطانه • لا اله سواه وصحب هذا الامير جملة من حجاج مصر وسواها اغتناماً لطريق البر والامن فوصلوا في عافية وسلامة والحمد لله وفي ضحوة يوم الخميس بعده كنا أيضاً بالحجر المكرم فاذا بأصوات طبول ودبادب وبوقات قد قرعت الاذان وارتجت لها نواحي الحرم الشريف فبينا نحن نتطلع لاستعلام خبرها طلع علينا الامير مكثر وغاشيته الاقربون حوله وهو رافل في حلة ذهب كانها الجمر المتقد • يسحب أذيالها وعلى رأسه عمامة شرب رقيق سحابي اللون قد علا كورها على رأسه كانها سحابة مركومة وهي مصفحة بالذهب وتحت الحلة خلعتان من الدبيقي المرسوم البديع الصنعة خلعها عليه الامير سيف الاسلام فوصل بها فرحاً جذلان والطبول والدبادب تشيعه عن امر سيف الاسلام اشارة بتكرمته واعلاماً بأثرة منزلته فطاف بالبيت المكرم شكراً لله على ما وهبه من كرامة هذا الامير بعد أن كان أوجس في نفسه خيفة منه والله يصلحه ويوفقه عنه • وفي يوم الجمعة وصل الامير سيف الاسلام للصلاة أول الوقت وفتح البيت المكرم فدخله مع الامير مكثر وأقام به مدة طويلة ثم خرجا وتزاحم الغز للدخول تزاحماً أبهت الناظرين حتى أزيل الكرسي الذي يصعد عليه فلم يغن عن ذلك شيئاً وأقاموا على الازدحام في الصعود باشالة بعضهم على بعض وداموا على هذه الحالة الى أن وصل الخطيب فخرجوا لاستماع الخطبة

وأغلق الباب وصلى الامير سيف الاسلام مع الامير مكثر فى القبة العباسية فلما انقضت الصلاة خرج على باب الصفا وركب الى مضرب أبنيته وفي يوم الاربعاء العاشر منه خرج الامير المذكور بجنوده الى اليمن والله يعرف أهلها من المسلمين في مقدمه خيراً يمنه وهذا الشهر المبارك قد ذكرنا اجتهاد المجاورين للحرم الشريف في قيامه وصلاة تراويحه وكثرة الأئمة فيه وكل وتر من الليالى العشر الاواخر يختم فيها القرآن فأولها ليلة احدى وعشرين ختم فيها أحد أبناء أهل مكة وحضر الختمة القاضى وجماعة من الاشياخ فلما فرغوا منها قام الصبي فيهم خطيباً ثم استدعاهم أبو الصبي المذكور الي منزله الى طعام وحلو قد أعدهما واحتفل فيهما ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشرين وكان المختتم فيها أحد أبناء المكيين ذوى اليسار غلاماً لم يبلغ سنه الخمس عشرسنة فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالا بديعا وذلك انه أعدله ثريا مصنوعة من الشمع مغصنة قد انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة وأعد اليها شمعا كثيراً ووضع فى وسط الحرم مما يلى باب بني شيبة المحراب المربع من أعواد مشرجبة قد أقيم على قوايم أربع وربطت فى أعلاه عيدان نزلت منها قناديل وأسرجت فى أعلاها مصابيح ومشاعيل وسمر دائر المحراب كله بمسامير حديد الاطراف غرز فيها الشمع فاستدار بالمحراب كله وأوقدت الثريا المغصنة ذات الفواكه وأمعن الاحتفال فى هذا كله ووضع بمقربة من المحراب منبر مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الالوان وحضر الامام الطفل فصلى التراويح وختم وقد انحشد أهل

المسجد الحرام اليه رجال ونساء وهو في محرابه لا يكاد يبصر من كثرة شعاع الشمس المحدق به ثم برز من محرابه رافلا في أفخر ثيابه بهيئته أمامية وسكينة غلامية مكحل العينين مخضوب الكفين الى الزندين فلم يستطع الخلوص الى منبره من كثرة الزحام فأخذه أحد سدنة تلك الناحية في ذراعه حتى ألقاه على ذروة منبره فاستوى مبتسما وأشار على الحاضرين مسلماً وقعد بين يديه قراء فابتدروا القراءة على لسان واحد فلما أكملوا عشراً من القرآن قام الخطيب فصدع بخطبته يحرك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع لا من جهة التذكير والتخشيع وبين يديه في درجات المنبر نفر يمسكون أنوار الشمع في أيديهم ويرفعون أصواتهم بيارب يارب عند كل فصل من فصول الخطبة يكررون ذلك والقراء يبتدرون القراءة في أثناء ذلك فيسكت الخطيب الى أن يفرغوا ثم يعود لخطبته وتمادى فيها متصرفاً في فنون من التذكير وفي أثنائها اعترضه ذكر البيت العتيق كرمه الله فحسر عن ذراعيه مشيراً اليه وأردفه بذكر زمزم والمقام فأشار اليهما بكلتا أصبعيه ثم ختمها بتوديع الشهر المبارك وترديد السلام عليه ثم دعا للخليفة ولكل من جرت العادة بالدعاء له من الامراء ثم نزل وانفض ذلك الجمع المعظم وقد استظرف ذلك الخطيب واستنبل وان لم تبلغ الموعظة من النفوس ما أمل والتذكرة اذا خرجت من اللسان لم تتعد مسافة الآذان ثم ذكر ان للمعينين من ذلك الجمع كالقاضي وسواه خصوا بطعام حفيل وحلوا على عادتهم في مثل هذا المجتمع وكانت لابي الخطيب في تلك

الليلة نفقة واسعة فى جميع ما ذكر ثم كانت ليلة خمس وعشرين فكان المختتم فيها الامام الحنفى وقد أعد ابناً له لذلك سنه نحو من سن الخطيب الاول المذكور فكان احتفال الامام الحنفي لابنه في هذه الليلة عظيما أحضر فيه من ثريات الشمع أربعاً مختلفات الصنعة منها مشجرة مغصنة مثمرة بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة ومنها غير مغصنة فصففت أمام حطيمه وتوّج الحطيم بخشب وألواح وضعت أعلاه وجلل ذلك كله سرج ومشاعيل وشمعا فاستنار الحطيم كله حتى لاح في الهواء كالتاج العظيم من النور وأحضر الشمع في أتوار الصفر ووضع المحراب العودى المشرجب فجلل دائره الاعلى كله شمعاً وأحدق الشمع في الاطوار به فاكتنفته هالات من نور ونصب المنبر قبالته مجللا أيضاً بالكسوة الملونة واحتفال الناس لمشاهدة هذا المنظر النير أعظم من الاحتفال الاول فختم الصبي المذكور ثم برز من محرابه الى منبره يسحب أذيال الخفر في أثواب رائقة المنظر فتسور منبره وأشار بالسلام على الحاضرين وابتدأ خطبته بسكينة ولين ولسان على حالة الحياة مبين فكان الحال على طفولتها كانت أوقر من الاولى وأخشع والموعظة أبلغ والتذكرة أنفع وحضر القراء بين يديه على الرسم الاول وفى أثناء فصول الخطبة يبتدرون القراءة فيسكت خلال اكمالهم الآية التي انتزعوها من القرآن ثم يعود الى خطبته وبين يديه فى درجات المنبر طائفة من الخدمة يمسكون أتوار الشمع بأيديهم ومنهم من يمسك المجمرة يسطع بعرف العود الرطب الموضوع فيها مرة بعد أخرى فعند ما

يصل الى فصل من تذكير أو تخشيع رفعوا أصواتهم بياروب يارب يكررونها ثلاثاً أو أربعاً وربما جاراهم في النطق بعض الحاضرين الى أن فرغ من خطبته ونزل وجرى الامام أثره على الرسم من الاطعام لمن حضر من أعيان المكان اما باستدعائهم الى منزله تلك الليلة أو بتوجيه ذلك الى منازلهم ثم كانت ليلة سبع وعشرين وهي ليلة الجمعة بحساب يوم الاحد فكانت الليلة الغراء والختمة الزهراء والهيبة الموفورة الكملاء والحالة التي تمكن عند الله تعالى في القبول والرجاء وأي حالة توازي شهود ختم القرآن ليلة سبع وعشرين من رمضان خلف المقام الكريم وتجاه البيت العظيم وانها لنعمة تتضاءل لها النعم تضاؤل سائر البقاع للحرم ووقع النظر والاحتفال لهذه الليلة المباركة قبل ذلك بيومين أو ثلاثة وأقيمت أزاء حطيم أمام الشافعية خشب عظام بائنة الارتفاع موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الاعواد الوثيقة فاتصل منها صف كاد يمسك نصف الحرم عرضاً ووصلت بالحطيم المذكور ثم عرضت بينها ألواح طوال مدت على الاذرع المذكورة وعلت طبقة منها طبقة أخرى حتى استكملت ثلاث طبقات فكانت الطبقة العليا فيها خشبة مستطيلة مغروزة كلها مسامير محددة الاطراف لاصقا بعضها ببعض كظهور الشيهم نصب عليها الشمع والطبقتان تحتها ألواح منقوبة ثقباً متصلا وضعت فيها زجاجات المصابيح ذوات الانابيب المنبعثة من أسافلها وتدلت من جوانب هذه الالواح والخشب ومن جميع الاذرع المذكورة قناديل كبار وصغار وتخللها أشباه الاطباق المبسوطة من الصفر قد انتظم كل

طبق منها ثلاث سلاسل تعلقها في الهواء وخرفت كلها ذهباً ووضعت فيها الزجاجات ذوات الانابيب من أسفل تلك الاطباق الصفرية لا يزيد منها أنبوب على أنبوب في القد وأوقدت فيها المصابيح فجاءت كانها موائد ذوات أرجل كثيرة تشتعل نوراً ووصلت بالحطيم الثاني الذي يقابل الركن الجنوبي من قبة زمزم خشب على الصفة المذكورة اتصلت الى الركن المذكور وأوقد المشعل الذي في رأس نخل القبة المذكورة وصففت طرة شباكها شمعاً مما يقابل البيت المكرم وحف المقام الكريم بمحراب من الاعواد المشرجبة المخرمة محفوفة الاعلى بمسامير حديدة الاطراف على الصفة المذكورة جللت كلها شمعاً ونصب عن يمين المقام ويساره شمع كبير الجرم في أنوار تناسبها كبراً وصفت تلك الانوار على الكراسي التي يصرفها السدنة مطالع عند الايقاد وجلل جدار الحجر المكرم كله شمعاً في أنوار من الصفر فجاءت كانها دائرة أنور ساطع وحدقت بالحرم المشاعيل واوقد جميع ما ذكر وأحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة وقد وضعت بيد كل (واحد) منهم كرة من الخرق المشبعة سليطاً فوضعوها متقدة في رؤس الشرفات وأخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الاربع فجعلت كل طائفة تباري صاحبتها في سرعة إيقادها فيخيل للناظر ان النار تثب من شرفة الى شرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المرتمي الابصار وفي أثناء محاولتهم لذلك يرفعون أصواتهم بيارب يارب على لسان واحد فيرتج الحرم لاصواتهم فلما كمل إيقاد الجميع بما ذكر كاد يغشي الابصار

شعاع تلك الانوار فلا تقع لمحة طرف الا على نور تشغل حاسة البصر عن استمالة النظر فيتوهم المتوهم لهول ما يعاينه من ذلك ان تلك الليلة المباركة تزهت لشرفها عن لباس الظلماء فزينت بمصابيح السماء وتقدم القاضى فصلى فريضة العشاء الآخرة ثم قام وابتدأ بسورة القدر وكان أئمة الحرم في الليلة قبلها قد انهوا في القراءة اليها وتعطل في تلك الساعة سائر الأئمة من قراءة التراويح تعظيما لختمة المقام وحضروا متبركين بمشاهدتها وقد كان (المقام) المطهر أخرج من موضعه المستحدث في البيت العتيق حسبما تقدم الذكر أولا له فيما سلف من هذا التقييد ووضع فى محله الكريم المتخذ مصلى مستورا بقبته التي يصلى الناس خلفها فختم القاضى بتسليمتين وقام خطيباً مستقبل المقام والبيت العتيق فلم تمكن سماع الخطبة للازدحام وضوضاء العوام فلما فرغ من خطبته عاد الأئمة لاقامة تراويحهم وانفض الجمع ونفوسهم قد استطارت خشوعاً وأعينهم قد سالت دموعاً والانفس قد أشعرت من فضل تلك (الليلة) المباركة رجاء مبشراً بمن الله تعالى بالقبول ومشعراً انها ولعلها ليلة القدر المشرف ذكرها في التنزيل والله عزوجل لا يخلى الجميع من بركة مشاهدتها وفضل معاينتها انه كريم منان لا اله سواه ثم ترتبت قراءة أئمة المقام الخمسة المذكورين أولا بعد هذه الليلة المذكورة بآيات ينتزعونها من القرآن على اختلاف السور تتضمن التذكير والتحذير والتبشير بحسب اختيار كل واحد منهم ورسم طوافهم أثر كل تسليمتين باق على حاله والله ولى القبول من الجميع ثم

كانت ليلة تسع وعشرين منه فكان المختتم فيها سائر أئمة التراويح ملتزمين رسم الخطبة أثر الختمة والمشار اليه منهم المالكي فتقدم بأعداد أعواد بازاء محرابه نصبا ستة على هيئة دائرة محراب مرتفعة عن الارض بدون القامة يعترض على كل اثنين منها عود مبسوط فأدير بالشمع أعلاها وأحدق أسفلها ببقايا شمع كثير قد تقدم ذكره عند ذكر أول الشهر المبارك وأحدق أيضاً داخل تلك الدائرة شمع آخر متوسط فكان منظراً مختصراً ومشهداً عن احتفال المباهاة منزها موقراً رغبة في احتفال الاجر والثواب ومناسبة لموضع هيئة المحراب نصبت للشمع فيه عوضاً من الانوار أثافي من الاحجار فجاءت الحال غريبة في الاختصار خارجة عن محفل التعاظم والاستكبار داخلة مدخل التواضع والاستصغار واحتفل جميع المالكية للختمة فتناوبها أئمة التراويح فقضوا صلاتهم سراعاً عجالا كاد يلتقي طرفاها خفوفاً واستعجالا ثم تقدم أحدهم فقعد حبونه بين تلك الاثافي وصدع بخطبة منتزعة من خطبة الصبي ابن الامام الحنفي فأرسلها معادة الى الاسماع ثقيلا لحنها على الطباع ثم انفض الجمع وقد جد في شؤنه الدمع واختطف للحين من أثافي ذلك الشمع أطلقت عليه أيدي الانتهاب ولم يكن في الجماعة من يستحي منه أو يهاب وعند الله تعالى في ذلك الجزاء والثواب انه سبحانه الكريم الوهاب وانتهت ليالي الشهر ذاهبة عنا بسلام جعلنا الله ممن طهر فيها من الآثام ولا أخلانا من فضل القبول بيركة صومه في جوار الكعبة البيت الحرام وختم الله لنا ولجميع أهل الملة الحنيفية بالوفاة على الاسلام

وأوزعنا حمداً بحق هذه النعمة وشكراً وجعلها للمعاد لنا ذخراً ووقانا
عليها ثواباً من لديه وأجراً يرجي بفضله وكرمه انه لا يضيع لديه أيام
اتخذ لصيامها ماء زمزم فطراً انه الحنان المنان لا رب سواه

﴿ شهر شوال المبارك عرفنا الله بركته ﴾

استهل هلاله ليلة الثلاثاء السادس عشر من يناير يمن الله مطلعه
ورزقنا الله بركته وهذا الشهر المبارك هو فاتحة أشهر الحج المعلومات
وبعده تتصل ثلاث الاشهر الحرم المباركات وكانت ليلة استهلال هلاله
من الليالى الحفيلة في المسجد الحرام زاده الله تكريماً جرى الرسم في
ايقاد مشاعله وثرياته وشمعه على الرسم المذكور ليلة سبع وعشرين
من رمضان المعظم وأوقدت الصوامع من الاربع جهات من الحرم
وأوقد سطح المسجد الذي في أعلى جبل أبي قبيس وأقام المؤذن ليلته
تلك في أعلى سطح قبة زمزم مهللا ومكبراً ومسبحاً وحامداً
وأكثر الائمة تلك الليلة احياء وأكثر الناس على مثل تلك الحال بين
طواف وصلاة وتهليل وتكبير تقبل الله من جميعهم انه سميع الدعاء
كفيل بالرجاء سبحانه لا اله سواه فلما كان صبيحتها وقضى الناس صلاة
الفجر لبس الناس أثواب عيدهم وبادروا لاخذ مصافهم لصلاة العيد
بالمسجد الحرام لان السنة جرت بالصلاة فيه دون مصلى يخرج الناس
اليه رغبة في شرف البقعة وفضل بركتها وفضل صلاة الامام خلف
المقام ومن يأتم به فأول من بكر الشيبيون وفتحوا باب الكعبة المقدسة

وأقام زعيمهم جالساً فى العتبة المقدسة وسائر الشيبيين داخل الكعبة الى أن أحسوا بوصول الامير مكثر فنزلوا اليه وتلقوه بمقربة من باب النبي صلى الله عليه وسلم فانتهى الى البيت المكرم وطاف حوله اسبوعاً والناس قد احتفلوا لعيدهم والحرم قد غص بهم والمؤذن الزمزمي فوق سطح القبة على العادة رافعاً صوته بالثناء عليه والدعاء له متناوباً في ذلك مع أخيه فلما اكمل الامير الاسبوع عمد الى مصطبة قبة زمزم مما يقابل الركن الاسود فقعد بها وبنوه عن يمينه ويساره ووزيره وحاشيته وقوف على رأسه وعاد الشيبيون لمكانهم من البيت المكرم يلحظهم الناس بأبصار خاشعة للبيت غابطة لمحلهم منه ومكانهم من حجابته وسدانته فسبحان من خصهم بالشرف فى خدمته وحضر الامير من خاصته شعراء أربعة فانشدوه واحداً أثر واحد الي أن فرغوا من انشادهم وفى أثناء ذلك تمكن وقت الصلاة وكان ضحي من النهار فأقبل القاضى الخطيب يتهادى بين رايتيه السوداوين والفرقعة المتقدم ذكرها أمامه وقد صك الحرم صوتها وهو لابس ثياب سواده فجاء الى المقام الكريم وقام الناس للصلاة فلما قضوها رقى المنبر وقد ألصق الى موضعه المعين له كل جمعة من جدار الكعبة المكرمة حيث الباب الكريم شارعاً فخطب خطبة بليغة والمؤذنون قعود دونه فى أدراج المنبر فعند افتتاحه فصول الخطبة بالتكبير يكبرون بتكبيره الي أن فرغ من خطبته وأقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة والتسليم والتغافر والدعاء مسرورين جذلين فرحين بما أتاهم الله من فضله وبادروا الى البيت الكريم فدخلوا بسلام آمنين

مزدحمين عليه فوجاً فوجاً فكان مشهداً عظيماً وجمعا بفضل الله تعالى مرحوماً جعله الله ذخيرة للمعاد كما جعل ذلك العيد الشريف فى العمر أفضل الاعياد بمنه وكرمه انه ولى ذلك والقادر عليه وأخذ الناس عند انتشارهم من مصلاهم وقضاء سنة السلام بعضهم على بعض فى زيارة الجبانة بالمعلى تبركاً باحتساب الخطا اليها والدعاء بالرحمة لمن فيها من عباد الله الصالحين من الصدر الاول وسواه رضي الله عن جميعهم وحشرنا في زمرتهم ونفعنا بمحبتهم فالمرء كما قال صلى الله عليه وسلم مع من أحب وفى يوم السبت التاسع عشر منه والثالث لفبراير صعدنا الى مني لمشاهدة المناسك المعظمة بها ولمعاينة منزل أكترى لنا فيها اعداداً للمقام بها أيام التشريق ان شاء الله فالفيناها تملأ النفوس بهجة وانشراحاً مدينة عظيمة الآثار واسعة الاختطاط عتيقة الوضع قد درست الا منازل يسيرة متخذة للنزول تحف بجانبي طريق كان ميدان انبساطاً وانفساحاً ممتد الطول فأول ما يلقى المتوجه اليها عن يساره وبمقربة منها (مسجد البيعة) المباركة التى كانت أول بيعة في الاسلام عقدها العباس رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم على الانصار حسب المشهور من ذلك ثم يفضي منه الى (جمرة العقبة) وهي أول منى للمتوجه من مكة وعن يسار المار اليها وهي على قارعة الطريق مرتفعة للمتراكم فيها من حصي الجمرات ولولا آيات الله البينات فيها لكانت كالجبال الرواسى لما يجتمع فيها على تعاقب الدهور وتوالى الازمنة لكن لله عز وجل فيها سر كريم من أسراره الخفيات لا اله سواه

وعليها مسجد مبارك وبها علم منصوب شبه أعلام الحرم التي ذكرناها فيجعلها الرامي عن يمينه مستقبلا مكة شرفها الله ويرمي بها سبع حصيات وذلك يوم النحر أثر طلوع الشمس ثم ينحر أو يذبح ويحلق والحلاق حولها والمنحر في كل موضع من منى لان منى كلها منحر كما قال صلى الله عليه وسلم وقد حل له كل شيء الا النساء والطيب حتى يطوف طواف الافاضة وبعد هذه الجمرة العقبية موضع (الجمرة الوسطي) ولها أيضاً علم منصوب وبينهما قدر الغلوة ثم بعدها يلتي (الجمرة الاولى) ومسافتها منها كمسافة الاخرى وفي وقت الزوال من ثانى يوم النحر ترمى فى الاولى سبع حصيات وفى الوسطي كذلك وفي العقبة كذلك احدي وعشرون حصاة وفى الثالث من يوم النحر فى الوقت بعينه كذلك على الترتيب المذكور فتلك اثنتان وأربعون حصاة في اليومين وسبع رميت في العقبة يوم النحر وقت طلوع الشمس كما ذكرناه وهي المحللات للحاج ما حرم عليه سوى النساء والطيب فتلك تكملة تسع وأربعين جمرة وفى أثر ذلك ينفصل الحاج الى مكة من ذلك اليوم واختصر فى هذا الزمان احدي وعشرون كانت ترمي في اليوم الرابع على الترتيب المذكور وذلك لاستعجال الحاج خوفاً من العرب الشعبين الى غير ذلك من محذورات الفتن المغيرات لآثار السنن فمضى العمل اليوم على تسع وأربعين حصاة وكانت في القديم سبعين والله يهب القبول لعباده والصادر من عرفات الى منى أول ما يلقي الجمرة الاولي ثم الوسطي ثم جمرة العقبة وفى يوم النحر تكون جمرة العقبة أولي

منفردة بسبع حصيات حسبما تقدم ذكره ولا يشترك معها سواها في
ذلك اليوم ثم في اليومين بعده ترجع الآخرة على الترتيب حسبما
وصفناه بحول الله عز وجل وبعد الجمرة الاولى يعرج عن الطريق
يسيراً ويأتي منحر الذبيح صلى الله عليه وسلم حيث فدى بالذبح العظيم
وعلى الموضع المبارك مسجد مبنى وهو بمقربة من سفح ثبير وفي موضع
المنحر المذكور حجر قد ألصق بالجدار المبنى فيه أثر قدم صغيرة يقال
انه أثر قدم الذبيح صلى الله عليه وسلم عند تحركه فلان الحجر له
بقدرة الله عز وجل اشفاقاً وحناناً فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويفضى
من ذلك الى مسجد الخيف المبارك وهو آخر منى في توجهك أعنى
من المعمور منها بالبايان وأما الآثار القديمة فآخذة الى أبعد غاية أمام
المسجد وهذا المسجد المبارك متسع الساحة كأكبر مايكون من الجوامع
والصومعة وسط رحبة المسجد وله فى القبلة أربعة بلاطات يشملها
سقف واحد وهو من المساجد الشهيرة بركة وشرف بقعة وكفى بما
ورد فى الأثر الكريم من ان بقعته الطاهرة مدفن كثير من الانبياء
صلوات الله عليهم وبمقربة منه عن يمين المار فى الطريق حجر كبير مسند
الى صفح الجبل مرتفع عن الارض يظل ما تحته ذكر أن النبي صلى
الله عليه وسلم قعد تحته مستظلا ومس رأسه المكرم فيه فلان له حتى
أثر فيه تأثيراً بقدر دور الرأس فيبادر الناس لوضع رؤوسهم في ذلك
الموضع تبركا واستجارة لها بموضع مسه الرأس المكرم أن لا تمسها النار
بقدرة الله عز وجل فلما قضينا معاينة هذه المشاهد الكريمة أخذنا في

الانصراف مستبشرين بما وهبنا الله من فضله فى مباشرتها ووصلنا الى مكة قريب الظهر والحمد لله على ما من به وفى يوم الاحد بعده وهو الموفي عشرين لشوال صعدنا الى الجبل المقدس حراء وتبركنا بمشاهدة الغار في أعلاه الذى كان النبى صلي الله عليه وسلم يتعبد فيه وهو أول موضع نزل فيه الوحى عليه صلى الله صلى عليه وسلم ورزقنا شفاعته وحشرنا فى زمرته وأماتنا على سنته ومحبته بمنه وكرمه لا رب سواه وفى ضحوة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين منه وهو أول السادس من فبراير اجتمع الناس كافة للاستسقاء تجاه الكعبة المعظمة بعد أن ندبهم القاضى الى ذلك وحرضهم على صيام ثلاثة أيام قبله فاجتمعوا فى هذا اليوم الرابع المذكور وقد أخلصوا النيات لله عز وجل وبكر الشيبيون ففتحوا الباب المكرم من البيت العتيق ثم أقبل القاضى بين رايتيه السوداوين لابساً ثياب البيض وأخرج مقام الخليل ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا ووضع على عتبة باب البيت المكرم وأخرج مصحف عثمان رضى الله عنه من خزانته ونشر بأزاء المقام المطهر فكانت دفته الواحدة عليه والثانية علي الباب الكريم ثم نودى في الناس بالصلاة جامعة فصلى القاضي بهم خلف موضع المقام المتخذ مصلى ركعتين قرأ فى احداهما بسبح اسم ربك الاعلى وفي الثانية بالغاشية ثم صعد المنبر وقد ألصق الى موضعه المعهود من جدار الكعبة المقدسة فخطب خطبة بليغة وآلى فيها الاستغفار ووعظ الناس وذكرهم وخشعهم وحضهم على التوبة والانابة لله عز وجل حتى نزفت دمعها العيون واستنفدت ماءها الشؤن وعلا

المنجج وارتفع الشهيق والنشيج وحول رداءه وحول الناس أرديتهم
اتباعاً للسنة ثم انفض الجميع راجين رحمة الله عز وجل غير قانطين
منها والله يتلافى عباده بلطفه وكرمه وتمادى استسقاؤه بالناس ثلاثة
أيام متوالية على الصفة المذكورة وقد نال الجهد من أهل الحجاز وأضر
بهم القحط وأهلك مواشيهم الجدب لم يمطروا فى الربيع ولا الخريف
ولا الشتاء الا مطر الطلا غير كاف ولا شاف والله عز وجل لطيف
بعباده غير مؤاخذهم بجرائمهم انه الحنان المنان لا رب سواه وفي يوم
الخميس الرابع والعشرين من شوال صعدنا الى جبل أبي ثور لمعاينة
الغار المبارك الذى أوي اليه النبي صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الصديق
رضى الله عنه حسبما جاء في محكم التنزيل العزيز وقد تقدم ذكر هذا
الغار وصفته أولا فى هذا التقييد وولجناه من الموضع الذى يعسر
الولوج منه على البعض من الناس تبركا بمس بشرة البدن موضع مسه
الجسم المبارك قدسه الله لان مدخل النبي صلى الله عليه وسلم كان منه
وكان لاحد الصاعدين اليه ذلك اليوم من المصريين موقف خجلة
وفضيحة وذلك انه رام الولوج فيه على ذلك الموضع الضيق فلم يقدر
بحيلة وعاود ذلك مراراً فلم يستطع حتى استوقف الناس ما عاينوه من
ذلك وبكوا له اشفاقاً ولجؤا الى الله عز وجل فى الدعاء فلم يغن ذلك
شيئاً وكان فيهم من هو أضخم منه فيسر الله عليه وطال تعجب الناس
منه واعتبارهم وأعلمنا بعد انفصالنا فى ذلك اليوم بأن هذا الموقف المخجل
لثلاثة أناس في ذلك اليوم بعينه عصمنا الله من مواقف الفضيحة في

الدنيا والآخرة وهذا الجبل صعب المرتقى جداً يقطع الأنفاس تقطيعاً
لا يكاد يبلغ منتهاه الا وقد ألقى بالايدى اعياء وكلالا وهو من مكة على
مقدار ثلاثة أميال وعلى ذلك القدر هو جبل حراء منها والله تعالى
لا يخلينا من بركة هذه المشاهد بمنه وكرمه وطول الغار ثمانية عشر
شبراً وسعته احد عشر شبراً في الوسط منه وفي حافتيه ثلثا شبر وعلى
الوسط منه يكون الدخول وسعة الباب الثاني المتسع مدخله خمسة أشبار
أيضاً لان له بابين حسبما ذكرناه أولا وفي يوم الجمعة بعده وصل السرو
اليمنيون في عدد كثير مؤملين زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم
وجلبوا ميرة الى مكة على عادتهم فاستبشر الناس بقدومهم استبشاراً كثيراً
حتى انهم أقاموه عوض نزول المطر ولطائف الله لسكان حرمه الشريف
واسعة انه سبحانه لطيف بعباده لا اله سواه

﴿ شهر ذى القعدة عرفنا الله يمنه وبركته ﴾

استهل هلاله ليلة الاربعاء بموافقة الرابع عشر من شهر فبراير
بشهادة ثبتت عند القاضى في رؤيته وأما الاكثر الاغلب من أهل المسجد
الحرام فلم يبصروا شيئاً وطال ارتقابهم الى أثر صلاة المغرب وكان منهم
من يخيله فيشير اليه فاذا حققه تلاشى عنده نظره وكذب خبره والله
أعلم بصحة ذلك وهذا الشهر المبارك ثاني الاشهر الحرم وثاني أشهر الحج
اطلع الله هلاله على المسلمين بالأمن والايمان والمغفرة والرضوان بعزته
ورحمته وفى يوم الاثنين الثالث عشر منه دخلنا مولد النبي صلى الله عليه

وسلم وهو مسجد حفيل البنيان وكان داراً لعبدالله بن عبد المطلب
أبي النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم ذكره ومولده صلى الله عليه
وسلم صفة صهريج صغير سعته ثلاثة أشبار وفي وسطه رخامة خضراء
سعتها ثلثا شبر مطوقة بالفضة فتكون سعتها مع الفضة المتصلة بها شبراً
ومسحنا الخدود في ذلك الموضع المقدس الذى هو مسقط لأكرم مولود
على الارض ومس لاطهر سلالة وأشرفها صلى الله عليه وسلم ونفعنا
ببركة مشاهدة مولده الكريم وبأزائه محراب حفيل القرنصة مرسومة
طرته بالذهب وقد تقدم الوصف لهذا كله وهذا الموضع المبارك هو
شرقي الكعبة متصل بصفح الجبل ويشرف عليه بمقربة منه جبل أبي
قبيس وعلى مقربة منه أيضاً مسجد عليه مكتوب هذا المسجد هو
مولد علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وفيه ربي رسول الله صلى
الله عليه وسلم وكان داراً لأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وكافله
ودخلت أيضاً في اليوم المذكور دار خديجة الكبرى رضوان الله عليها
وفيها قبة الوحي وفيها أيضاً مولد فاطمة رضى الله عنها وهو بيت صغير
مائل للطول والمولد شبه صهريج صغير وفي وسطه حجر أسود وفي
البيت المذكور مولد الحسن والحسين ابنيها رضى الله عنهما لاصق
بالجدار ومسقط شلو الحسن لاصق بمسقط شلو الحسين وعليهما حجران
مائلان الى السواد كأنهما علامتان للمولدين المباركين الكريمين ومسحنا
الخدود في هذه المساقط المكرمة المخصوصة بمس بشرات المواليد
الكرام رضوان الله عليهم وفي الدار المكرمة أيضاً مختبأ النبي صلى الله

عليه وسلم شبيه القبة وفيه مقعد فى الارض عميق شبيه الحفرة داخل
فى الجدار قليلا وقد خرج عليه من الجدار حجر مبسوط كأنه يظل
المقعد المذكور قيل انه كان الحجر الذى كان غطي النبي صلى الله عليه
وسلم عند اختبائه فى الموضع المذكور صلوات الله عليه وعلى أهل بيته
الطاهرين وعلى كل واحد من هذه المواليد المذكورة قبة خشب صغيرة
تصون الموضع غير ثابتة فيه اذا جاء المبصر لها نحاها ولمس الموضع
الكريم وتبرك به ثم أعادها عليه وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من
الشهر المذكور نفذ أمر الامير مكثر بالقبض على زعيم الشيبيين محمد
ابن اسماعيل وانتهاب منزله وصرفه عن حجابة البيت الحرام طهره الله
وذلك لهنات نسبت اليه لاتليق بمن نيطت به سدانة البيت العتيق (ومن
يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) أعاذنا الله من سوء القضاء
ونفوذ سهام الدعاء بمنه وفي هذه الايام السالفة من الشهر المذكور توالى
مجيء السرو اليمنيين فى رفاق كثيرة بالميرة من الطعام وسواه وضروب
الادام والفواكه اليابسة فأرغدوا البلد ولولاهم لكان من
اتصال الجدب وغلاء السعر فى جهد ومشقة فهم رحمة لهذا البلد الامين
ثم توجهوا الى الزيارة المباركة الى التربة المباركة طيبة مدفن رسول
الله صلى الله عليه وسلم ووصلوا فى أسرع مدة قطعوا الطريق من
مكة الى المدينة في يسير أيام ومن صحبهم من الحاج حمد صحبتهم وفي أثناء
مغيبهم وصلت طوائف أخرتهم للحج خاصة لضيق الوقت عن الزيارة
فأقاموا بمكة ووصل الزوار منهم فضاق بهم المتسع فلما كان يوم الاثنين

السابع والعشرين من الشهر المذكور فتح البيت العتيق وتولى فتحه من الشيبيين ابن عم الشيبي المعزول هو أمثل طريقة منه على ما يذكر فازدحم السرو للدخول على العادة فجاؤا بأمر لم يعهد فيما سلف يصعدون أفواجاً حتى يغص الباب الكريم بهم فلا يستطيعون تقدماً ولا تأخراً الى أن يلجوا على أعظم مشقة ثم يسرعون الخروج فيضيق الباب الكريم بهم فينحدر الفوج منهم على المصعد وفوج آخر صاعده فيلتقيه وقد ارتبط بعضهم الى بعض فربما حمل المنحدرون في صدور الصاعدين وربما وقف الصاعدون للمنحدرين وتضاغطوا الى أن يميلوا فيقع البعض على البعض فيعاين النظارة منهم مرأى هائلا فمنهم سليم وغير سليم وأكثرهم انما يحدرون وثباً على الروس والاعناق ومن أعجب ما شاهدناه في يوم الاثنين المذكور أن صعد بعض من الشيبيين أثناء ذلك الزحام يرومون الدخول الى البيت الكريم فلم يقدروا على التخلص فتعلقوا بأستار حافتي عضادتي الباب ثم ان أحدهم تمسك باحدى الشرائط القنبية الممسكة للاستار الى أن علا الرؤوس والاعناق فوطئها ودخل البيت فلم يجد موطئاً لقدمه سواها لشدة تراصهم وتركمهم وانضمام بعضهم الى بعض وهذا الجمع الذى وصل منهم في هذا العام لم يعهد قط مثله فيما سلف من الاعوام ولله القدرة المعجزة لا اله سواه وفي هذا اليوم المذكور الذي هو السابع والعشرون من ذى القعدة شمرت أستار الكعبة المقدسة الى نحو قامة ونصف عن الجدار من الجوانب الاربعة ويسمون ذلك احرامها فيقولون أحرمت الكعبة وبهذا جرت العادة دائما

في الوقت المذكور من الشهر ولا تفتح من حين احرامها الا بعد الوقفة فكان ذلك التشمير إيذانا بالتشمير للسفر وإيذانا بقرب وقت وداعها المنتظر لا جعله الله آخر وداع وقضى لنا اليها بالعودة وتيسير سبيل الاستطاعة بعزته وقدرته وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين قبل هذا اليوم المذكور كان دخولنا الى البيت الكريم على حال اختلاس وانتهاز فرصة أوجدت بعض فرجة من الزحام فدخلناه دخول وداع اذ لا يتمكن دخوله بعد ذلك ازادف الناس عليه ولا سيما الاعاجم لواصلون مع الامير العراقي فانهم يظهرون من التهافت عليه والبدار اليه والازدحام فيه ما ينسى أحوال السرو اليمنيين لفظاظتهم وغلظتهم فلا يتمكن لأحد منهم النظر فضلا عن غير ذلك والله عز وجل لا يجعله آخر العهد ببيته الكريم ويرزقنا العود اليه على خير وعافية بمنه ولطيف صنعه وفي يوم احرام الكعبة المذكور أقلعت عن موضع المقام المقدس القبة الخشبية التي كانت عليه ووضعت عوضها قبة الحديد اعداداً للاعاجم المذكورين لأنها لو لم تكن حديدا لاكلوها أكلا فضلا عن غير ذلك لما هم عليه من صحة النفوس شوقاً الى هذه المشاهد المقدسة وتطارحهم بأجرامهم عليها والله ينفعهم بنياتهم بمنه وكرمه وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور جاء زعيم الشيبيين المعزول يتهادى بين بنيه زهواً واعجاباً ومفتاح الكعبة المقدسة بيده قد أعيد اليه ففتح الباب الكريم وصعد مع بنيه السطح المبارك الاعلى بأمراس من القنب غليظة يوثقونها في أوتاد الحديد المضروبة في السطح ويرسلونها

الى الارض فربط فيها شبيه محمل من العود ويجلس فيه أحد سدنة البيت من الشيبيين فيصعد به على بكرة معدة لذلك فى أعلى السطح المذكور فيتولى خياطة ما مزقته الريح من الاستار فسألنا عن كيفية صرف هـذا الشيبى المعزول الى خطته على محة الهنات المنسوبة اليه فأعلمنا انه صودر عليها بخمسمائة دينار مكية استقرضها ودفعها فطال التعجب من ذلك والاعتبار وتحققنا ان اظهار القبض عليه لم يكن غيرة ولا أنفة على حرمات الله المنتهكة على يديه مع كونها في خطة دونها الخلافة رفعة والحال تشبه بعضها بعضاً (وان الظالمين بعضهم أولياء بعض) والى الله المشتكي من فساد ظهر حتى في أشرف بقاع الارض وهـو حسبنا ونعم الوكيل وفي يوم الاربعاء التاسع والعشرين من ذى القعدة المذكور دخلنا دار الخيزران التى كان منها منشأ الاسلام وهي بأزاء الصفا ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل اليها كان مسكن بلال رضي الله عنه ويدخل اليها على حلق كبير شبيه الفندق قد احدقت به بيوت للكراء من الحاج والدار المكرمة دار صغيرة يجدها الداخل الى الحلق المذكور عن يساره وهي مجددة البناء أنفق في بنائها جمال الدين المذكور أثره الكريم فى هذا المكتوب نحو الالف دينار نفعه الله بما أسلفه من العمل الصالح وعن يمين الداخل الدار المباركة باب يدخل منه الى قبة كبيرة بديعة البناء فيها مقعد النبى صلى الله عليه وسلم والصخرة التي كان اليها مستنده وعن يمينه موضع أبى بكر الصديق وعن يمين أبى بكر موضع على بن أبي طالب رضي الله عنهما والصخرة التى كان اليها

مستنده هي داخلة في الجدار كشبه المحراب وفي هذا الدار كان اسلام عمر بن الخطاب ومنها ظهر الاسلام على يديه وأعزه الله به نفعنا الله ببركة هذه المشاهد المكرمة والآثار المعظمة وأماتنا على محبة الذين شرفت بهم ولسبت اليهم صلوات الله عليهم أجمعين

﴿ شهر ذي الحجة عرفنا الله بركته ﴾

استهل هلاله ليلة الخميس بموافقة الخامس عشر من مارس وكان للناس في ارتقابه أمر عجيب • وشأن من البهتان غريب • ونطق من الزور كاد يعارضه من الجماد فضلا عن غيره رد وتكذيب • وذلك انهم ارتقبوه ليلة الخميس الموفى ثلاثين والافق قد تكاثف نوؤه وتراكم غيمه الى أن حلته مع المغيب بعض حمرة من الشفق فطمع الناس في فرجة من الغيم لعل الابصار تلتقطه فيها فبيناهم كذلك ان كبر أحدهم فكبر الجم الغفير لتكبيره ومثلوا قياماً ينتظرون مالا يبصرون ويشيرون الى ما يتخيلون حرصاً منهم على أن تكون الوقفة بعرفات يوم الجمعة كأنّ الحج لا يرتبط الا بهذا اليوم بعينه فاختلقوا شهادات زورية ومشت منهم طائفة من المغاربة أصلح الله أحوالهم ومن أهل مصر وأربابها فشهدوا عند القاضي برؤيته فردهم أقبح رد وجرح شهاداتهم أسوأ تجريح وفضحهم في تزييف أقوالهم أخزي فضيحة وقال ياللعجب لو أن أحدهم يشهد برؤيته الشمس تحت ذلك الغيم الكثيف اللدج لما قبلته فكيف برؤية هلال هو ابن تسع وعشرين ليلة وكان أيضاً مما

حكي من قوله تشوشت المغارب تعرضت شعرة من الحاجب فأبصروا
خيالا ظنوه هلالا وكان لهذا القاضي جمال الدين في أمر هذه الشهادة
الزورية مقام من التوقف والتحرى حمده له أهل التحصيل وشكره
عليه ذوو العقول وحق لهم ذلك فانها مناسك الحج للمسلمين عظيمة
أتوا لها من كل فج عميق فلو تسومح فيها بطل السعي وفال الرأى والله
برفع الالتباس والبأس بمنه فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة ظهر الهلال
أثناء فرج السحاب وقد اكتسى نوراً من الثلاثين ليلة فزعقت العامة
زعقات هائلة وتنادت بوقفة الجمعة وقالت الحمد لله الذي لم يخيب سعينا
ولا ضيع قصدنا كأنهم قد صح عندهم ان الوقفة اذا لم تكن توافق
يوم الجمعة ليست مقبولة ولا الرحمة فيها من الله مرجوة مأمولة تعالى
الله عن ذلك علوا كبيراً ثم انهم يوم الجمعة المذكور اجتمعوا الى القاضي
فأدوا شهادات بصحة الرؤية تبكي الحق وتضحك الباطل فردها وقال
ياقوم حتى م هذا التمادى في الشهوة والى م تستنون فى طرق الهفوة
وأعلمهم انه قد استأذن الامير مكثر في أن يكون الصعود الى عرفات
صبيحة يوم الجمعة فيقفوا عشية بها ثم يقفوا صبيحة يوم السبت بعده
ويبيتوا ليلة الاحد بمزدلفة فان كانت الوقفة يوم الجمعة فما عليهم في
تأخير المبيت بمزدلفة بأس اذ هو جائز عند أئمة المسلمين وان كانت
يوم السبت فبها ونعمت واما أن يقع القطع بها يوم الجمعة فتغرير
بالمسلمين وافساد لمناسكهم لان الوقفة يوم التروية عند الائمة غير جائزة
كما انها عندهم جائزة يوم النحر فشكر جميع من حضر للقاضي هذا

المنزع من التحقيق ودعوا له وأظهر من حضر من العامة الرضى بذلك
وانصرفوا عن سلام والحمد لله على ذلك وهذا الشهر المبارك هو ثالث
الاشهر الحرم وعشرة الاولى مجتمع الامم وموسم الحج الاعظم شهر
العج والثج وملتقى وفود الله من كل أوب وفج مصاب الرحمة والبركات
ومحل الموقف الأعظم بعرفات جعلنا الله ممن فاز فيه بالحسنات وتعرى
به من ملابس الاوزار والسيئات بمنه وكرمه انه أهل التقوى واهل
المغفرة والامير العراقي منتظر لكشف هذا الالباس عن الناس في أمر
الهلال لعله قد اتضح له اليقين فيه ان شاء الله وفي سائر هـذه الايام
كلها الى هلم جرا تصل رفاق من السرو اليمنيين وسائر حجاج الآفاق
لا يحصي عددها الا محصى آجالها وأرزاقها لا اله سواه فمن الآيات
البينات أن يسع هذا الجمع العظيم هذا البلد الامين الذى هو بطن
واد سعته غلوة أو دونها ولو أن المدن العظيمة حل عليها هذا الجمع
لضاقت عنه وما هذه البلدة المكرمة فيما تختص به من الآيات البينات
في اتساعها لهذا البشر المعجز احصاءه الا كما شبهتها العلماء حقيقة بأنها
يتسع لوفودها اتساع الرحم بمولودها وكذلك عرفات وسائر المشاهد
المعظمة بهذا البلد الحرام عظم الله حرمته ورزقنا الرحمة فيه بكرمه وفضله
ومن أول هذا الشهر المبارك ضربت دبادب الامير بكرة وعشية وفي أوقات
الصلوات كأنها اشعار بالموسم ولا يزال كذلك الى يوم الصعود الى عرفات
عرفنا الله بها القبول والرحمة وفي يوم الاثنين الخامس أو الرابع من هذا الشهر
وصل الامير عثمان بن على صاحب عدن خرج منها فاراً أمام سيف الاسلام

المتوجه الي اليمن وركب البحر فى جلاب كثيرة مشحونة بأحوال عظيمة
وأموال لا تحصى كثرة لانه طال مقامه في تلك الولاية واتسع كسبه وعند
خروجه من البحر بموضع يعرف بالصر لحقت جلبه حراريق الامير
سيف الاسلام فأخذت جميع ما فيها من الأثقال وكان قد استصحب
الخف النفيس الخطير مع نفسه الي البروهو في جملة من رجاله وعبيده
فسلم به ووصل مكة بعير موقرة متاعاً ومالاً دخلت على أعين الناس
الي داره التى ابتناها بها بعد أن قدم نفيس ذخائره وناض ماله وجملة
رقيقه وخدمه ليلاً وبالجملة فحاله لا توصف كثرة واتساعاً والذي انتهب
له أكثر لانه كان في ولايته يوصف بسوء السيرة مع التجار وكانت
المنافع التجارية كلها راجعة اليه والذخائر الهندية المجلوبة كلها واصلة
الى يديه فاكتسب سحتاً عظيماً وحصل على كنوز قارونية لكن
حوادث الايام قد ابتدأت بالخسف به ولا يدرى حال أمره مع صلاح
الدين لما يكون والدنيا مفنية محبيها وآكلة بنيها وثواب الله خير ذخيرة
وطاعته أشرف غنيمة لا اله سواه وبقيت الشهادة مضربة فى أمر هذا
الهلال المبارك الميمون الي أن تواصلت الاخبار برؤيته ليلة الخميس الذى
يوافق الخامس عشر من مارس شهد بذلك ثقات من أهل الزهد والورع
يمنيون وسواهم من الواصلين من المدينة المكرمة لكن بقى القاضي على
ثباته وتوقفه فى القبول وأرجأ الامر الى وصول المبشر المعلم بوصول
الامير العراقي ليتعرف من قبله ما عند أمير الحاج فى ذلك فلما كان
يوم الاربعاء السابع من الشهر المذكور وصل المبشر وكانت نفوس

أهل مكة قد أوجست خيفة لبطشه حذراً من حقد الخليفة على أميرهم مكثر لمذموم فعل صدر عنه فكان وصول هذا البشير أماناً وتسكيناً للنفوس الشاردة فوصل مبشراً ومؤنساً وأعلم برؤية الهلال ليلة الخميس المذكور وتواترت الانباء بذلك فصح الامر عند القاضى بذلك صحة أوجبت خطبته في ذلك اليوم على ماجرت به العادة فى اليوم السابع من ذى الحجة أثر صلاة الظهر علم الناس فيها مناسكهم ثم أعلمهم ان غدهم هو يوم الصعود الى منى وهو يوم التروية وان وقفهم يوم الجمعة وان الأثر الكريم فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها تعدل سبعين وقفة ففضل هذه الوقفة فى الاعوام كفضل يوم الجمعة على سائر الايام فلما كان يوم الخميس بكر الناس بالصعود الى منى وتمادوا منها الى عرفات وكانت السنة المبيت بها لكن ترك الناس ذلك اضطراراً بسبب خوف بنى شعبة المغيرين على الحجاج فى طريقهم الى عرفات وصدر عن هذا الامير عثمان المتقدم ذكره في ذلك اجتهاد بل جهاد يرجى له به المغفرة لجميع خطاياه ان شاء الله وذلك انه تقدم بجميع أصحابه شاكين فى الاسلحة الى المضيق الذى بين مزدلفة وعرفات وهو موضع ينحصر الطريق فيه بين جبلين فينحدر الشعبيون من أحدهما وهو الذي عن يسار المار الى عرفات فينهبون الحاج انتهاباً فضرب هذا الامير قبة من ذلك المضيق بين الجبلين بعدأن قدم أحد أصحابه فصعد الى رأس الجبل بفرسه وهو جبل كؤود فعجبنا من شأنه وأكثر التعجب من أمر الفرس وكيف تمكن له الصعود الى ذلك المرتقى

الصعب الذي لا يرتقيه ...... فأمن جميع الحاج بمشاركة هذا الامير لهم فحصل على أجرين أجر جهاد وحج لان تأمين وفد الله عز وجل في مثل ذلك اليوم من أعظم الجهاد واتصل صعود الناس ذلك اليوم كله والليلة كلها الى يوم الجمعة كله فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصي عدده الا الله عز وجل ومزدلفة بين منى وعرفات من منى اليها ما من مكة الى منى وذلك نحو خمسة أميال ومنها الى عرفات مثل ذلك أو أنقف قليلا وتسمى المشعر الحرام وتسمى جمعاً فلها ثلاثة أسماء وقبلها بنحو الميل وادى محسر وجرت العادة بالهرولة فيه وهو حد بين مزدلفة ومنى لانه معترض بينهما ومزدلفة بسيط من الارض فسيح بين جبلين وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء في زمان زبيدة رحمها الله وفي وسط ذلك البسيط من الارض حلق في وسطه قبة في أعلاها مسجد يصعد اليه على أدراج من جهتين يزدحم الناس في الصعود اليه والصلاة فيه عند مبيتهم بها وعرفات أيضاً بسيط من الارض مد البصر لو كان محشراً للخلائق لوسعهم يحدق بذلك البسيط الافيح جبال كثيرة وفي آخر ذلك البسيط جبل الرحمة وفيه وحوله موقف الناس والعلمان قبله بنحو الميلين فما امام العلمين الى عرفات حل وما دونهما حرم وبمقربة منهما مما يلي عرفات بطن عرنة الذى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه في قوله صلى الله عليه وسلم عرفات كلها موقف وارتفعوا عن بطن عرنة فالواقف فيه لا يصح حجه فيجب التحفظ من ذلك لان الجهالين عشية الوقفة ربما استحثوا

كثيراً من الحاج وحذروهم الرحمة فى النفر واستدرجوهم بالعلمين الذين أمامهـم الى أن يصلوا بهم بطن عرنة أو يجيزوه فيبطلوا على الناس حجهم والمتحفظ لاينفر من الموقف حتى يتمكن سقوط القرصة من الشمس وجبل الرحمة المذكور منقطع عن الجبال قائم في وسط البسيط وهو كله حجارة منقطعة بعضها عن بعض وكان صعب المرتقى فأحدث فيه جمال الدين المذكورة مآثره فى هذا التقييد ادراجاً وطية من أربع جهاته يصعد فيها بالدواب الموقورة وأنفق فيها مالا عظيما وفي أعلى الجبل قبة تنسب الى أم سلمة رضي الله عنها ولا يُعرف صحة ذلك وفي وسط القبـة مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه وحول ذلك المسجد المكرم سطح محدق به فسيح الساحة جميل المنظر يشرف منه على بسيط عرفات وفي جهة القبلة منه جدار وقد نصبت فيه محاريب يصلى الناس فيها وفى أسفل هذا الجبل المقدس عن يسار المستقبل للقبلة فيه دار عتيقة البنيان فى أعلاها غرف لها طيقان تنسب الى آدم صلى الله عليه وسلم وعن يسار هذه الدار في استقبال القبلة الصخرة التى كان عندها موقف النبي صلى الله عليه وسلم وهي في جبل متطأمن وحول جبل الرحـمة والدار المكرمة صهاريج للماء وجباب وعن يسار الدار أيضاً على مقربة منها مسجد صغير وبمقربة من العلمين عن يسار مستقبل القبلة مسجد قديم فسيح البناء بقى منه الجدار القبلي ينسب الى ابراهيم صلى الله عليه وسلم فيه يخطب الخطيب يوم الوقفة ثم يجمع بين الظهر والعصر وعن يسار العلمين أيضاً في استقبال القبلة وادى الاراك وهو

أراك أخضر يمتد في ذلك البسيط مع البصر امتداداً طويلا فتكامل
جمع الناس بعرفات يوم الخميس وليلة الجمعة كلها وفي نحو الثلث الباقي
من ليلة الجمعة المذكورة وصل أمير الحاج العراقي فضرب أبنيته في
البسيط الافيح مما يلي الجانب الايمن من جبل الرحمة في استقبال القبلة
والقبلة في عرفات هي الى مغرب الشمس لان الكعبة المقدسة في تلك
الجهة منها فأصبح يوم الجمعة المذكور في عرفات جمع لا شبيه له الا
الحشر لكنه ان شاء الله تعالى حشر للثواب مبشر بالرحمة والمغفرة
يوم الحشر للحساب زعم المحققون من الاشياخ المجاورين انهم لم يعاينوا
قط في عرفات جمعاً أحفل منه ولا أرى كان من عهد الرشيد الذي هو
آخر من حج من الخلفاء جمع في الاسلام مثله جعله الله جمعاً مرحوماً
معصوماً بعزته فلما جمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور وقف
الناس خاشعين باكين والى الله عزوجل في الرحمة متضرعين والتكبير
قد علا وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع فما رؤى يوم أكثر مدامع ولا
قلوباً خواشع ولا أعناقاً لهيبة الله خوانع خواضع من ذلك اليوم فما
زال الناس على تلك الحالة والشمس تلفح وجوههم الى أن سقط قرصها
وتمكن وقت المغرب وقد وصل أمير الحاج مع جملة من جنده الدارعين
ووقفوا بمقربة من الصخرات عند المسجد الصغير المذكور وأخذ السرو
اليمنيون مواقفهم بمنازلهم المعلومة لهم في جبال عرفات المتوارثة عن جد
لجد من عهد النبي صلى الله عليه وسلم لا تتعدى قبيلة على منزل أخرى
وكان المجتمع منهم في هذا العام عدداً لم يجتمع قط مثله وكذلك وصل

الامير العراقي في جمع لم يصل قط مثله ووصل معه من أمراء الاعاجم الخراسانيين ومن النساء العقائل المعروفات بالخواتين واحدتهن خاتون ومن السيدات بنات الامراء كثير ومن سائر العجم عدد لا يحصى فوقف الجميع وقد جعلوا قدوتهم فى النفر الامام المالكى لان مذهب مالك رضى الله عنه يقتضي أن لا ينفر حتى يتمكن سقوط القرصة ويحين وقت المغرب ومن السرو اليمنيين من نفر قبل ذلك فلما أن حان الوقت أشار الامام المالكي بيديه ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعاً ارتجت له الارض ورجفت الجبال فياله موقفاً ما أهول مرآه وأرجى فى النفوس عقباه جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه وتغمده بنعماه انه منعم كريم حنان منان وكانت محلة هذا الامير العراقى جميلة المنظر بهية العدة رائقة المضارب والابنية عجيبة القباب والاروقة على هيآت لم ير أبدع منها منظراً فأعظمها مرآى مضرب الامير وذلك انه أحدق به سرادق كالسور من كتان كانه حديقة بستان أو زخرفة بنيان وفى داخله القباب المضروبة وهي كلها سواد فى بياض مرقشة ملونة كانها أزاهير الرياض وقد جللت صفحات ذلك السرادق من جوانبه الاربعة كلها أشكال درقية من ذلك السواد المنزل في البياض يستشعر الناظر اليها مهابة يتخيلها درقاً لمطية قد جللتها مزخرفات الاغشية ولهذا السرادق الذي هو كالسور المضروب أبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها الى دهاليز وتعاريج ثم يفضي منها الي الفضاء الذى فيه القباب وكان هذا الامير ساكن في مدينة قد أحدق بها سورها تنتقل بانتقاله

وتنزل بنزوله وهي من الأبهات الملوكية المعهودة التي لم يعهد مثلها عند
ملوك المغرب وداخل تلك الابواب حجّاب الامير وخدمه وغاشيته
وهي أبواب مرتفعة بمجيء الفارس برايته فيدخل عليها دون تنكيس
ولا تطأطؤ قد أحكمت اقامة ذلك كله أحراش وثيقة من الكتان
يتصل بأوتاد مضروبة أدير ذلك كله بتدبير هندسى غريب ولسائر
لامراء الواصلين محبة هذا الامير مضارب دون ذلك لكنها على تلك
الصفة وقباب بديعة المنظر عجيبة الشكل قد قامت كأنها التيجان المنصوبة
الي ما يطول وصفه ويتسع القول فيه من عظيم احتفال هذه المحلة
في الآلة والعدة وغير ذلك مما يدل على سعة الاحوال وعظيم
الانحراف فى المكاسب والاموال ولهم أيضاً في مراكبهم على الابل قباب
تظلهم بديعة المنظر • عجيبة الشكل • قد نصبت على محامل من الاعواد
يسمونها القشاوات وهي كالتوابيت المجوفة هي لركابهـا من الرجال
والنساء كالأمهدة للاطفال تملأ بالفرش الوثيرة ويقعد الراكب فيها
مستريحاً كأنه فى مهاد لين فسيح وبأزاءه معاد له أو معادلته فى مثل
ذلك من الشقة الاخرى والقبة مضروبة عليهما فيسار بهما وهما نائمان
لا يشعران أو كيف ما أحبا فعند ما يصلان الى المرحلة التى يحطان
بها ضرب سرادقها للحين ان كانا من أهل الترفة والتنعم فيدخل بهما
الى السرادق وهما راكبان وينصب لهما كرسي ينزلان عليه فينتقلان
من ظل قبة المحمل الى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ولا خطفة
شمس تصيبهما وناهيك من هذا الترفيه فهؤلاء لا يلقون لسفرهم وان

بعدت شقته نصباً ولا يجدون على طول الحل والترحال تعباً ودون
هؤلاء في الراحة راكبو المحارات وهى شبيهة الشقادف التي تقدم
وصفها في ذكر صحراء عيذاب لكن الشقادف أبسط وأوسع وهذه
أضم وأضيق وعليها أيضاً ظلائل تقي حر الشمس ومن قصرت حاله
عنها فى هذه الاسفار فقد حصل على نصب السفر الذي هو قطعة من
العذاب (ثم يرجع القول) الى استيفاء حال النفرِ عشية الوقفة المذكورة
بعرفات وذلك ان الناس نفروا منها بعد غروب الشمس كما تقدم الذكر
فوصلوا مزدلفة مع العشاء الآخرة فجمعوا بها بين العشاءين حسبما
جرت به سنة النبي صلى الله عليه وسلم واُوقد المشعر الحرام تلك الليلة
كلها مشاعيل من الشمع المسرج وأما مسجده المذكور فعاد كله نوراً
فيخيل للناظر اليه ان كواكب السماء كلها نزلت به وعلى هذه الصفة
كان جبل الرحمة ومسجده ليلة الجمعة لان هؤلاء الاعاجم الخراسانيين
وسواهم من العراقيين أعظم الناس همة في استجلاب هذا الشمع والاستكثار
منه أضاءة لهذه المشاهد الكريمة وعلى هذه الصفة عاد الحرم بهم مدة
مقامهم فيه فيدخل منهم كل انسان بشمعة في يده وأكثر ما يقصدون
بذلك حطيم الامام الحنفي لانهم على مذهبه وشاهدنا منه شمعاً عظيماً
اُحضر منه نتوء الشمعة منه بالعصبة كانه السرو وضع أمام الحنفي
فبات الناس بالمشعر الحرام هذه الليلة وهي ليلة السبت فلما صلوا الصبح
غدوا منه الى منى بعد الوقوف والدعاء لان مزدلفة كلها موقف الا
وادى محسر ففيه تقع الهرولة في التوجه الى منى حتى يخرج عنه ومن

مزلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وهو المستحب ومنهم
من يلتقطها حول مسجد الخيف بمنى وكل ذلك واسع فلما
انتهي الناس الى منى بادروا لرمي جمرة العقبة بسبع حصوات ثم نحروا
أو ذبحوا وحلوا من كل شئ الا النساء والطيب حتي يطوفوا طواف
الافاضة ورمي هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر ثم توجه أكثر
الناس لطواف الافاضة ومنهم من أقام الي اليوم الثاني ومنهم من أقام
الى اليوم الثالث وهو يوم الانحدار الى مكة فلما كان اليوم الثانى من
يوم النحر عند زوال الشمس رمى الناس بالجمرة الاولى سبع حصيات
وبالجمرة الوسطي كذلك وبهاتين الجمرتين يقفون للدعاء وبجمرة العقبة
كذلك ولا يقفون بها اقتداء فى ذلك كله بفعل النبى صلى الله عليه وسلم
فتعود جمرة العقبة فى هذين اليومين أخيرة وهي يوم النحر أولى
منفردة لا يخلط معها سواها وفى اليوم الثانى من يوم النحر بعد رمي
الجمرات خطب الخطيب بمسجد الخيف ثم جمع بين الظهر والعصر وهذا
الخطيب وصل مع الامير العراقي مقدماً من عند الخليفة للخطبة والقضاء
بمكة على ما يذكر ويعرف بتاج الدين وظاهر أمره البلادة والبله لان
خطبته أعربت عن ذلك ولسانه لا يقيم الاعراب فلما كان اليوم الثالث
تعجل الناس فى الانحدار الى مكة بعد أن كمل لهم رمى تسع واربعين
جمرة سبع منها يوم النحر بالعقبة وهي المحللة ثم احدى وعشرون في
اليوم الثانى بعد زوال الشمس سبعا سبعا في الجمرات الثلاث وفي اليوم
الثالث كذلك ونفر الى مكة فمنهم من صلى العصر بالابطح ومنهم من

صلاها بالمسجد الحرام ومنهم من تعجل فصلى الظهر بالابطح ومضت السنة قديماً باقامة ثلاث أيام بعد يوم النحر بمنى لاكمال رمى سبعين حصاة فوقع التعجيل في هذا الزمان فى اليومين كما قال الله تبارك وتعالى (فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه) وذلك مخافة بني شعبة وما يطرأ من حرابة المكيين وقد كانت في يوم الانحدار المذكور بين سودان أهل مكة وبين الاتراك العراقيين جولة وهوشة وقعت فيها جراحات وسلت السيوف وفوقت القسي ورميت السهام وانتهب بعض أمتعة التجار لان منى في تلك الايام الثلاثة سوق من أعظم الاسواق يباع فيها من الجوهر النفيس الى أدني الخرز الى غير ذلك من الامتعة وسائر سلع الدنيا لانها مجتمع أهل الآفاق فوقى الله شر تلك الفتنة تسكيناً لها سريعاً وكانت عين الكمال فى تلك الوقفة المنيئة وكمل للناس حجهم الحمد لله رب العالمين وفى يوم السبت يوم النحر المذكور سيقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الامير العراقى الى مكة على أربعة جمال تقدمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوادية والرايات على رأسه والطبول تهر ووراءه ابن عم الشيبي محمد بن اسماعيل معها لانه ذكران أمر الخليفة نفذ بعزله عن حجابة البيت لهنات اشتهرت عنه والله يطهر بيته المكرم بمن يرضى من خدامه بمنه وهذا ابن العم المذكور هو أشبه طريقة منه وأمثل حالا وقد تقدم ذكر ذلك في العزلة الاولى فوضعت الكسوة في السطح المكرم أعلى الكعبة فلما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور اشتغل الشيبيون بأسبالها خضراء يانعة

يقيد الابصار حسناً فى أعلاها رسم أحمر واسع مكتوب فيه في الصفح
الموجه الى المقام الكريم حيث الباب المكرم وهو وجهها المبارك بعد
البسملة (أن أول بيت وضع للناس) الآية وفى سائر الصفحات اسم الخليفة
والدعاء له ونحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صغار بيض
فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن وذكر الخليفة أيضاً
فكملت كسوتها وشمرت أذيالها الكريمة صوناً لها من أيدى الاعاجم
وشدة احتذابها وقوة تهافتها عليها وانكبابها فلاح للناظرين منها أجمل
منظر كأنها عروس جليت فى السندس الاخضر أمتع الله بالنظر اليها
كل مشتاق الى لقائها حريص على المثول بعنائها بمنه وفى هذه الايام يفتح
البيت الكريم كل يوم للاعاجم العراقيين والخراسانيين وسواهم من
الواصلين مع الامير العراقى فظهر من تزاحمهم وتطارحهم على الباب
الكريم ووصول بعضهم على بعض وسباحة بعضهم على رؤس بعض
كأنهم في غدير من الماء أمر لم ير أهول منه يؤدى الى تلف المهج
وكسر الأعضاء وهم في خلال ذلك لايبالون ولا يتوقفون بل يلقون
بأنفسهم على ذلك البيت الكريم من فرط الطرب والارتياح القاء الفراش
بنفسه على المصباح فعادت أحوال السرو اليمنيين فى دخولهم البيت
المبارك على الصفة المتقدمة الذكر حال تؤدة ووقار بالاضافة الى هؤلاء
الاعاجم الاغنام نفعهم الله بنياتهم وقد فقد منهم في ذلك المزدحم
الشديد من دنا أجله والله يغفر للجميع وربما زاحمهم فى تلك الحال
بعض نسائهم فيخرجن وقد نضجت جلودهن طبخاً في مضيق ذلك

للمعتزل الذى حمى بأنفاس الشوق وطيشه والله ينفع الجميع بمعتقده وحسن مقصده بعزته وفى ليلة الخميس الخامس عشر من الشهر المبارك أثر صلاة العتمة نصب منبر الوعظ امام المقام فصعده واعظ خراسانى البشارة مليح الاشارة يجمع بين اللسانين عربى وعجمي فأتى في الحالين لسحر الحلال من البيان فصيح المنطق بارع الالفاظ ثم يقلب لسانه للاعاجم بلغتهم فيهزهم اضطراباً ويذيبهم زفرات وانتحاباً فلما كانت الليلة الاخرى بعدها وضع منبر آخر خلف حطيم الحنفى فصعد أثر صلاة العتمة أيضاً شيخ أبيض السبال رائع الجلال بارع التمام فى الفصل والكمال فصدع بخطبة انتظمت آية الكرسى كلمة كلمة ثم تصرف في أساليب من الوعظ وأفانين من العلم باللسانين أيضاً حرك بها القلوب حتى أطارها وأورثها احتداماً بالخشية بعد استعارها وفي أثناء ذلك ترشقه سهام من المسائل فيتلقاها بمجن من الجواب السريع البليغ فتحار له الالباب ويملك كل نفس منه الاغراب والاعجاب فكأنما هو وحى يوحي وهو الذى مشي به وعاظ هذه الجهات المشرقيـة من القاء المسائل اليهم وافاضة شآبيب الامتحان عليهم من أعجب الامور المعربة عن غريب شأنهم والناطقة بسحر بيانهم وليست فى فن واحـد انما هى فى فنون شتى وربما قصدبها التعنيت والتنكيب فيأتون بالجواب كخطفة البرق وارتداد الطرف والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وبين أيدى هؤلاء الوعاظ قراء يتغنون بالقراءة فيأتون بألحان تكسب الجماد طرباً وأريحيه كأنها المزامير الداووديه فلا تدرى من أى أحوال هذا المجتمع تعجب

والله يؤتى الحكمة من يشاء لا اله سواه وسمعت هذا الشيخ الواعظ
يسند الحديث الى خمسة من أجداده جدعن جد نسقاً مسلسلا من أبيه
اليهم على اتصال كلهم له لقب يدل على منزلته من العلم ومكانته من
التذكير والوعظ فهو معرق في الصنعة الشريفة تليد المجد فيها وفي
أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام زاده الله وشرفه سوقاً عظيمة
يباع فيه من الدقيق الي العقيق ومن البر الي الدر الي غير ذلك من
السلع فكان مبيع الدقيق بدار الندوة الي جهة باب شيبة ومعظم
السوق في البلاط الآخذ من الغرب الى الشمال وفي البلاط الآخذ
من الشمال الى الشرق وفي ذلك من النهي الشرعي ما هو معلوم والله
غالب على أمره لا اله سواه وفي عشي يوم الاحد الموفي عشرين من
الشهر المذكور وهو أول ابريل كان تبريزنا الى محلة الامير العراقي
بالزاهر وهو على نحو من الميلين من البلد وقد كمل اكتراؤنا الى الموصل
وهو امام بغداد بعشرة أيام عرفنا الله الخير والخيرة فأقمنا بالزاهر
ثلاثة أيام نجدد العهد كل يوم بالبيت العتيق ونعيد وداعه فلما كان
ضحوة يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة المذكور اقلعت
المحلة على تؤدة ورفق بسبب البطيء والتأخر ونزلت على نحو ثمانية
أميال من الموضع الذى أقلعت منه بمقربة من بطن مر والله كفيل
بالسلامة والعصمة بمنه فكانت مدة مقامنا بمكة قدسها الله من يوم وصولنا
اليها وهو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة تسع وسبعين
الى يوم اقلاعنا من الزاهر وهو يوم الخميس الثاني والعشرين لذى الحجة

من السنة المذكورة ثمانية أشهر وثلث شهر التي هي بحسب الزائد والناقص من الاشهر مائتا يوم اثنتان وخمسة وأربعون يوما سعيدات مباركات جعلها الله لذاته وجعل القبول لها موافقا لمرضاته بمنه رغبنا عن رؤية البيت الكريم فيها ثلاثة أيام يوم عرفة وثاني يوم النحر ويوم الاربعاء الذي هو الحادي والعشرون لذي الحجة قبل يوم الخميس يوم اقلاعنا من الزاهر والله لا يجعله آخر العهد بحرمه الكريم بمنه ثم اقلعنا من ذلك الموضع أثر صلاة الظهر من يوم الخميس الى بطن مر وهو واد خصيب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة الماء تسقى منها أرض تلك الناحية وعلى هذا الوادي قطر متسع وقرى كثيرة وعيون ومنه تجلب الفواكه الى مكة حرسها الله فأقمنا به يوم الجمعة لسبب عجيب وذلك أن الملكة خاتون بنت الامير مسعود ملك الدروب والارمن وما يلي بلاد الروم وهي احدي الخواتين الثلاث اللاتي وصلن للحاج مع أمير الحاج أبي المكارم طاشتكين مولى أمير المؤمنين الموجه كل عام من قبل الخليفة وله يتولى هذه الخطة نحو الثمانية أعوام أو أزيد وخاتون هذه أعظم الخواتين قدراً بسبب سعة مملكة أبيها والمقصود من ذكر أمرها أنها اسرت من بطن مر ليلة الجمعة الى مكة في خاصة من خدمها وحشمها فتفقد موضعها يوم الجمعة المذكور فوجه الامير نحاه من خاصة أصحابه يستطلعونها في الانصراف وأقام بالناس منتظراً لها فوصلت عتمة يوم السبت وأجلت فى سبب انصراف هذه الملكة المترفة

قداح الظنون وسلت الخواطر على استخراج سرها المكنون فمنهم من
يقول انها انصرفت انفة لبعض ما انتقدته على الامير ومنهم من قال
ان نوازع الشوق للمجاورة عطفت بها الى المثابة المكرمة ولا يعلم الغيب
الا الله وكيف ما كان الامر فقد كفى الله المعطلة بسببها وأطلق سبيل
الحاج ولله الحمد على ذلك وأبو هذه المرأة المذكورة الامير مسعود
كما ذكرناه وهو فى بسطة من ملكه واتساع من أمرته يركب له على
ما حقق عندنا أكثر من مائة ألف فارس وصهره عليها نور الدين
صاحب آمد وما سواها ويركب له أيضاً نحو اثنا عشر ألف فارس
وللخاتون هذه أفعال من البر كثيرة فى طريق الحاج منها سقى الماء
للسبيل سبيا عينت لذلك نحو الثلاثين ناضحة ومثلها للزاد واستجلبت
لما تختص به من الكسوة والازودة وغير ذلك نحو المائة بعير وأمرها
يطول وصفها وسنها نحو خمسة عشرين عاما والخاتون الثانيه أم معز الدين
صاحب الموصل زوج بابك أخي نور الدين الذى كان صاحب الشام
رحمه الله ولهذه أفعال كثيرة من البر والخاتون الثالثة ابنة الدقوس
صاحب أصبهان من بلاد خراسان وهي أيضاً كبيرة القدر عظيمة
الشان منافسة فى أفعال البر وشأنهن جمع عجيب جداً فى ماهن بسبيله
من الخير والاحتفال فى الابهة الملوكية ثم أقلعنا ظهر يوم السبت الرابع
والعشرين لذى الحجة المذكور ونزلنا بمقربة من عسفان ثم أسرينا
اليها نصف الليل وصبحناها بكرة يوم الاحد وهي في بسيط من الارض
بين جبال وبها آبار معينة تنسب لعثمان رضى الله عنه وشجر المقل فيها

كثير وبها حصن عتيق البنيان ذو أبراج مشيدة غير معمور قد أثر
فيه القدم وأوهنه قلة العمارة ولزوم الخراب فاجتزناها بأميال ونزلنا
مريحين قائلين فلما كان أثر صلاة الظهر أقلعنا الى خليص فوصلناها
عشي النهار وهى أيضاً في بسيط من الارض كثيرة حدائق النخل
لها جبل فيه حصن مشيد فى قنته وفي البسيط حصن آخر قد أثر فيه
الخراب وبها عين فوارة قد أحدثت لها أخادير فى الارض مسربة
يستقى منها على أفواه كالآبار يجدد الناس بها الماء لقلته في الطريق
بسبب القحط المتصل والله يغيث بلاده وعباده وأصبح الناس بهامقيمين
يوم الاثنين لأرواء الابل واستصحاب الماء وهذه الجملة العراقية ومن
انضاف اليها من الخراسانية والمواصلة وسائر جهات الآفاق من
الواصلين محبة أمير الحاج المذكور جمع لا يحصى عدده الا الله تعالى
يغص بهم البسيط الافيح ويضيق عنهم المهمة الصحصح فترى الارض
تميد بهم ميداً وتموج بجميعهم موجا فتبصر منهم بحراً طامي العباب ماؤه
السراب وسفنة الركاب وشرعه الظلائل المرفوعة والقباب تسير سير
السراب وسفنه الركاب وشرعه الظلائل المرفوعة والقباب تسير سير
السحب المتراكمة يتداخل بعضها على بعض ويضرب بعضها جوانب
بعضهم فتعاين لها تزاحما في البراح المنفسح بهول ويروع واصطكا
كانبع المحارات فيه بعضه ببعض مقروع فمن لم يشاهد هذا السفر العراقى
لم يشاهد من أعاجيب الزمان مايحدث به ويخف السامع بغرابته والقدرة
والقوة لله وحده وحسبك أن النازل فى منزل من منازل هذه المحلة مق

خرج عنها لبعض حاجة ولم تكن له دلالة يستدل بها على موضع منزله وتلف وعاد منشوداً في جملة الضوال وربما اضطربه الحال الى الوصول الى مضرب الامير ورفع مسألته اليه فيأمر أحد المنشدين بريحة والهاتفين بأوامره ممن قد أعد لذلك أن يردفه خلفه على جمل ويطوف به المحلة العجاجة وهو قد ذكر له اسمه واسم جماله واسم البلد الذي هو منه فيرفع عقيرته بذلك معرفا بهذا الضال ومناديا باسم الجمال وبلده الى أن يقع عليه فيؤديه اليه ولو لم يفعل ذلك لكان آخر عهده بصاحبه الا أن يلتقطه التقاطا أو يقع عليه اتفاقا فهذا من بعض عجائب شؤن هذه المحلة وعجائبها أكثر من أن يحيط بها الوصف ولأهلها من قوة الجدة واليسار ما يعينهم على ما هم بسبيله والملك بيد الله يؤتيه من يشاء ولهؤلاء النسوة الخواتين في كل عام اذا لم يحججن بأنفسهن نواضح مسبلة مع الحاج يرسلنها مع ثقات يسقون أبناء السبيل في المواضع المعروف فيها الماء في الطريق كله وبعرفات وبالمسجد الحرام في كل يوم وليلة فلهن في ذلك أجر عظيم وما التوفيق الا بالله جل جلاله فتسمع المنادي على النواضح يرفع صوته بالماء للسبيل فيهطع اليه المرملون من الزاد والماء بقربهم وأباريقهم فيملؤنها ويقول المنادي في اشادته بصوته أبقى الله الملكة خاتون ابنة الملك الذي من أمره كذا ومن شأنه كذا ويحليه بحلاه أعلانا باسمها واظهاراً لفعلها واستجلابا للدعاء لها من الناس والله لا يضيع أجر من أحسن عملا وقد تقدم تفسير هذه اللفظة خاتون وأنها عندهم بمنزلة السيدة أو ما يليق بهذا اللفظ الملوكي النسائي ومن

عجيب هذه المحلة أيضاً على عظمها وكبرها وكونها وجود دنيا بأسرها أنهـا اذا حطت رحالها ونزلت منزلها ثم ضرب الأمير طبله للانذار بالرحيل ويسمونه الكوس لم يكن بين استقلال الرواحل بأوقارها ورحالها وركابها الا كلا ولا فلا يكاد يفرغ الناقر من الضربة الثالثة الا والركائب قد أخذت سبيلها كل ذلك من قوة الاستعداد وشدة الاستظهار على الاسفار والحول والقوة لله وحده لا إله سواه واسراؤها بالليل بمشاعيل موقدة يمسكها الرجالة بأيديهم فلا تبصر قشاوة من القشاوات الا وامامها مشعل فالناس يسيرون منها بين كواكب سيارة توضح غسق الظلماء وتباهي بها الارض أنجم السماء والمرافق الصناعية وغيرها من المصالح الدينية والمنافع الحيوانية كلها موجودة بهذه المحلة غير معدومة ووصفها يطول والاخبار عنها لا تنحصر فلما كان ظهر يوم الاثنين أثر الصلاة أقلعنا من خليص مرتحلين وتمادى سيرنا الى العشاء الآخرة ثم نزلنا ونمنا نومة خفيفة ثم ضرب الكوس فأقلعنا وأسرينا الى ضحى من النهار ثم نزلنا مريحين الى أول الظهر من يوم الثلاثاء ثم أقلعنا من منزلنا ذلك الى واد يعرف بوادي السمك اسم يكاد يكون واقعا على غير مسمى فنزلناه مع العشاء الآخرة وأصبحنا به مقيمين يوم الاربعاء لتجديد حمل الماء وهو بهذا الوادى فى مستنقعات وربما حفر عليه فى الرمل فأقلعنا منه أول ظهر يوم الاربعاء المذكور ثم أجزنا مع الليل عقبة محجرة كؤوداً ذهب فيها من الجمال كثير ونزلنا في بسيط من الارض ونمنا الى نصف الليل ثم رحلنا في مهمه أفيح بسيط ممتد مد البصر ورملة منثالة فمشيت

الجبال فيها دون مقطرة لانفساح طريقها ثم نزلنا مريحين قائلين يوم الخميس التاسع والعشرين من ذي الحجة وبيننا وبين بدر مقدار مرحلتين فلما كان أول الظهر رحلنا الي مقربة من بدر فنزلنا بأثنين ثم قمنا قبل نصف الليل فوصلنا بدراً وقد ارتفع النهار وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن في ربوة مرتفعة ويدخل اليها على بطن واد بين جبال وببدر عين فوارة وموضع القليب الذى كان بازائه الوقعة الاسلامية التى أعزت الدين وأذلت المشركين هو اليوم نخيل وموضع الشهداء خلفه وجبل الرحمة الذى نزلت فيه الملائكة عن يسار الداخل منها الى الصفراء وبازائه جبل الطبول وهو شبيه كثيب رمل ممتد وهذه التسمية لاشاعة لهج بها أكثر المسلمين وذلك أنهم يزعمون أن أصوات الطبول تسمع بها كل يوم جمعة كأنها آثار انذارات باقية بما سلف من النصر النبوىّ في ذلك الموضع والله أعلم بغيبه وموضع عريش النبي صلى الله عليه وسلم يتصل بسفح جبل الطبول المذكور وموضع الوقيعة امامه وعند نخيل القليب مسجد يقال انه مبرك ناقة النبي صلى الله عليه وسلم وصح عندنا على زعمة أحد الاعراب الساكنين ببدر انهم يسمعون أصوات الطبول بالجبل المذكور لكن عين لذلك كل يوم اثنين ويوم خميس فعجبنا من زعمه كل العجب ولا يعلم حقيقة ذلك الا الله تعالى وبين بدر والصفراء بريد والطريق اليها في واد بين جبال تتصل بها حدائق النخيل والعيون فيه كثيرة وهو طريق حسن وبالصفراء حصن مشيد ويتصل به حصون كثيرة منها حصنان يعرفان بالتأمين وحصن

يعرف بالحسنية وآخر يعرف بالجديد الى حصون كثيرة وقرى متصلة

شهر محرم سنة ثمانين وخمسمائة عرفنا الله بركته وبركة سنته وخصنا فيه برحمته وتكفلنا بعصمته

استهل هلاله ليلة السبت بموافقة الرابع عشر لشهر ابريل ونحن مقلعون من بدر الى الصفراء فبتنا باستهلاله بهذه البقعة الكريمة بدر حيث نصر الله المسلمين وقهر المشركين والحمد لله على ذلك وكان نزولنا بالصفراء أثر صلاة العشاء الآخرة فأصبحنا يوم السبت مستهل الهلال المذكور مقيمين مريحين بها ليتزود الناس منها الماء ويأخذون نفس استراحة الى الظهر ومنها الى المدينة المكرمة ان شاء الله ثلاثة أيام فأقلعنا منها ظهر يوم السبت المذكور وتمادى السير بنا الى أثر صلاة العشاء الآخرة والطريق في واد متصل بين جبال فنزلنا ليلة الاحد ثم أقلعنا نصف الليل وتمادى سيرنا الى ضحى من النهار فنزلنا مريحين قائلين ببئر ذات العلم ويقال ان علي بن أبي طالب رضى الله عنه قاتل الجن بها وتعرف أيضاً بالروحاء والبئر المذكور متناهية بعد الرشاء لا يكاد يلحق قعرها وهي معينة ورحلنا منها أثر صلاة الظهر من يوم الاحد وتمادى بنا السير الى أثر صلاة العشاء الآخرة فنزلنا شعب على رضى الله عنه وأقلعنا منه نصف الليل الى تربان الى البيداء ومنها تبصر المدينة المكرمة فنزلنا ضحى يوم الاثنين الثالث محرم المذكور بوادى العقيق فعلى شفيره مسجد ذى الحليفة من حيث أحرم رسول الله صلى الله

عليه وسلم والمدينة من هذا الموضع على خمسة أميال ومن ذي الحليفة
حرم المدينة الى مشهد حمزة الى قباء وأول ما يظهر للعين منارة
مسجدها بيضاء مرتفعة ثم رحلنا منها أثر صلاة الظهر من يوم الاثنين
المذكور وهو السادس عشر لابريل فنزلنا بظاهر المدينة الزهراء
والتربة البيضاء والبقعة المشرفة بمحمد سيد الانبياء صلى الله عليه وسلم
صلاة تتصل مع الاحيان والاناء وفى عشى ذلك اليوم دخلنا الحرم
المقدس لزيارة الروضة المكرمة المطهرة فوقفنا بازائها مسلمين ولترب
جنباتها المقدسة مستلمين وصلينا بالروضة التى بين القبر المقدس والمنبر
واستلمنا أعواد المنبر القديمة التى كانت موطأ الرسول صلى الله عليه وسلم
والقطعة الباقية من الجذع الذى حن اليه صلى الله عليه وسلم وهى
ملصقة فى عمود قائم أمام الروضة الصغيرة التي بين القبر والمنبر وعن
يمينك اذا استقبلت القبلة فيها ثم صلينا صلاة المغرب مع الجماعة وكان من
الاتفاق السعيد لنا ان وجدنا بعض فسحة في تلك الحال لاشتغال
الناس باقامة مضاربهم وترتيب رحالهم فتمكنا من الغرض المقصود
وفزنا بالمشهد المحمود وأدينا حق السلام على الصاحبين الضجيعين
صديق الاسلام وفاروقه وانصرفنا الى رحالنا مسرورين ولنعمة الله
علينا شاكرين ولم يبق لنا أمل من آمال وجهتنا المباركة ولا وطر الا
وقد قضيناه ولا غرض من أغراضنا المأمولة الا وبلغناه وتفرغت الخواطر
للاياب للوطن نظم الله الشمل وتمم علينا الفضل والحمد لله على ما أولاه
وأسداه وأعاده من جميل صنعه وأبداه فهو أهل الحمد والشكر ومستحقه

لا اله سواه

﴿ ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر روضته المقدسة المطهرة ﴾

المسجد المبارك مستطيل وتحفه من جهاته الاربع بلاطات مستديرة به ووسطه كله صحن مفروش بالرمل والحصى فالجهة القبلية منها لها خمسة بلاطات مستطيلة من غرب الى شرق والجهة الجوفية لها أيضاً خمسة بلاطات على الصفة المذكورة والجهة الشرقية لها ثلاثة بلاطات والجهة الغربية لها أربعة بلاطات والروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلية مما يلى الشرق وانتظمت من بلاطاته مما يلى الصحن في السعة اثنين ونيفت الى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار ولها خمسة أركان بخمس صفحات وشكلها شكل عجيب لايكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله والصفحات الاربع محرفة من القبلة تحريفاً بديعاً لايتأتى لاحد معه استقبالها في صلاته لانه يحرف عن القبلة وأخبرنا الشيخ الامام العالم الورع بقية العلماء وعمدة الفقهاء أبو ابراهيم اسحاق ابن ابراهيم التونسى رضى الله عنه ان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اخترع ذلك فى تدبير بنائها مخافة أن يتخذها الناس مصلا وأخذت أيضاً من الجهة الشرقية سعة بلاطتين فانتظم داخلها من أعمدة الابلطة ستة وسعة الصفحة القبلية منها أربعة وعشرون شبراً وسعة الصفحة الشرقية ثلاثون شبراً ومابين الركن الشرقى الى الركن الجوفي صفحة سعتها خمسة وثلاثون

شبراً ومن الركن الجوفي الى الغربي صفحة سعتها تسعة وثلاثون شبراً
ومن الركن الغربى الى القبلى صفحة سعتها أربعة وعشرون شبراً وفي
هذه الصفحة صندوق آبنوس مختم بالصندل مصفح بالفضة مكوكب بها
هو قبالة رأس النبى صلى الله عليه وسلم وطوله خمسة أشبار وعرضه
ثلاثة أشبار وارتفاعه أربعة أشبار وفي الصفحة التى بين الركن الجوفى
والركن الغربى موضع عليه ستر مسبل يقال أنه كان مهبط جبريل عليه
السلام فجميع سعة الروضة المكرمة من جميع جهاتها مائتا شبر واثنان
وسبعون شبراً وهى مؤزرة بالرخام البديع النحت الرائع النعت وينتهى
الازار منها الى نحو الثلث أو أقل يسيراً وعليه من الجدار المكرم ثلث
آخر قد علاه تضميخ المسك والطيب مقدار نصف شبر مسوداً مشققاً
متراكما مع طول الازمنة والايام والذى يعلوه من الجدار شبابيك عود
متصلة بالسمك الاعلى لان أعلى الروضة المباركة متصل بسمك المسجد
والى حيز أزار الرخام تنتهي الأستار وهي لازوردية اللون مختمة بخواتيم
بيض مثمنة ومربعة وفي داخل الخواتيم دوائر مستديرة ونقط بيض
تحف بها فنظرها منظر رائق بديع الشكل وفي أعلاها رسم مائل الى
البياض وفي الصفحة القبلية امام وجه النبي صلى الله عليه وسلم مسمار فضة
هو قبالة الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام والى قدميه صلى الله
عليه وسلم رأس أبى بكر الصديق رضي الله عنه ورأس عمر الفاروق
مما يلى كتفى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما فيقف المسلم مستدبر
القبلة ومستقبل الوجه الكريم فيسلم ثم ينصرف يميناً الى وجه أبي بكر

ثم الى وجه عمر رضي الله عنهما وامام هـذه الصفحة المكرمة نحو العشرين قنديلاً معلقة من الفضة وفيها اثنان من ذهب وفي جوف الروضة المقدسة حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب قيل انه كان بيت فاطمة رضى الله عنها ويقال هو قبرها والله أعلم بحقيقة ذلك وعن يمين الروضة المكرمة المنبر الكريم ومنـه اليها اثنتان وأربعون خطوة وهو فى الحوض المبارك الذى طوله أربع عشر خطوة وعرضه ست خطا وهو مرخم كله وارتفاعه شبر ونصف وبينه وبين الروضة الصغيرة التى بين القبر الكريم والمنبر وفيها جاء الأثر انها روضة من رياض الجنة ثمانى خطوات وفي هذه الروضة يتزاحم الناس للصلاة وحق لهم ذلك وبازائها لجهة القبلة عمود يقال انه مطبق على بقية الجزع الذى حن للنبي صلى الله عليه وسلم وقطعة منه في وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس ويبادرون للتبرك بلمسها ومسح خدودهم فيهـا وعلى حافتها فى القبلة منها الصندوق وارتفاع المنبر الكريم نحو القامة أو أزيد وسعته خمسة أشبار وطوله خمسة خطوات وأدراجه ثمانية وله باب على هيئة الشباك مقفل يفتح يوم الجمعة وطوله أربعة أشبار ونصف شبر والمنبر مغشى بعود الابنوس ومقعد الرسول صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهر قد طبق عليه بلوح من الابنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه فيدخل الناس أيديهم اليه ويتمسحون به تبركاً بلمس ذلك المقعد الكريم وعلى رأس رجل المنبر اليمنى حيث يضع الخطيب يده اذا خطب حلقة فضة مجوفة مستطيلة تشبه حلقة الخياط التى يضعها فى

أصبعه صفة لاصفراً لانها أكبر منها لاعبة تستدير في موضعها يزعم الناس
انها لعبة الحسن والحسين رضي الله عنهما فى حال خطبة جدهما صلوات
الله وسلامه عليه وطول المسجد الكريم مائة خطوة وستة وتسعون
خطوة وسعته مائة وست وعشرون خطوة وعـدد سواريه مائتان
وتسعون وهي أعمدة متصلة بالسمك دون قسى تنعطف عليها فكانها
دعائم قوائم وهي من حجر منحوت قطعاً قطعاً ملململة منقبة توضع
أنثى في ذكر ويفرغ بينهما الرصاص المذاب الى أن تتصل عموداً قائماً
وتكسى بغلالة جيار ويبالغ فى صقلها ودلكها فتظهر كانها رخام أبيض
والبلاط المتصل بالقبلة من الخمسة بلاطات المذكورة تحف به مقصورة
تكتنفه طـولاً من غرب الى شرق والمحراب فيها ويصلي الامام فى
الروضة الصغيرة المذكورة الى جانب الصندوق وبينها وبين الروضة
والقبر المقدس محمل كبير مدهون عليه مصحف كبير فى غشاء مقفل
عليه هو أحـد المصاحف الاربعة التى وجه بها عثمان بن عفان رضى
الله عنه الى البلاد وبأزاء المقصورة الى جهة الشرق خزانتان كبيرتان
محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك ويليهما في
البلاط الثانى لجهة الشرق أيضاً دفة مطبقة على وجه الارض مقفلة هي
على سرداب يهبط اليه على أدراج تحت الارض يفضى الى خارج المسجد
الى دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهـو كان طريق عائشة اليها
وبأزائها دار عمر بن الخطاب ودار ابنه عبدالله رضى الله عنهما ولا
شك ان ذلك الموضع هـو موضع الخوخة المفضية لدار أبي بكر التى

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإغلاقها خاصة وأمام الروضة المقدسة أيضاً
صندوق كبير هو للشمع والانوار التى توقد أمام الروضة كل ليلة
وفى الجهة الشرقية بيت مصنوع من عود هو موضع مبيت بعض السدنة
الحارسين للمسجد المبارك وسدنته فتيان أحابيش وصقالب ظراف الهيئات
نظاف الملابس والشارت والمؤذن الراتب فيه أحد أولاد بلال رضى
الله عنه وفى جهة جوف الصحن قبة كبيرة محدثة جديدة تعرف بقبة
الزيت هى مخزن لجميع آلات المسجد المبارك وما يحتاج اليه فيه وبإزائها
في الصحن خمس عشرة نخلة وعلى رأس المحراب الذى في جدار القبلة
داخل المقصورة حجر مربع أصفر قدر شبر في شبر ظاهر البريق
والبصبص يقال أنه كان مرآة كسرى والله أعلم بذلك وفى أعلاه داخل
المحراب مسمار مثبت في جداره فيه شبه حق صغير لا يعرف من أى
شيء هو ويزعم أيضاً أنه كان كأس كسرى والله أعلم بحقيقة ذلك كله
ونصف جدار القبلة الاسفل رخام موضوع ازاراً على ازار مختلف
الصنعة واللون مجزع أبدع تجزيع والنصف الاعلى من الجدار منزل
كله بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء قد أنتج الصناع فيه نتائج من
الصنعة غريبة تضمنت تصاوير أشجار مختلفات الصفات مائلات الاغصان
بثمرها والمسجد كله على تلك الصفة لكن الصنعة في جدار القبلة أحفل
والجدار الناظر الى الصحن من جهة القبلة كذلك ومن جهة الجوف
أيضاً والغربى والشرقى الناظران الى الصحن مجردان أبيضان ومقرنصان
قد زينا برسم يتضمن أنواعا من الاصبغة الى ما يطول وصفه وذكره

من الاحتفال في هذا المسجد المبارك المحتوى على التربة الطاهرة المقدسة
وموضوعها أشرف ومحلها أرفع من كل ما تزين به وللمسجد المبارك تسعة
عشر بابا لم يبق منها مفتحاً سوى أربعة فى الغرب منها اثنان يعرف
الواحد بباب الرحمة والثانى بباب الخشية وفي الشرق اثنان يعرف الواحد
بباب جبريل عليه السلام والثانى بباب الرخاء ويقابل باب جبريل
عليه السلام دار عثمان رضى الله عنه وهي التي استشهد بها ويقابل
الروضة المكرمة من هذه الجهة الشرقية روضة جمال الدين الموصلى
رحمه الله المشهور خبره وأثره وقد تقدم ذكر مآثره وامام الروضة
المكرمة شباك حديد مفتوح الى روضته تتنسم منها رحاه وريحانا وفى
القبلة باب واحد صغير مغلق وفي الجوف أربعة مغلقة وفي الغرب خمسة
مغلقة أيضاً وفى الشرق خمسة أيضاً مغلقة فكملت بالاربعة المفتوحة
تسعة عشر باباً وللمسجد المبارك ثلاث صوامع احداها فى الركن الشرقى
المتصل بالقبله والاثنتان فى ركنى الجهة الجوفية صغيرتان كأنهما على
هيئة برجين والصومعة الاولى المذكورة على هيئة الصوامع

﴿ ذكر المشاهد المكرمة التى ببقيع الغرقد ﴾

(وصفح جبل أُحد)

فأول ما نذكر من ذلك مسجد حمزه رضى الله عنه وهو بقبلى
الجبل المذكور والجبل جوفى المدينة وهو على مقدار ثلاثة أميال وعلى
قبره رضى الله عنه مسجد مبنى والقبر برحبة جوفى المسجد والشهداء رضى

الله عنهم بازائه والغار الذى آوى اليه النبي صلى الله عليه وسلم بازاء الشهداء
أسفل الجبل وحول الشهداء تربة حمراء هى التربة التى تنسب الى
حمزة ويتبرك الناس بها وبقيع الفرقد شرقي المدينة تخرج اليه على باب
يعرف بباب البقيع وأول ماتلق عن يسارك عند خروجك من الباب
المذكور مشهد صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم أم الزبير بن العوام
رضى الله عنه وأمام هذه التربة قبر مالك بن أنس الامام المدنى رضى
الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء وأمامه قبر السلالة الطاهرة
ابراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم وعليه قبة بيضاء وعلى اليمين منها
تربة ابن لعمر ابن الخطاب رضى الله عنه اسمه عبد الرحمن الأوسط
وهو المعروف بأبي شحمة وهو الذى جلده أبوه الحد فرض ومات
رضى الله عنهما وبازائه قبر عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وعبد الله
ابن جعفر الطيار رضى الله عنه وبازائهم روضة فيها أزواج النبي صلى
الله عليه وسلم وبازائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبي صلى الله
عليه وسلم ويليها روضة العباس بن عبد المطلب والحسن بن علىّ رضى
الله عنهما وهى قبة مرتفعة في الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور
وعن يمين الخارج منه ورأس الحسن الى رجلى العباس رضي الله عنهما
وقبراهما مرتفعان عن الارض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع
إلصاق مرصعة بصفائح الصفر ومكوكبة بمساميره على أبدع صفة وأجمل
منظر وعلى هذا الشكل قبر ابراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم ويلى
هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه

وسلم ويعرف ببيت الحزن يقال انه الذي آوت اليه والتزمت فيه الحزن
على موت أبيها المصطفى صلي الله عليه وسلم وفى آخر البقيع قبر عثمان
الشهيد المظلوم ذى النورين رضي الله عنه وعليه قبه صغيرة مختصرة
وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أم علىّ رضى الله عنها وعن بنيها
ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن تحصى لانه مدفن الجمهور الاعظم من
الصحابة المهاجرين والانصار رضى الله عنهم أجمعين وعلى قبر فاطمة
المذكورة مكتوب ماضم قبر أحد كفاطمة بنت أسد رضى الله عنها
وعن بنيها وقباء قبلىّ المدينة ومنها اليها نحو الميلين وكانت مدينة كبيرة
متصلة بالمدينة المكرمة والطريق اليها بين حدائق النخل المتصلة
والنخيل محدق المدينة من جهاتها وأعظمها جهة القبلة والشرق وأقلها
جهة الغرب والمسجد المؤسس على التقوى بقباء مجدد وهو مربع
مستوى الطول والعرض وفيه مأذنة طويلة بيضاء تظهر على بعد وفى
وسطه مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وعليه حلق قصير شبه
روضة صغيرة يتبرك الناس بالصلاة فيه وفى صحنه مما يلى القبلة شبه محراب
على مصطبة هو أول موضع ركع فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم وفى قبلته
محاريب وله باب واحد من جهة الغرب وهو سبعة بلاطات في الطول
ومثلها في العرض وفى قبلة المسجد دار لبنى النجار وهي دار أبي أيوب
الانصارى وفى الغرب من المسجد رحبة فيها بئر وبازائها على الشفير
حجر متسع شبيه البيلة يتوضأ الناس فيه ويلى دار بني النجار دار عائشة
رضي الله عنها وبازائها دار عمر ودار فاطمة ودار أبي بكر رضى الله

عنهم وبازائها بئر أريس حيث تفل النبي صلى الله عليه وسلم فعاد ماؤها
عذبا بعد ما كان أجاجا وفيها وقع خاتم من يد عثمان رضى الله عنه
والحديث مشهور وفي القرية تل مشرف يعرف بعرفات يدخل اليه على
دار الصفة حيث كان عمار وسلمان وأصحابهما المعروفون بأهل الصفة
وسمي ذلك التل عرفات لانه كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم
عرفة ومنه زويت له الارض فأبصر الناس بعرفات وآثار هذه القرية
المكرمة ومشاهدها كثيرة لا تحصي وللمدينة المكرمة أربعة أبواب وهي
تحت سورين في كل سور باب يقابله آخر الواحد منها كله حديد ويعرف
باسمه باب الحديد ويليه باب الشريعة ثم باب القبلة وهو مغلق ثم باب
البقيع وقد تقدم ذكره وقبل وصولك سور المدينة من جهة الغرب
بمقدار غلوة تلقى الخندق الشهير ذكره الذي منع النبي صلى الله عليه
وسلم عند تحزب الاحزاب وبينه وبين المدينة عن يمين الطريق العين
المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم وعليها حلق عظيم مستطيل ومنبع
العين وسط ذلك الحلق كانه الحوض المستطيل وتحته سقايتان مستطيلتان
باستطالة الحلق وقد ضرب بين كل سقاية وبين الحوض المذكور بجدار
فحصل الحوض محدقاً بجدارين وهو يمد السقايتين المذكورتين ويهبط
اليهما على أدراج عددها نحو الخمسة والعشرين درجاً وماء هذه العين
المباركة يعم أهل الارض فضلا عن أهل المدينة فهي لتطهر الناس
واستقائهم وغسل أثوابهم والحوض المذكور لا يتناول فيه غير الاستقاء
خاصة صوناً له ومحافظة عليه وبمقربة منه مما يلي المدينة قبة حجر

الزيت يقال ان الزيت رشح للنبي صلى الله عليه وسلم من ذلك الحجر ولجهة الجوف منه بئر بضاعة وبأزائها لجهة اليسار جبل الشيطان حيث صرخ لعنه الله يوم أحد حين قال قتل نبيكم وعلى شفير الخندق المذكور حصن يعرف بحصن العزّاب وهو خرب قيل ان عمر رضي الله عنه بناه لعزّاب المدينة وأمامه لجهة الغرب على البعد بئر رومة التى اشترى نصفها عثمان رضى الله عنه بعشرين ألفاً وفى طريق أحد مسجد على رضى الله عنه ومسجد سليمان رضى الله عنه ومسجد الفتح الذى أنزلت فيه على النبى صلى الله عليه وسلم سورة الفتح وللمدينة المكرمة سقاية ثالثة داخل باب الحديد يهبط اليها على أدراج وماؤها معين وهي بمقربة من الحرم الكريم وبقبلي هذا الحرم المكرم دار امام دار الهجرة مالك ابن أنس رضى الله عنه ويطيف بالحرم كله شارع مبلط بالحجر المنحوت المفروش فهذا ذكر ما تمكن على الاستعجال من آثار المدينة المكرمة ومشاهدها على جهة الاقتضاب والاختصار والله ولى التوفيق ومن عجيب ما شاهدناه من الامور البديعة الداخلة مدخل السمعة والشهرة ان احدى الخواتين المذكورات وهى بنت الامير مسعود المتقدم ذكرها وذكر أبيها وصلت عشى يوم الخميس السادس لمحرم ورابع يوم وصولنا المدينة الي مسجد رسول صلي الله عليه وسلم راكبة في قبتها وحولها قباب كرائمها وخدمها والقراء أمامها والفتيان والصقالب بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها ويدفعون الناس أمامها الى أن وصلت الى باب المسجد المكرم فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها

ومشت الى أن سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم والخول أمامها
والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها اشارة بذكرها ثم وصلت الى
الروضة الصغيرة التى بين القبر الكريم والمنبر فصلت فيها تحت الملحفة
والناس يتزاحمون عليها والمقامع تدفعهم عنها ثم صلت في الحوض بازاء
المنبر ثم مشت الى الصفحة الغربية من الروضة المكرمة فقعدت فى
الموضع الذى يقال انه كان مهبط جبريل عليه السلام وأرخي الستر
عليها وأقام فتيانها وصقالبها وحجابها على رأسها خلف الستر تأمرهم
بأمرها واستجلبت معها الى المسجد حملين من المتاع للصدقة فما زالت
في موضعها الى الليل وقد وقع الايذان بوصول صدر الدين رئيس
الشافعية الاصفهاني الذى ورث النباهة والوجاهة فى العلم كابراً عن كابر
لعقد مجلس وعظ تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة السابع من المحرم
فتأخر وصوله الى هده من الليل والحرم قد غص بالمنتظرين
والخاتون جالسة موضعها وكان سبب تأخره تأخر أمير الحاج لانه كان
على عدة من وصوله الى أن وصل ووصل الامير وقد أعد لرئيس
العلماء المذكور وهو يعرف بهذا الاسم توارثه عن أب فأب كرسى
بازاء الروضة المقدسة فصعده وحضر قراؤه أمامه فابتدروا القراءة
بنغمات عجيبة وتلاحين مطربة مشجية وهو يلحظ الروضة المقدسة
فيعلن بالبكاء ثم أخذ في خطبة من انشائه سحرية البيان ثم سلك في
أساليب من الوعظ باللسانين وأنشد أبياتاً بديعة من قوله منها هذا
البيت وكان يردده في كل فصل من ذكره صلى الله عليه وسلم ويشير

الى الروضة

هاتيك روضته تفوح نسيما صلوا عليه وسلموا تسليما

واعتذر من التقصير لهول ذلك المقام وقال عجباً للأ لكن الاعجم كيف ينطق عند أفصح العرب وتمادى فى وعظه الى أن أطار النفوس خشية ورقة وتهافتت عليه الاعاجم معلنين بالتوبة وقد طاشت ألبابهم وذهلت عقولهم فيلقون نواصيهم بين يديه فيستدعى جلمين ويجزها ناصية ناصية ويكسو عمامته للمجزوز الناصية فيوضع عليه للحين عمامة أخرى من أحد قرائه أو جلسائه ممن قد عرف منزعه الكريم فى ذلك فبادر بعمامته لاستجلاب العرض النفيس لمكارمه الشهيرة عندهم فلا يزال يخلع واحدة بعد أخرى الي أن خلع منها عـدة وجز نواصى كثيرة ثم ختم مجلسه بأن قال معشر الحاضرين قد تكلمت لكم ليلة بحرم الله عز وجل وهذه الليلة بحرم رسوله صلى الله عليه وسلم ولابد للواعظ من كدية وأنا أسألكم حاجة ان ضمنتموها لى أرقت لكم ماء وجهي في ذكرها فأعلن الناس كلهم باسعاف وشهيقهم قـد علا فقال حاجتى أن تكشفوا رؤسكم وتبسطوا أيديكم ضارعين لهذا النبى الكريم في أن يرضي عنى ويسترضى الله عز وجل لى ثم أخذ فى تعداد زنوبه والاعتراف بها فأطار الناس عمائمهم وبسطوا أيديهم للنبى صلى الله عليه وسلم داعين له باكين متضرعين فما رأيت ليلة أكثر دموعاً ولا أعظم خشوعاً من تلك الليلة ثم انفض المجلس وانفض الامير وانفضت الخاتون من موضعها وعند وصول صدر الدين المذكور أزيل الستر عنها وبقيت

بين خدمها وكرائمها متلفعة فى ردائها فعاينا من أمرها فى الشهرة الملوكية
عجباً وأمر هـذا الرجل صدر الدين عجيب في قعوده وأبهته وملوكيته
وفخامة آلته وبهاء حالته وظاهر مكنته ووفور عدته وكثرة عبيده
وخدمته واحتفال حاشيته وغاشيته فهو من ذلك على حال يقصر عنها
الملوك وله مضرب كالتاج العظيم فى الهواء مفتح على أبواب على هيئة
غريبة الوضع بديعة الصنعة والشكل تطل على المحلة من بعد فتبصره
سامياً فى الهواء وشأن هذا الرجل العظيم لا يستوعبه الوصف شاهدنا
مجلسه فرأينا رجلاً يذوب طلاقة وبشراً ويحن للزائر كرامة وبراً على
عظيم حرمته وفخامة بنيته وهو قـد أعطي البسطتين علماً وجسماً
استجزناه فأجازنا نثراً ونظماً وهو أعظم من شاهدنا بهذه الجهات وفى
يوم الجمعة المذكور وهو السابع من محرم شاهدنا من أمور البدعة أمراً
ينادي له الاسلام يالله ياللمسلمين وذلك ان الخطيب وصـل للخطبة
فصعد منبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ما يذكر على مذهب غير
مرضى ضد الشيخ الامام العجمى الملازم صلاة الفريضة في المسجد
المكرم فذلك على طريقة من الخير والورع لائقة بامام مثل ذلك الموضع
الكريم فلما أذن المؤذن قام هذا الخطيب المذكور للخطبة وقد تقدمته
الرايتان السوداوان وقد ركزتا بجانبي المنبر الكريم فقام بينهما فلما فرغ
من الخطبة الاولي جلس جلسة خالف فيها جلسة الخطباء المضروب بها
المثل في السرعة وابتدر الجمع مردة من الخدمة يخترقون الصفوف ويتخطون
الرقاب كدية على الاعاجم والحاضرين لهذا الخطيب القليل التوفيق

فمنهم من يطرح الثوب النفيس ومنهم من يخرج الشقة الغالية من الحرير فيعطيها وقد أعدها لذلك ومنهم من يخلع عمامته فيلبذها ومنهم من يتجرد عن برده فيلقى به ومنهم من لا يتسع حاله لذلك فيسمح بفضلة من الخام ومنهم من يدفع القراضة من الذهب ومنهم من يمد يده بالدينار والدينارين الى غير ذلك ومن النساء من تطرح خلخالها وتخرج خاتمها وتلقيه الى ما يطول الوصف له من ذلك والخطيب في أثناء هذه الحال كلها جالس على المنبر يلحظ هؤلاء المستجدين المستسعين على الناس بلحظات يكررها الطمع ويعيدها الرغبة والاستزادة الى أن كاد الوقت ينقضي والصلاة تفوت وقد ضج من له دين وصحة من الناس وأعلن بالصياح وهو قاعد ينتظر اشتفاف صبابة الكدية وقد أراق عن وجهه ماء الحياء فاجتمع له من ذلك السحت المؤلف كوم عظيم أمامه فلما أرضاه قام وأكمل الخطبة وصلى بالناس وانصرف أهل التحصيل باكين على الدين يائسين من فلاح الدنيا متحققين أشراط الآخرة ولله الأمر من قبل ومن بعد وفي عشي ذلك اليوم المبارك كان وداعنا للروضة المباركة والتربة المقدسة فياله وداعا عجيباً ذهلت النفوس ارتياعا حتى طارت شعاعا واستشرت به النفوس التياعا حتى ذابت انصداعا وما ظنك بموقف يناجي بالتوديع فيه سيد الاولين والآخرين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين انه لموقف تنفطر له الافئدة وتطيش به الالباب الثابتة المتئدة فوا أسفاه واأسفاه كل يبوح لديه بأشواقه ولا يجد بدا من فراقه فما يستطيع الى الصبر سبيلا ولا تسمع فى هول ذلك المقام الا رنة

وعويلا وكل بلسان الحال ينشد

محبتي تقتضي مقامي وحالتي تقتضي الرحيلا

بوأنا الله بزيارة هذا النبي الكريم منزل الكرامة وجعله شفيعا لنا يوم القيامة وأحلنا من فضله في جواره دار المقامة برحمته انه غفور رحيم جواد كريم وكان مقامنا بالمدينة المكرمة خمسة أيام أولها يوم الاثنين وآخرها يوم الجمعة

وفي ضحوة يوم السبت الثامن لمحرم المذكور والحادي والعشرين من شهر ابريل كان رحيلنا من المدينة المكرمة الى العراق قرب الله لنا المرام وسهل علينا السبيل واستصحبنا منها الماء لثلاثة أيام فنزلنا يوم الاثنين ثالث يوم رحيلنا المذكور بوادي العروس فتزود الناس منها الماء يحفرون عليه في الارض بئرا فينبع منها ماء عذب معين يروى الامة التي لا يحصي لها عدد من هذه المحلة مع جمالها التي تنيف على عددها ولله القدرة سبحانه وتعالى وصعدنا من وادى العروس الى أرض نجد وخلفنا تهامة وراءنا ومشينا في بسيطة من الارض يحسر الطرف دون أدناها ولا يبلغ مداها وتنسمنا نسيم نجد وهواءها المضروب به المثل فانتعشت النفوس والاجسام ببرد نسيمه وصحة هوائه ونزلنا يوم الثلاثاء رابع يوم رحيلنا على ماء يعرف بماء العسيلة ثم نزلنا يوم الاربعاء خامس رحيلنا بموضع يعرف بالنقرة وفيها آبار ومصانع كالصهاريج العظام وجدنا أحدها مملوءا بماء المطر فعم جميع المحلة ولم ينضب على كثرة الاستماحة وصفة مراحل هذا الامير بالحاج أن يسرى من نصف الليل الى ضحية

ثم ينزل الى أول الظهر ثم يرحل وينزل مع العشاء الآخرة ثم يقوم نصف الليل هذا دأبه ونزلنا ليلة الخميس الثالث عشر لمحرم وسادس يوم رحيلنا على ماء يعرف بالقارورة وهي مصانع مملوءة بماء المطر وهذا الموضع هو وسط أرض نجد وما أرى أن في المعمور أرضاً أفسح بسيطا ولا أوسع أفقا ولا أطيب نسيما ولا أصح هواء ولا أمد استواء ولا أصفى جواً ولا أنقى تربة ولا أنعش للنفوس والابدان ولا أحسن اعتدالا في كل الازمان من أرض نجد ووصف محاسنها يطول والقول فيها يتسع وفي يوم الخميس المذكور مع ضحوة النهار نزلنا بالحاجر والماء فيه فى مصانع وربما حفروا عليه حفراً قريبة العمق يسمونها أحفاراً واحدها حفر وكنا نخوف في هذا الطريق قلة الماء لاسيما مع عظم هذا الجمع الاناسى والانعامي الذين لو وردوا البحر لأنزفوه واستقوه فأنزل الله من سحب رحمته ما أعاد الغيطان غدرانا وأجرى المسول سيولا وصير الوهاد مملوءة عهاداً فكنا نبصر مذانب الماء سائحة على وجه الارض فضلا من الله ونعمة ولطفا من الله بعباده ورحمة والحمد لله على ذلك وفي اليوم المذكور أجزنا بالحاجر واديين سيالين وأما البرك والقرارات فلا تحصي وفى يوم الجمعة بعده نزلنا ضحوة النهار سميرة وهي موضع معمور وفى بسيطها شبه حصن يطيف به حلق كبير مسكون والماء فيه في آبار كثيرة الا أنها زعاق ومستنقعات وبرك وتبايع العرب فيها مع الحاج فيما أخرجوه من لحم وسمن ولبن ووقع الناس على قرم وعيمة فبادروا الابتياع لذلك بشقق الخام التي يستصحبونها لمشارات الاعراب

لانهم لا يبايعونهم الا بها وفى ضحوة يوم السبت بعـده نزلنا بالجبل المخروق وهو جبل في بيداء من الارض وفى صفحه الاعلى ثقب نافذ تخترقه الرياح ثم رحنا من ذلك الموضع وبتنا بوادى الكروش على غير ماء ثم أسرينا منه وأصبحنا على فيد يوم الاحد وهي حصن كبير مبرج مشرف في بسيط من الارض يمتد حوله ربض يطيف به سور عتيق البنيان وهو معمور بسكان من الاعراب ينتعشون مع الحاج في التجارات والمبايعات وغير ذلك من المرافق وهناك يترك الحاج بعد زادهم اعداداً للارمال من الزاد عند انصرافهم ولهم بها معارف يتركون أزودتهم عندهم وهذا نصف الطريق من بغداد الى مكة على المدينة شرفها الله أو أقل سيراً ومنها الى الكوفة اثنا عشر يوما فى طريق سهلة طيبة والمياه فيها بحمد الله موجودة فى مصانع كثيرة ودخل أمير الحاج هذا الموضع المذكور على تعبئة وأهبة ارهابا للمجتمعين به من الاعراب لئلا يداخلهم الطمع في الحاج فهم يلحظونهم مستشرفين الي مكانهم لكنهم لا يجدون اليهم سبيلا والحمد لله والماء بهذا الموضع كثير في آبار تمدها عيون تحت الارض ووجد الحاج فيها مصنعا قد اجتمع فيه الماء من المطر فانتزف للحين وامتلأت أيدى الحاج القرمين من أغنام العرب بالمبايعة المذكورة فلم يبق مضرب ولا خيمة ولا ظلالة الا والى جانبها كبش أو كبشان بحسب القدرة والوجد فعم جميع المحلة غنم العرب وكان ذلك اليوم عيداً من الاعياد وكذلك عمتهم أيضاً جمالهم لمن أراد الابتياع منهم من الجمالين وسواهم للاستظهار على الطريق وأما السمن

والعسل واللبن فلم يبق الا من تحمل أو استعمل منها بقدر حاجته وأقام
الناس يومهم ذلك مريحين بها الى ظهر يوم الاثنين بعده ثم أسروا نصف
الليل ترتيب سيرهم المذكور قبل ونزلوا ضحوة يوم الثلاثاء الثامن
عشر لمحرم وهو أول يوم من مايه بموضع يعرف بالاجفر وهو مشتهر
عندهم بموضع جميل وبثينة العذريين ثم أقلعنا ظهر يوم الثلاثاء المذكور
على العادة ونزلنا بالبيداء مع العشاء الآخرة ثم أسرينا منها ونزلنا ضحوة
يوم الاربعاء بزرود وهي وهدة فى بسيط من الارض فيها رمال منهالة
وبها حلق كبير داخله دويرات صغار شبيه الحصن يعرف بهذه الجهات
بالقصر والماء بهذا الموضع في آبار غير عذبة فنزلنا ضحوة يوم الخميس
الموفي عشرين لمحرم والثالث لمايه بموضع يعرف بالثعلبية ولها مبنى شبه
الحصن خرب لم يبق منه الا الحلق وبازائه مصنع عظيم كبير الدور من
أوسع ما يكون من الصاريج وأعلاها والمهبط اليه على أدراج كثيرة من
ثلاث جهات وكان فيه من ماء المطر ماعم جميع المحلة ووصل الى هذا
الموضع جمع كثير من العرب رجالا ونساء واتخذوا به سوقا عظيمة
حفيلة للجمال والكباش والسمن واللبن وعلف الابل فكان يوم سوق
نافقة وبقي من هذا الموضع الى الكوفة من المناهل التى تعم جميع المحلة
ثلاثة أحدها زبالة والثانى واقصة والثالث منهل من ماء الفرات على
مقربة من الكوفة وبين هذه المناهل مياه موجودة لكنها لا تم وهذه
الثلاثة المذكورة هي التي تعم الناس والابل وهي التى نردها رفها وفى
هذا المنهل الذى للثعلبية شاهدنا من غلبة الناس على الماء أمراً هائلا

لا يكاد يشاهد مثله فى تغلب المدن والحصون بالقتال وحسبك ان مات
في ذلك الموضع ضغطا لشدة الزحام وغطا تحت الماء بالاقدام سبعة رجال
بادروا لمورد المـاء فحصلوا على مورد الفناء رحمهم الله وغفر لهم وفى
ضحوة يوم الجمعة بعده نزلنا بموضع يعرف ببركة المرجوم وهي مصنع
وقد بنى له فى مايعلوه من الارض مصب يؤدي الماء اليه على بعد وأحكم
ذلك احكاما يدل على قدرة الاتساع وقوة الاستطاعة ولهذا المرجوم
المذكور مشهد على قارعة الطريق وقد علا كأنه هضبة شماء وكل مجتاز
عليه لابد أن يلقى عليـه حجراً ويقال ان أحـد الملوك رجمه لأمر
استوجب به ذلك والله أعلم وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب وبادروا
للحين بما لديهم من مرافق الادم يبيعونها من الحاج وكان هذا المصنع
مملوءاً من ماء المطر فغمر الناس وعمهم والحمد لله وهذه المصانع والبرك
والآبار والمنازل التى من بغداد الى مكة في آثار زبيدة ابنة جعفر ابن
أبي جعفر المنصور زوج هارون الرشيد وابنة عمه انتدبت لذلك مدة
حياتها فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفدا لله تعالى كل
سنة من لدن وفاتها الى الآن ولولا آثارها الكريمة فى ذلك لما سلكت
هذا الطريق والله كفيل بمجازاتها والرضى عنها وفى ضحوة يوم السبت
بعده نزلنا بموضع يعرف بالشقوق وفيه مصنعان ألفيناهما مملوءين ماء
عذبا صافياً فأراق الناس مياههم وجددوا مياها طيبة واستبشروا بكثرة
الماء وجددوا شكراً لله على ذلك وأحد هذين المصنعين صهريج عظيم الدائرة
كبيرها لا يكاد يقطعه السابح الا عن جهد ومشقة وكان الماء قد علا

فيه أزيد من قامتين فتنعم الناس من مائه سباحة واغتسالا وتنظيف أثواب وكان يومهم فيه من أيام راحة السفر ومن لطائف صنع الله تعالى بوفده وزوار حرمه أن كانت هذه المصانع كلها عند صعود الحاج من بغداد الى مكة دون ماء فأرسل الله من رحمته ما أترعها ماء معداً لصدر الحاج فضلا من الله ولطفاً بوفده المنقطعين اليه ورحنا من ذلك الموضع المذكور وبتنا بموضع يعرف بالتنانير وكان فيه أيضاً مصنع مملوء ماء وأسرينا منه ليلة يوم الاحد الثالث والعشرين من المحرم واجتزنا سحراً (بزبالة) وهي قرية معمورة وفيها قصر مشيد من قصور الاعراب ومصنعان للماء وآبار وهي من مناهل الطريق الشهيرة ونزلنا عند ما ارتفع النهار من اليوم المذكور بالهيثمين وفيها مصنعان للماء ولا نكاد نمرّ بحول الله يوما بموضع الا والماء يوجد فيه والشكر لله على ذلك وبتنا ليلة الاثنين الرابع والعشرين لمحرم المذكور على مصنع مملوء ماء فسقى الناس بالليل واستقوا وهذا الموضع هو دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان ومع الصباح من يوم الاثنين المذكور صعدنا العقبة وليست بالطويلة الكؤود ولكن ليس بالطريق وعر غيرها فهي شهيرة بهذا السبب ونزلنا عند ارتفاع النهار على مصنع دون ماء وأجزنا مصانع كثيرة وما منها مصنع الا والى جانبه قصر مبنى من قصور الاعراب والطريق كلها مصانع ورضى الله عن التى اعتنت بسبيل وفد الله هذا الاعتناء ثم نزلنا ضحوة يوم الثلاثاء بعدة بواقصة وهي وهدة من الارض منفسحة فيها مصانع للماء مملوءة وقصر كبير وبإزائه أثر بناء وهي معمورة بالاعراب

وهي آخر مناهل الطريق وليس بعدها الى الكوفة منهل مشهور الا
مشارع ماء الفرات ومنها الى الكوفة ثلاثة أيام وبها يتلقى الحاج كثير من
أهل الكوفة وهم مستجلبون اليهم الدقيق والخبز والتمر والادام والفواكه
الحاضرة في ذلك الوقت ويهنئ الناس بعضهم بعضاً بالسلامة والحمد لله
عز وجل على ما من به من التيسير والتسهيل حمداً يستوجب المزيد
ويستصحب من كريم صنعه المعهود وبتنا ليلة الاربعاء السادس والعشرين
بموضع يعرف بلورة وفيها مصنع كبير وجده الناس مملوءه فجددوا
الاستسقاء ورفهوا الابل ثم أسرينا منها وأجزنا سحر يوم الاربعاء المذكور
بموضع فيه آثار بناء يعرف بالقرعاء وفيه أيضاً مصنع ماء وله ستة مخازن
وهي صهاريج صغار تؤدى الماء الي المصانع أستقي الناس فيها وسقوا
وكثرت المصانع حتى لا تكاد الكتب تحصرها ولا تضبطها والحمد لله
على منته وسابغ نعمته وبتنا ليلة الخميس بعده على مصنع عظيم مملوء ماء
ثم نزلنا ضحوة اليوم المذكور بمنارة تعرف بمنارة القرون وهي منارة في
بيداء من الارض لا بناء حولها قد قامت في الارض كأنها عمود مخروط
من الاجر قد تداخل فيها من الخواتيم الآجرية مثمنة ومربعة أشكال
بديعة ومن غريب أمرها انها مجللة كلها قرون غزلان مثبتة فيها فتلوح
كظهر الشيهم وللناس فيها خبر يمنع ضعف سنده من أثباته وعلى مقربة
من هذه المنارة قصر ذو بروج مشيدة وبأزائه مصنع عظيم وجد مملوء
ماء والحمد لله على ما من به واجتزنا عشي يوم الخميس المذكور على
العذيب وهو واد خصب وعليه بناء وحوله فلاة خصيبة فيها مسرح

للعيون وفرجة وأعلمنا ان بمقربة منه بارقاً ووصلنا منه الي الرحبة وهي بمقربة منه وفيها بناء وعمارة ويجرى الماء فيها من عين نابعة فى أعلى القرية المذكورة وبتنا أمامها بمقدار فرسخ ثم أسرينا ليلة الجمعة الثامن والعشرين لمحرم المذكور نصف الليل واجتزنا على القادسية وهي قرية كبيرة فيها حدائق من النخيل ومشارع من ماء الفرات وأصبحنا بالنجف وهو بظهر الكوفة كأنه حد بينها وبين الصحراء وهو صلب من الارض منفسح متسع للعين فيه مزاد استحسان وانشراح ووصلنا الكوفة مع طلوع الشمس من يوم الجمعة المذكور والحمد لله على ما أنعم به من السلامة

﴿ ذكر مدينة الكوفة حرسها الله تعالى ﴾

هي مدينة كبيرة عتيقة البناء قد استولى الخراب على أكثرها فالغامر منها أكثر من العامر ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها فهي لا تزال تضربها وكفاك بتعاقب الايام والليالي محيياً ومفنياً وبناء هذه المدينة بالآجر خاصة ولا سور لها والجامع العتيق آخرها مما يلي شرقي البلد ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق وهو جامع كبير في الجانب القبلي منه خمسة أبلطة وفي سائر الجوانب بلاطان وهذه البلاطات على أعمدة من السواري الموضوعة من صم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة مفرغة بالرصاص ولا قسي عليها على الصفة التي ذكرناها فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي في نهاية الطول متصلة بسقف المسجد

فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها فما أري في الارض مسجداً أطول أعمدة منه ولا أعلى سقفاً ولهذا الجامع المكرم آثار كريمة فمنها بيت بأزاء المحراب عن يمين المستقبل القبلة يقال انه كان مصلى ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم وعليه ستر أسود صوناً له ومنه يخرج الخطيب لابساً ثياب السواد للخطبة فالناس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه وعلى مقربة منه مما يلى الجانب الايمن من القبلة محراب محلق عليه بأعواد الساج مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير وهو محراب أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وفي ذلك الموضع ضربه الشقى اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف فالناس يصلون فيه باكين داعين وفى الزاوية من آخر هذا البلاط القبلى المتصل بآخر البلاط الغربى شبيه مسجد صغير محلق عليه أيضاً بأعواد الساج هو موضع مفار التنور الذى كان آية لنوح عليه السلام وفي ظهره خارج المسجد بيته الذى كان فيه وفى ظهره بيت آخر يقال انه كان متعبد ادريس صلى الله عليه وسلم ويتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد يقال انه كان منشأ السفينة ومع آخر هذا الفضاء دار على بن أبى طالب رضى الله عنه والبيت الذى غسل فيه ويتصل به بيت يقال انه كان بيت ابنة نوح صلى الله عليه وسلم وهذه الآثار الكريمة تلقيناها من السنة أشياخ من أهل البلد فأثبتناه حسبما نقلوه الينا والله أعلم بصحة ذلك كله وفى الجهة الشرقية من الجامع بيت صغير يصعد اليه فى قبر مسلم بن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه وفي جوفى الجامع على بعد منه يسير سقاية كبيرة من ماء الفرات فيها

ثلاثة أحواض كبار وفى غربى المدينة على مقـدار فرسخ منها المشهد الشهير الشأن المنسـوب لعلىّ بن أبى طالب رضي الله عنه وحيث بركت ناقته وهو محمول عليها مسجّي ميتاً على ما يذكر ويقال ان قبره فيه والله أعلم بصحة ذلك وفي هـذا المشهد بناء حفيل على ما ذكر لنا لانا لم نشاهده بسبب أن وقت المقام بالكوفة ضاق عن ذلك لانا لم نبت فيها سوى ليلة يوم السبت وفي غدائه رحلنا ونزلنا قريب الظهر على نهر منسرب من الفرات والفرات من الكوفة على مقدار نصف فرسخ مما يلى الجانب الشرقى والجانب الشرقى كله حدائق نخيل ملتفة يتصل سوادها ويمتد امتداد البصر ورحلنا من ذلك الموضع وبتنا ليلة الاحـد ملسانخ محرم بمقربة من الحلة ثم جئناها يوم الاحد المذكور

﴿ ذكر مدينة الحلة حرسها الله تعالى ﴾

هي مدينة كبـيرة عتيقة الوضع مستطيلة لم يبق من سورها إلا حلق من جدار ترابي مستدير بها وهي على شط الفرات يتصل بها من جانبها الشرقي ويمتد بطولها ولهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنيـة والصناعات الضرورية وهي قوية العمارة كثيرة الخلق متصلة حدائق النخيل داخلا وخارجا فديارها بين حدائق النخيل وألفينا بها جسراً عظيما معقوداً على مراكب كبار متصلة من الشط الي الشط تحف بها من جانبها سلاسل من حديد كالأذرع المفتولة عظما وضخامة ترتبط الى خشب مثبتة في كلا الشطين تدل على عظم الاستطاعة

والقدرة أمر الخليفة بعقده على الفرات اهتماما بالحاج واعتناء بسبيله
وكانوا قبل ذلك يعبرون في المراكب فوجدوا هذا الجسر قد عقده
الخليفة في مغيبهم ولم يكن عند شخوصهم الي مكة شرفها الله وعبرنا
الجسر ظهر يوم الاحد المذكور ونزلنا بشط الفرات على مقدار فرسخ
من البلد وهذا النهر كاسمه فرات هو من أعذب المياه وأخفها وهو نهر
كبير زخام تصعد فيه السفن وتنحدر والطريق من الحلة الى بغداد
أحسن طريق وأجلها في بسائط من الارض وعمائر تتصل بها القرى
يميناً وشمالا وبشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب بها
وتسقيها فحرثها لا حد لاتساعه وانفساحه فللعين في هذه الطريق
مسرح انشراح وللنفس مزاد انبساط وانفساح والأمن فيها متصل
بحمد الله سبحانه وتعالى

﴿ شهر صفر سنة ثمانين عرفنا الله يمنه وبركته ﴾

هلاله على الكمال من ليلة الاثنين بموافقة الرابع عشر من مايه
استهل هلاله ونحن على شط الفرات بظاهر مدينة الحلة وفي ضحوة
يوم الاثنين المذكور رحلنا وأجزنا جسراً على نهر يسمى النيل وهو
فرع متشعب من الفرات وكان عليه ازدحام غرق كثير من الناس
والدواب في الماء فتنحينا مريحين الى أن انفرج ذلك المزدحم وعبرنا
على سلامة وعافية والحمد لله ومن مدينة الحلة يتسلسل الحاج ارسالا
وأفواجا فمنهم المتقدم والمتوسط والمتأخر لا يعرج المستعجل على

المعتذر ولا المتقدم على المتأخر فحيثما شاؤا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا وسكنت نفوسهم من روعة نقر الكوس الذي كانت الافئدة ترجف له بداراً للرحيل واستعجالا للقيام فربما كان النائم منهم يهذي بنقر الكوس فيقوم مجلاوجلا ثم يتحقق أنه من أضغاث أحلامه فيعود الى منامه ومن جملة الدواعي لافتراقهم كثرة القناطير المعترضة في طريقهم الى بغداد فلا تكاد تمشي ميلا الا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات فتلك الطريق أكثر الطرق سواقي وقناطير وعلى أكثرها خيام فيها رجال محترسون للطريق اعتناء من الخليفة بسبيل الحاج دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها فلو زاحم ذلك البشر تلك القناطير دفعة لما فرغوا من عبورها ولربما كبوا وقوعا بعض على بعض والامير طاشتكين المتقدم الذكر يقيم بالحلة ثلاثة أيام الى أن يتقدم جميع الحاج ثم يتوجه الى حضرة خليفته وهذه الحلة المذكورة طاعة بيده للخليفة وسيرة هذا الامير في الرفق بالحاج والاحتياط عليهم والاحتراس لمقدمتهم وساقتهم وضم نشر ميمنتهم وميسرتهم سيرة محمودة وطريقته في الحزم وحسن النظر طريقة سديدة وهو من التواضع ولين الجانب وقرب المكان على وتيرة سعيدة نفعه الله ونفع المسلمين به وفي عصر يوم الاثنين المذكور نزلنا بقرية تعرف بالقنطرة كثيرة الخصب كبيرة الساحة متدفقة فيها جداول الماء وارفة الظلال بشجرات الفواكه من أحسن القرى وأجلها وبها قنطرة على فرع من فروع الفرات كبيرة محدودبة يصعد اليها وينحدر عنها فتعرف القرية بها وتعرف

أيضاً بمحصن بشير وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات في هـذا الوقت
الذي هو نصف مايه ورحلنا من القرية المذكورة سحر يوم الثلاثاء الثاني
لصفر فنزلنا قائلين ضحوته بقرية تعرف بالفراش كثيرة العمارة يشقها
الماء وحولها بسيط أخضر جميل المنظر وقرى هذه الطريق من الحلة الى
بغداد على هذه الصفة من الحسن والاتساع وفي هذه القرية المذكورة
خان كبير يحدق به جدار عال له شرفات صغار ثم رحلنا منها ونزلنا
عشي النهار بقرية تعرف بزريران وهذه القرية من أحسن قرى الارض
وأجملها منظراً وأفسحها ساحة وأوسعها اختطاطاً وأكثرها بساتين
ورياحين وحدائق نخيل وكان بها سوق تقصر عنه أسواق المدن
وحسبك من شرف موضوعها أن دجلة تسقي شرقيها والفرات يسقي
غربيها وهي كالعروس بينهما والبسائط والقري والمزارع متصلة بين
هـذين النهرين الشريفين المباركين ومن شرف هذه القرية أيضاً أن
بازائها الجهة الشرق منها ايوان كسرى وأمامها بيسير مداينه وهذا الايوان
بناء عال في الهواء شديد البياض لم يبق من قصوره الا البعض فعايناها
على مقدار الميـل سامية مشرفة مشرقة وأما المداين فخراب اجتزنا
عليهـا سحر يوم الاربعاء الثالث لصفر فعاينا من طولها واتساعهـا
مرأى عجيباً ومن فضل هذه القرية أيضاً أن بالشرق منها بمقدار نصف
فرسخ مشهد سلمان الفارسي رضي الله عنه فما اختصت تربتها بهذا الدفين
المبارك رضى الله عنـه الا لفضل تربتها والقرية على شط دجلة وهي
تعترض بينها وبين المشهد الكريم المذكور وكنا سمعنا أن هواء بغداد

ينبت السرور فى القلب ويبعث النفس دائما على الانبساط والانس فلا تكاد تجد فيها الاجذلان طربا وان كان نازح الدار مغتربا حتى حللنا بهذا الموضع المذكور وهو على مرحلة منها فلما نفحتنا نوافح هوائها ونقعنا الغلة ببرد مائها أحسسنا من نفوسنا على حال وحشة الاغتراب دواعى من الاطراب واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغياب بالاياب وهبت بنا محركات من الاطراب اذ كرتنا معاهد الاحباب فى ريعان الشباب هذا للغريب النازح الوطن فكيف للوافد فيها على أهل وسكن

سقى الله باب الطاق صوب غمامة ورد الي الاوطان كل غريب

وفي سحر يوم الاربعاء المذكور رحلنا من القرية المذكورة واجتزنا على مداين كسرى حسبما ذكرناه وانتهينا الى صرصر وهي أخت زريران المذكورة حسنا أو قريب منها ويعبر بجانبها القبلى نهر كبير متفرع من الفرات عليه جسر معقود على مراكب تحف بها من الشط الى الشط سلاسل حديد عظام على الصفة التى ذكرناها فى جسر الحلة فعبرناه وأجزنا القرية ونزلنا قائلين وبيننا وبين بغداد نحو ثلاثة فراسخ وبهذه القرية سوق حفيلة ومسجد جامع كبير جديد وهي من القرى التي تملأ النفوس بهجة وحسناً وهذان النهران الشريفان دجلة والفرات قد أغنت شهرتهما عن وصفهما وملتقاهما ما بين واسط والبصرة ومنها انصبابها الى البحر ومجراهما من الشمال الى الجنوب وحسبهما ما خصهما الله به من البركة هما وأخاهما النيل مما هو مذكور مشهور ورحلنا من ذلك الموضع قبيل الظهر من يوم الاربعاء المذكور وجئنا بغداد قبيل

العصر والمدخل اليها على بساتين وبسائط يقصر الوصف عنها

﴿ذكر مدينة السلام بغداد حرسها الله تعالى﴾

هذه المدينـة العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة الامامية القرشية الهاشمية قد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها الا شهير اسمها وهي بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب اليها كالطلل الدارس والاثر الطامس أو تمثال الخيال الشاخص فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر الا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين فهي تردها ولا تظمأ وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ والحسن الحريمي بين هوائها ومائهـا ينشأ هي من ذلك على شهرة في البـلاد معروفة موصوفة ففتن الهوى الا أن يعصم الله منها مخوفة وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء يزدرون الغرباء ويظهرون لمن دونهم الانفة والاباء ويستصغرون عمن سواهم الاحاديث والانباء قد تصور كل منهم في معتقده وخلده أن الوجود كله يصغر بالاضافة لبلده فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم يسحبون أذيالهم اشراً أو بطراً ولا يغيرون في ذات الله منكراً يظنون أن اسني الفخار في سحب الازار ولا يعلمون أن فضله بمقتضى الحديث المأثور في النار

يتبايعون بينهم بالذهب قرضاً وما منهم من يحسن لله قرضاً فلا نفقة فيها
الا من دينار تقرضه وعلى يدي مخسر للميزان تعرضه لا تكاد تظفر
من خواص أهلها بالورع العفيف ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها
الاعلى من ثبت له الويل في سورة التطفيف لا يبالون في ذلك بعيب كأنهم
من بقايا مدين قوم النبي شعيب فالغريب فيهم معدوم الارفاق
متضاعف الانفاق لا يجد من أهلها الا من يعامله بنفاق أو يهش اليه
هشاشة انتفاع واسترفاق كأنهم من التزام هذه الخلة القبيحة على شرط
اصطلاح بينهم واتفاق فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها ومائها
ويعلل حسن المسموع من أحاديثها وأنبائها أستغفر الله الا فقهاءهم
المحدثين ووعاظهم المذكرين لا جرم أن لهم فى طريقة الوعظ والتذكير
ومداومة التنبيه والتبصير والمثابرة على الانذار المخوف والتحذير
مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحط كثيراً من أوزارهم
ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ويمنع القارعة الصماء أن
تحل بديارهم لكنهم معهم يضربون فى حديد بارد ويرومون تفجير
الجلامد فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعتهم من واعظ يتكلم فيه فالموفق
منهم لا يزال فى مجلس ذكر أيامه كلها لهم في ذلك طريقة مباركة ملتزمة
فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضى الدين القزويني رئيس
الشافعية وفقيه المدرسة النظامية والمشار اليه بالتقديم في العلوم الاصولية
حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة أثر صلاة العصر من يوم الجمعة
الخامس لصفر المذكور فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه في القراءة على

كراسي موضوعة فتوفوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة . ونغمات محرجة مطربة . ثم اندفع الشيخ الامام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار وتصرف في أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل وايراد حديث رسوله صلى الله عليه وسلم والتكلم على معانيه ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر وتقدم وما تأخر ودفعت اليه عدة رقاع فيها فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها الى أن فرغ منها وحان المساء فنزل وافترق الجمع فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقوراً هيناً ليناً ظهرت فيه البركة والسكينة ولم تقصر عن ارسال عبرتها فيه النفس المستكينة ولا سيما آخر مجلسه فانه سرت حميا وعظه الى النفوس حتى أطارتها خشوعاً وفجرتها دموعاً وبادر التائبون اليه سقوطاً على يده ووقوعاً فكم ناصية جز وكم مفصل من مفاصيل التائبين طبق بالموعظة وحز . فبمثل مقام هذا الشيخ المبارك ترحم العصاة وتتغمد الجناة وتستدام العصمة والنجاة والله تعالى يجازى كل ذى مقام عن مقامه ويتغمد ببركته العلماء الاولياء عباده العاصيين من سخطه وانتقامه برحمته وكرمه انه المنعم الكريم لا رب سواه ولا معبود الا إياه وشهدنا له مجلساً ثانياً أثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثاني عشر من الشهر المذكور وحضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخراسانية ورئيس الأئمة الشافعية ودخل المدرسة النظامية بجز عظيم وتطريف آماق تشوقت له النفوس فأخذ الامام المتقدم الذكر في وعظه مسروراً بحضوره ومتجملا به فأتى

بأفانين من العلوم على حسب مجلسه المتقدم الذكر ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين الخجندي المتقدم الذكر في هذا التقييد المشتهر المآثر والمكارم المقدم بين الاكابر والاعاظم ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الامام الاوحد جمال الدين أبي الفضائل بن عليّ الجوزي بأزاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي وهو يجلس به كل يوم سبت فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد وفي جوف الفرا كل الصيد آية الزمان وقرة عين الايمان رئيس الحنبلية والمخصوص في العلوم بالرتب العلية أمام الجماعة وفارس حلبة هذه الصناعة والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة مالك أزمة الكلام في النظم والنثر والغائص في بحر فكره على نفائس الدر فأما نظمه فرضى الطباع مهارى الانطباع وأما نثره فيصدع بسحر البيان ويعطل المثل بقس وسحبان ومن أبهر آياته وأكبر معجزاته انه يصعد المنبر ويبتدئ القراء بالقرآن وعددهم نيف على العشرين قارئاً فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق فاذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات الى أن يتكاملوا قراءة وقد أتوا بآيات مشتبهات لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عدداً أو يسميها نسقاً فاذا فرغوا أخذ هذا الامام الغريب الشأن في ايراد خطبته عجلا مبتدراً وأفرغ في أصداف الاسماع من ألفاظه درراً وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء

خطبته فقرأ وأتى بها على نسق القراءة لها لا مقدماً ولا مؤخراً ثم
أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها فلو أن أبدع من في مجلسه تكلف
تسمية ما قرأ القراء آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك فكيف بمن
ينتظمها مرتجلا ويورد الخطبة الغراء بها عجلا (أفسحر هذا أم أنتم لا
تبصرون ان هذا لهو الفضل المبين) فحدث ولا حرج عن البحر وهيهات
ليس الخبر عنه كالخبر ثم انه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من
الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقاً وذابت بها الانفس
احتراقاً الى أن علا الضجيج وتردد بشهقاته النشيج وأعلن التائبون بالصياح
وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح كل يلقي ناصيته بيده فيجزها
ويمسح على رأسه داعياً له ومنهم من يغشى عليه فيرفع في الاذرع اليه فشاهدنا
هولا يملأ النفوس انابة وندامة ويذكرها هول يوم القيامة فلو لم نركب
ثبج البحر ونعتسف مفازات القفر الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا
الرجل لكانت الصفقة الرابحة والوجهة المفلحة الناجحة والحمد لله على
أن منّ بلقاء من يشهد الجمادات بفضله ويضيق الوجود عن مثله وفي
أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل وتطير اليه الرقاع فيجاوب أسرع من
طرفة عين وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل والفضل
بيد الله يؤتيه من يشاء لا اله سواه ثم شاهدنا مجلساً ثانياً له بكرة يوم الخميس
الحادي عشر لصفر بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة
عليه وهذا الموضع المذكور وهو من حرم الخليفة وخص بالوصول اليه
والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من

الحرم ويفتح الباب للعامة فيدخلون الى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر وجلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور وقعدنا الى أن وصل هذا الحبر المتكلم فصعد المنبر وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعاً لحرمة المكان وقد تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب وشوقوا ماشاؤا . وأطربوا ما أرادوا . وبادرت العيون بارسال الدموع . فلما فرغوا من القراءة وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات صدع بخطبته الزهراء الغراء واتي بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات ومشي الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب الى ان أكملها وكانت الآية (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ان الله لذو فضل على الناس) فتمادى على هذا السين . وحسن أي تحسين فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه . ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته وكنى عنها بالستر الاشرف . والجناب الأرأف ثم سلك سبيله في الوعظ . كل ذلك بديهة لاروية ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروآت على النسق مرة أخرى فأرسلت وابلها العيون وأبدت النفوس سر شوقها المكنون وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين بالتوبه معلنين وطاشت الالباب والعقول وكثر الوله والذهول وصارت النفوس لاتملك تحصيلا ولا تميز معقولا ولا تجد للصبر سبيلا . ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق بديعة الترقيق تشعل القلوب وجداً ويعود موضوعها النسيبي زهداً وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من

الاحترام وأصابت المقاتل سهام ذلك الكلام

أين فؤادي أذابه الوجد — وأين قلبي فما صحا بعد

ياسعد زدني جوى بذكرهم — بالله قل لي فديت ياسعد

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه الى ان خاف الافحام فابتدر القيام ونزل عن المنبر دهشاً عجلاً وقد أطار القلوب وجلاً وترك الناس على أحر من الجمر يشيعونه بالمدامع الحمر . فمن معلن بالانتحاب . ومن متعفر في التراب . فياله من مشهد ما أهول مرآه . وما أسعد من رآه نفعنا الله ببركته . وجعلنا ممن فاز به بنصيب من رحمته . بمنه وفضله . وفي أول مجالسه أنشد قصيداً نير القبس . عراقي النفس في الخليفة أوله

فى شغل من الغرام شاغل — ما حاجه البرق بسفح عاقل

يقول فيه عند ذكر الخليفة

ياكلمات الله كوني عوذة — من العيون للامام الكامل

ففرغ من انشاده وقد هز المجلس طربا ثم أخذ في شأنه وتمادي في ايراد سحر بيانه وما كنا نحسب أن متكلما في الدنيا يعطي من ملكة النفوس والتلاعب بها ما أعطي هذا الرجل فسبحان من يخص بالكلام من يشاء من عباده لا إله غيره وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد ممن يستغرب شأنه بالاضافة لما عهدناه من متكلمي الغرب وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة شرفهما الله مجالس من قد ذكرناه في هذا التقييد فصغرت بالاضافة لمجلس هذا الرجل الفذ في نفوسنا قدراً ولم نستطب لها

ذكراً وأين تقعان مما أريد وشتان بين اليزيدين وهبات الفتيان كثير
والمثل بمالك يسير ونزلنا بعده بمجلس يطيب سماعه ويروق استطلاعه
وحضرناله. مجلساً ثانياً يوم السبت الثالث عشر لصفر بالموضع المذكور بأزاء
داره على الشط الشرقي فأخذت معجزاته البيانية مأخذها فشاهدنا من أمره
عجباً صعد بوعظه أنفاس الحاضرين سحباً وأسال من دمعهم وابلا سكباً
ثم جعل يردد في آخر مجلسه أبيات من النسيب شوقاً زهدياً وطرباً
الى أن غلبته الرقة فوثب من أعلى منبره والهاً مكتئباً وغادر الكل
متندماً على نفسه منتحباً لهفان ينادي ياحسرتا واحرباه والنادبون يدورون
بنحيبهم دور الرحا وكل منهم بعد من سكرته ماصحا فسبحان من خلقه
عبرة لاولى الالباب وجعله لتوبة عباده أقوي الاسباب لا اله سواه
(ثم نرجع الى ذكر بغداد) هي كما ذكرناه جانبان شرقي وغربي ودجلة
بينهما فأما الجانب الغربي فقد عمه الخراب واستولي عليه وكان المعمور
أولا وعمارة الجانب الشرقي محدثة لكنه مع استيلاء الخراب عليه
يحتوى على سبع عشرة محلة كل محلة منها مدينة مستقلة وفي كل واحدة
منها الحمامان والثلاثة والثمان منها بجوامع يصلى فيها الجمعة فأكبرها القرية
وهي التي نزلنا فيها بربض منها يعرف بالمربعة على شط دجلة بمقربة من
الجسر فحملته دجلة بمدها السيلي فعاد الناس يعبرون بالزوارق والزوارق
فيها لا تحصي كثرة فالناس ليلا ونهاراً من تمادى العبور فيها في نزهة
متصلة رجالا ونساء والعادة أن يكون لها جسران أحدهما مما يقرب من
دور الخليفة والآخر فوقه لكثرة الناس والعبور في الزوارق لاينقطع

منها ثم الكرخ وهي مدينة مسورة ثم محلة باب البصرة وهي أيضاً مدينة
وبها جامع للمنصور رحمه الله وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيله
ثم الشارع وهي أيضاً مدينة فهذا الاربع أكبر المحلات وبين الشارع
ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهى مدينة صغيرة فيها المارستان
الشهير ببغداد وهو على دجلة وتتفقده الاطباء كل يوم اثنين وخميس
ويطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون اليه وبين
أيديهم قومة يتناولون طبخ الادوية والاغذية وهو قصر كبير فيه
المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية والماء يدخل اليه من
دجلة وأسماء سائر المحلات يطول ذكرها كالوسيطة وهى بين دجلة ونهر
يتفرع من الفرات وينصب في دجلة يجيء فيه جميع المرافق التى في
الجهات التى يسقيها الفرات ويشق على باب البصرة الذى ذكرنا محلته
نهر آخر منه وينصب أيضاً في دجلة ومن أسماء المحلات العتابية وبها
تصنع الثياب العتابية وهى حرير وقطن مختلفات الالوان ومنها الحربية
وهي أعلاها وليس وراءها الا القرى الخارجة عن بغداد الى أسماء
يطول ذكرها وباحدي هذه المحلات قبر معروف الكرخي وهو رجل
من الصالحين مشهور الذكر في الاولياء وفى الطريق الى باب
البصرة مشهد حفيل البنيان داخله قبر متسع السنام عليه
مكتوب هذا قبر عون ومعين من أولاد أمير المؤمنين على بن أبي
طالب رضى الله عنه وفى الجانب الغربى أيضاً قبر موسى بن جعفر
رضي الله عنهما الى مشاهد كثيرة ممن لم تحضرنا تسميته من الاولياء

والصالحين والسلف الكريم رضى الله عن جميعهم وبأعلى الشرقية خارج البلد محلة كبيرة بإزاء محلة الرصافة وبالرصافة كان باب الطاق المشهور على الشط وفى تلك المحلة مشهد حفيل البنيان له قبة بيضاء سامية في الهواء فيه قبر الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وبه تعرف المحلة وبالقرب من تلك المحلة قبر الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وفي تلك الجهة أيضاً قبر أبى بكر الشبلى رحمه الله وقبر الحسين ابن منصور الحلاج وببغداد من قبور الصالحين كثير رضى الله عنهم وبالغربية هي البساتين والحدائق ومنها تجلب الفواكه الى الشرقية وأما الشرقية فهي اليوم دار الخلافة وكفاها بذلك شرفاً واحتفالاً ودور الخليفة مع آخرها وهى تقع منها فى نحو الربع أو أزيد لأن جميع العباسيين في تلك الديار معتقلين اعتقالاً جميلا لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة بهم وللخليفة من تلك الديار جزء كبير قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائعة والبساتين الانيقة وليس له اليوم وزيراً انما له خديم يعرف بنائب الوزارة يحضر الديوان المحتوى على أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الامور وله قيم على جميع الديار العباسية وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية يعرف بالصاحب مجد الدين استاذ الدار هذا اللقب ويدعى له إثر الدعاء للخليفة وهو قل ما يظهر للعامة اشتغالا بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها والتكفل بمغالقها وتفقدها ليلا ونهاراً ورونق هذا الملك انما هو على الفتيان

والاحابش المجابيب منهم فتى اسمه خالص وهو قائد العسكرية كلها أبصرناه خارجاً أحد الايام وبين يديه وخلفه أمراء الاجناد من الاتراك والديلم وسواهم وحوله نحو خمسين سيفاً مسلولة في أيدي رجال قد احتفوا به فشاهدنا من أمره عجباً في الدهر وله القصور والمناظر على دجلة وقد يظهر الخليفة في بعض الاحيان بدجلة راكباً فى زورق وقد يصيد فى بعض الاوقات فى البرية وظهوره على حالة اختصار تعمية لامره على العامة فلا يزداد أمره مع تلك التعمية الا اشتهاراً وهو مع ذلك يحب الظهور للعامة ويؤثر التحبب لهم وهو ميمون النقيبة عندهم قد استسعدوا بأيامه رخاء وعدلا وطيب عيش فالكبير والصغير منهم داع له أبصرنا هذا الخليفة المذكور وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ويتصل نسبه الى أبي الفضل جعفر المقتدر بالله الى السلف فوقه من أجداده الخلفاء رضوان الله عليهم بالجانب الغربي أمام منظرته وقد انحدر عنها صاعداً في الزورق الى قصره بأعلى الجانب الشرقى على الشط وهو فى فتاء من سنه أشقر اللحية صغيرها كما اجتمع بها وجهه حسن الشكل جميل المنظر أبيض اللون معتدل القامة رائق الرواء سنه نحو الخمس وعشرين سنة لابساً ثوباً أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الاوبار الغالية القيمة المتخذة للباس الملوك مما هو كالفنك وأشرف متعمداً بذلك زي الاتراك تعمية لشأنه لكن الشمس لا تخفى وان سترت وذلك عشية يوم السبت

السادس لصفر سنة ثمانين وأبصرناه أيضاً عشي يوم الاحد بعده متطلعاً من منظرته المذكورة بالشرق الغربي وكنا نسكن بمقربة منها والشرقية حفيلة الاسواق عظيمة الترتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم الا الله تعالى الذي أحصى كل شيء عدداً وبها من الجوامع ثلاثة كل يجمع فيها جامع الخليفة متصل بداره وهو جامع كبير وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة مرافق الوضوء والطهور وجامع السلطان وهو خارج البلد ويتصل به قصور تنسب للسلطان أيضاً معروف بشاه شاه وكان مدبر أمر أجداد هذا الخليفة وكان يسكن هنالك فابتنى الجامع أمام مسكنه وجامع الرصافة وهو على الجانب الشرقي المذكور وبينه وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافة نحو الميل وبالرصافة تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله فجميع جوامع البلد ببغداد المجمع فيها أحد عشر وأما حماماتها فلا تحصى عدة ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الالفي حمام وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل للناظر أنه رخام اسود صقيل وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم لان شأنه عجيب يجلب من عين بين البصرة والكوفة وقد انبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار فهو يصير في جوانبها كالصلصال فيجرف ويجلب وقد انعقد فسبحان خالق ما يشاء لا إله سواه وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير فضلا عن الاحصاء والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية وما منها مدرسة الا وهي يقصر القصر البديع عنها وأعظمها وأشهرها

النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك وجددت سنة أربع وخمسمائة ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير الي الفقهاء المدرسين بها ويجرون بها على الطلبة مايقوم بهم ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد فرحم الله واضعها الاول ورحم من تبع ذلك السنن الصالح وللشرقية أربعة أبواب فأولها وهو فى أعلى الشط باب السلطان ثم باب الظفرية ثم يليه باب الحلبة ثم باب البصلية هذه الابواب التى هى فى السور المحيط بها من أعلى الشط الى أسفله هو ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة وداخلها في الاسواق أبواب كثيرة وبالجملة فشأن هذه البلدة أعظم من أن يوصف وأين هى مما كانت عليه هى اليوم داخلة تحت قول حبيب

* لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديار *

واتفق رحيلنا من بغداد الى الموصل أثر صلا العصر من يوم الاثنين الخامس عشر لصفر وهو الثامن والعشرون لمايه فكان مقامنا بها ثلاثة عشر يوما ونحن فى صحبة الخاتونين خاتون بنت مسعود المتقدمة الذكر في هذا التقييد وخاتون أم معز الدين صاحب الموصل وأرض الاعاجم المتصلة بالدروب التى الى طاعة الامير مسعود والد إحدي الخاتونين المذكورتين وتوجه حاج خراسان وما يليها صحبة الخاتون الثالثة ابنة الملك الدقوس وطريقهم على الجانب الشرقى من بغداد وطريقنا نحن الى الموصل علي الجانب الغربي منها وهاتان الخاتونان هما

أميرنا هذا العسكر الذى توجهنا فيه وقائدناه والله لا يجعلنا تحت قول القائل

* ضاع الرعيل ومن يقوده *

ولها أجناد برسمها وزادها الخليفة جنداً يشيعونهما مخافة العرب الخفاجيين المضرين بمدينة بغداد وفي تلك العشية التي رحلنا فيها لجاءتنا خاتون المسعودية المترفة شبابا وملكاً وهي قد استقلت فى هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين الواحدة امام الاخرى وعليهما الجلال المذهبة وهما يسيران بها سير النسيم سرعة وليناً وقد فتح لهـا أمام الهودج وخلفه بابان وهي ظاهرة فى وسطه متنقبة وعصابة ذهب على رأسها وأمامها رعيل من فتيانها وجندها وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق وورائها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة وعصبن رؤسهن بالعصائب الذهبيات والنسيم يتلاعب بعذباتهن وهنّ يسرن خلف سيدتهنّ سير السحاب ولها الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها وأبصرنا من نخوة الملك النسائي واحتفاله رتبة تهز الارض هزاً وتسحب أذيال الدنيا عزاً ويحق أن يخدمها العز ويكون لها هذا الهز فان مسافة مملكة أبيها نحو الاربعة أشهر وصاحب القسطنطينيه يؤدى اليه الجزية وهو من العدل في رعية على سيرة عجيبة ومن موالاة الجهاد على سنة مرضية وأعلمنا أحد الحجاج من أهل بلدنا أن في هذا العام الذى هو عام تسعة وسبعين الخالي عنا استفتح من بلاد الروم نحو الخمسة وعشرين بلداً ولقبه عز الدين واسم أبيه مسعود وهذا الاسم غلب

عليه وهو عريق في المملكة عن جد لجد ومن شرف خاتون هذه
واسمها سلجوقة ان صلاح الدين استفتح آمد بلد زوجها نور الدين
وهي من أعظم بلاد الدنيا فترك البلد لها كرامة لأبيها وأعطاها المفاتيح
فبقى ملك زوجها بسببها وناهيك من هذا الشأن والملك ملك الحي
القيوم يؤتى الملك من يشاء لا إله سواه فكان مبيتنا تلك الليلة بأحدى
قري بغداد نزلناها وقد مضى هدء من الليل وبمقربة منها دجيل وهو
نهر يتفرع من دجلة يسقى تلك القرى كلها وغدونا من ذلك الموضع
ضحى يوم الثلاثاء السادس عشر لصفر المذكور والقري متصلة في
طريقنا فاتصل سيرنا الى أثر صلاة الظهر ونزلنا وأقمنا باقي يومنا ليلحقنا
من تأخر من الحاج ومن تجار الشام والموصل ثم رحلنا قبيل نصف
الليل وتمادى سيرنا الي أن ارتفع النهار فنزلنا قائلين ومريحين على دجيل
وأسرينا الليل كله فنزلنا مع الصباح بمقربة من قرية تعرف (بالحربة) من
أخصب القري وأفسحها ورحلنا من ذلك الموضع وأسرينا الليل كله
ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر لصفر على شط دجلة
بمقربة من حصن يعرف (بالمعشوق) ويقال انه كان متفرجا لزبيدة ابنة
عم الرشيد وزوجه رحمه الله وعلى قبالة هذا الموضع في الشط الشرقى
مدينة (سُرَّ من رأى) وهي اليوم عبرة من رأي أين معتصمها واثقها
ومتوكلها مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها الا بعض جهات منها
هي اليوم معمورة وقد أطنب المسعودى رحمه الله في وصفها ووصف
طيب هوائها ورائق حسنها وهي كما وصف وان لم يبق الا الأثر من

محاسنها والله وارث الارض ومن عليها لا إله غيره فأقمنا بهذا الموضع طول يومنا مستريحين وبيننا وبين مدينة تكريت مرحلة ثم رحلنا منه وأسرينا الليل كله فصبحنا تكريت مع الفجر من يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر وهو أول يوم من يونيه فنزلنا ظاهرها مستريحين ذلك اليوم •

﴿ ذكر مدينة تكريت حرسها الله تعالى ﴾

هي مدينة كبيرة واسعة الارجاء فسيحة الساحة حفيلة الاسواق كثيرة المساجد غاصة بالخلق أهلها أحسن أخلاقا وقسطا فى الموازين من أهل بغداد ودجلة منها في جوفيها ولها قلعة حصينة على الشط هى قصبتها المنيعة ويطيف بالبلد سور قد أثر الوهن فيه وهى من المدن العتيقة المذكورة ورحلنا عشى اليوم المذكور وأسرينا طول الليل وأصبحنا يوم السبت الموافى عشرين منه بشط دجلة فنزلنا مريحين ومن ذلك الموضع يستصحب الماء ليوم وليلة فاستصحبناه ورحلنا ذلك اليوم ضحوة فأسرينا الي الليل ونزلنا لأخذ نفس راحة واختلاس سنة نوم فهو منا هنيهة ورحلنا واسأدنا الى الصباح وتمادى سيرنا الى أن ارتفع النهار من يوم الاحد بعده فنزلنا قائلين بقرية علي شط دجلة تعرف بالجديدة وبمقربة منها قرية كبيرة اجتزنا عليها تعرف بالعقر وعلى رأسها ربوة مرتفعة كانت حصناً لها وأسفلها خان جديد بأبراج وشرف حفيل البنيان وثيقه والقرى والعمائر من هذا الموضع الى

الموصل متصلة ومن هنا ينتثر نظام الحاج في المشى فينبسط كل في طريقه متقدما ومتأخراً وبطيئاً ومستعجلا آمناً مطمئناً فرحلنا منها قريب العصر وتمادي سيرنا الى المغرب ونزلنا آخذين غفوة سنة خلال ما تتعشي الابل ورحلنا قبل نصف الليل وأدلجنا الى الصباح وفي ضحوة هذا اليوم وهو يوم الاثنين الثاني والعشرين لصفر والرابع ليونيه مررنا بموضع يعرف (بالقيارة) بمقربة من دجلة وبالجانب الشرقي منها وعن يمين الطريق الى الموصل فيه وهدة من الارض سوداء كأنها سحابة قد أنبط الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً تنبع بالقار وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسط على الارض أسود أملس صقيلا رطباً عطر الرائحة شديد التعلك فيلصق بالاصابع بأول مباشرة من اللمس وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه الى جوانبها فيرسب قاراً فشاهدنا عجباً كنا نسمع به فنستغرب سماعه وبمقربة من هذه العيون على شط دجلة عين أخرى منه كبيرة أبصرنا على البعد منها دخاناً فقيل لنا ان النار تشعل فيه اذا أرادوا نقله فتنشف النار رطوبته المائية وتعقده فيقطعونه قطرات ويحملونه وهو يعم جميع البلاد الى الشام الى عكة الي جميع البلاد البحرية والله يخلق ما يشاء سبحانه وتعالى جده وجلت قدرته لا رب غيره ولا شك أن على هذه الصفة هي العين التي ذكر لنا أنها بين الكوفة والبصرة وقد ذكرنا أمرها في هذا التقييد ومن هذا الموضع الى الموصل

مرحلتان وأجزنا تلك العيون القارية ونزلنا قائلين ثم رحنا وسرنا الى العشى ونزلنا بقرية تعرف (بالمقية) ومنها تصبح الموصل ان شاء الله فأسرينا منها بعد نصف الليل ووصلنا الموصل عند ارتفاع النهار من يوم الثلاثاء الثالث والعشرين لصفر والخامس من يونيه ونزلنا بربضها فى أحد الخانات بمقربة من الشط

﴿ ذكر مدينة الموصل حرسها الله تعالى ﴾

هذه المدينة عتيقة ضخمة حصينة فخمه قد طالت صحبتها للزمن فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن قد كادت أبراجها تلتقى انتظاماً لقرب مسافة بعضها من بعض وباطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله كان قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه وللمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية وهي من المرافق الحربية وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصاً ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع يمتد من أعلى البلد الى أسفله ودجلة شرقي البلد وهي متصلة بالسور وأبراجه في مائها وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق وأحدث فيه بعض أمراء البلدة وكان يعرف بمجاهد الدين جامعاً على شط دجلة ما أري وضع جامع أحفل منه بناء يقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه وكل ذلك نقش فى الآجر وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ويطيف به شبابيك حديد

تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد أشرف منها ولا أحسن ووصفه يطول وانما وقع الالماع بالبعض جرياً الى الاختصار وأمامه مارستان حفيل من بناه مجاهد الدين المذكور وبنى أيضاً داخل البلد وفى سوقه قيسارية للتجار كأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض قد جلى ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف الذى لا مثيل له فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها وللمدينة جامعان أحدهما جديد والآخر من عهد بنى أمية وفي صحن هذا الجامع قبة داخلها سارية رخام قائم قد خلخل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة فتل السوار من جرم رخامها وفي أعلاها خصة رخام مثمنة يخرج عليها أنبوب من الماء خروج انزعاج وشدة فيرتفع فى الهواء أزيد من القامة كأنه قضيب من البلور معتدل ثم ينعكس الى أسفل القبة ويجمع في هذين الجامعين القديم والحديث ويجمع أيضاً في جامع الربض وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرفة ولها مارستان حاشي الذى ذكرناه في الربض وخص الله هذه البلدة بتربة مقدسة فيها مشهد جرجيس صلى الله عليه وسلم وقد بنى فيها مسجد وقبره في زاوية من أحد بيوت المسجد عن يمين الداخل اليه وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر يجده المار الى الجامع من باب الجسر عن يساره فتبركنا بزيارة هذا القبر المقدس والوقوف عنده نفعنا الله بذلك ومما خص الله به هذه البلدة ان في الشرق منها اذا عبرت دجلة على نحو الميل تل التوبة وهو التل

الذي وقف به يونس عليه السلام بقومه ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب وبمقربة منه على قدر الميل أيضاً العين المباركة المنسوبة اليه ويقال انه أمر قومه بالتطهر فيها واضمار التوبة ثم صعدوا على التل داعين وفي هذا التل بناء عظيم هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجميع باب واحد وفي وسط ذلك البناء بيت ينسدل عليه ستر وينغلق دونه باب كريم مرصع كله يقال انه كان الموضع الذي وقف فيه يونس صلى الله عليه وسلم ومحراب هذا البيت يقال انه كان بيته الذي كان يتعبد فيه ويطيف بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخل عظما فيخرج الناس الى هذا الرباط كل ليلة جمعة ويتعبدون فيه وحول هذا الرباط قرى كثيرة ويتصل بها خراب عظيم يقال انه كان مدينة نينوَى وهي مدينة يونس عليه السلام وأثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر وفرج الابواب فيه بينة وأكوام أبراجه مشرفة بتنا بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر ثم صبحنا العين المباركة وشربنا من مائها وتطهرنا فيها وصلينا في المسجد المتصل بها والله ينفع بالنية في ذلك بمنه وكرمه وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة يستعملون أعمال البر فلا تلقى منهم الا ذا وجه طلق وكلمة لينة ولهم كرامة للغرباء واقبال عليهم وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم فكان مقامنا في هذه البلدة أربعة أيام ومن أحفل المشاهد الدنيوية المريبة بروز شاهدناه يوم الاربعاء ثاني يوم وصولنا الموصل للخاتونين أم معز الدين صاحب الموصل وبنت الامير مسعود المتقدم ذكرها

فخرج الناس عن بكرة أبيهم ركباناً ومشاة وخرج النساء كذلك وأكثرهن راكبات وقد اجتمع منهن عسكر جرار وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة قد جللوا أعناق ابلهم بالحرير الملون وقلدوها القلائد المزوقة ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الاكف وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات فلا تكاد تبين من القبة موضعاً ومطيتاها تزحفان بها زحفاً وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ومطاياها مجللة الاعناق بالذهب ومراكب جواريها كذلك مجموع ذلك الذهب لايحصى تقديره وكان مشهداً أبهت الابصار وأحدث الاعتبار وكل ملك يفنى الاملاك الواحد القهار لاشريك له وأخبرنا غير واحد من الثقات ممن يعرف حال خاتون هذه انها موصوفة بالعبادة والخير مؤثرة لافعال البر فمنها انها أنفقت في طريقها هذا الى الحجاز في صدقات ونفقات في السبيل مالاً عظيماً وهي تحب الصالحين والصالحات وتزورهم متنكرة رغبة في دعائهم وشأنها عجيب كله على شبابها وانغماسها في نعيم الملك والله يهدي من يشاء من عباده وفي عشي اليوم الرابع من المقام بهذه البلدة وهو يوم الجمعة السادس والعشرين لصفر المذكور رحلنا منها على دواب اشتريناها بالموصل تفاديا من معاملة الجمالين على ان القدر المحمود لم يسبب لنا الاصحبة الاشبه منهم ومن شكرنا على طول الصحبة وتماديها من مكة شرفها الله الى الموصل فأسرينا ليلة السبت الى بعيد

نصف الليل ثم نزلنا بقرية من قري الموصل ورحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور وقلنا بقرية تعرف بعين الرصد وكان مقيلنا تحت جسر معقود على واد يجد فيه الماء وكان مقيلا مباركا وفي تلك القرية خان كبير جديد وفي محلات الطريق كلها خانات واتفق مبيتنا تلك الليلة بالقرية المذكورة وأسرينا منها وأصبحنا يوم الاحد بقرية تعرف (بالمويلحة) وأسرينا منها وبتنا بقرية كبيرة تعرف (بجدال) لها حصن عتيق وفي يومنا هذا رأينا عن يمين الطريق جبل الجودى المذكور فى كتاب الله تعالى الذى استوت عليه سفينة نوح عليه السلام وهو جبل عال مستطيل ثم رحلنا فى السحر الاعلى من يوم الاثنين التاسع والعشرين لصفر فكان مبيتنا بقرية من قرى (نصيبين) ومنهـا اليها مرحلة ويعرف الموضع المذكور بالكلالى

﴿ شهر ربيع الاول من سنة ثمانين عرفنا الله بركته ﴾

استهل هلاله ليلة الثلاثاء بموافقة الثانى عشر من يونيو ونحن بالقرية المذكورة فرحلنا منها سحر يوم الثلاثاء المذكور ووصلنا نصيبين قبل الظهر من اليوم المذكور

﴿ ذكر مدينة نصيبين حرسها الله ﴾

شهيرة العتاقة والقدم ظاهرها شباب وباطنها هرم جميلة المنظر متوسطة بين الكبر والصغر يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه وتطرد فى نواحيه وتحف بها

عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار يانعة الثمار ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار والحدائق تنتظم بحافتيه وتفيء ظلالها الوارفة عليه فرحم الله أبا نواس الحسن بن هاني حيث يقول

طابت نصيبين لي يوماً فطبت لها   يا ليت حظي من الدنيا نصيبين

فخارجها رياضي الشمائل أندلسي الخمائل يرف غضارة ونضارة ويتألق عليه رونق الحضارة وداخلها شعث البادية بادعليه فلا مطمح للبصر اليه لا تجد العين فيه فسحة مجال ولا مسحة جمال وهذا النهر ينسرب اليها من عين معينة منبعها بجبل قريب منها تنقسم منها مذانب تخترق بسائطها وعمائرها وتخالل البلد منها جزء فيتفرق على شوارعها ويلج فى بعض ديارها ويصل الى جامعها المكرم منه سرب يخترق صحنه وينصب في صهريجين أحدهما وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقى منه ويفضى الى سقايتين حول الجامع وعلى النهر المذكور جسر معقود من صم الحجارة يتصل بباب المدينة القبلي وفيها مدرستان ومارستان واحد وصاحبها معين الدين أخو معز الدين صاحب الموصل أبناء بابك ولمعين الدين أيضاً مدينة (سنجار) وهي عن يمين الطريق الى الموصل ويسكن في احدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم الشيخ أبو اليقظان الاسود الجسد الابيض الكبد أحد الاولياء الذين نور الله بصائرهم بالايمان وجعلهم من الباقيات الصالحات فى الزمان الشهير المقامات الموصوف بالكرامات نضو التبتل والزهادة ومن اخلقت جدته العبادة قدا كتفى بنسج يده ولا يدخر من قوت يومه لغده أسعدنا

الله بلقائه وأصبحنا من بركة دعائه عشي يوم الثلاثاء مستهل ربيع
الاول فحمدنا الله عز وجل على ان من علينا برؤيته وشرفنا بمصافحته
والله ينفعنا بدعائه انه سميع مجيب لا اله سواه فكان نزولنا بها في خان
خارجها وبتنا بها ليلة الاربعاء الثاني من ربيع الاول ورحلنا صبيحته
في قافلة كبيرة من البغال والحمير حرانيين وحلبيين وسواهم من أهل
البلاد وبلاد بكر وما يليها وتركنا حاج هذه الجهات وراء ظهورنا على
الجمال فتمادى سيرنا الى أول الظهر ونحن على أهبة وحذر من اغارة
الاكراد الذين هم آفة هذه الجهات من الموصل الى نصيبين الى مدينة
دنيصر يقطعون السبيل ويسعون فساداً في الارض وسكناهم في جبال
منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة ولم يعن الله سلاطينها على قمعهم
وكف عاديتهم فهم ربما وصلوا في بعض الاحيان الى باب نصيبين ولا
دافع لهم ولا مانع الا الله عز وجل فقلنا يوم الاربعاء المذكور ورأينا
ذلك اليوم عن يمين طريقنا بقرب من صفح الجبل مدينة (دارى العتيقة)
وهي بيضاء كبيرة لها قلعة مشرف ويليها بمقدار نصف مرحلة مدينة
(ماردين) وهي في سفح جبل في قنته قلعة لها كبيرة وهي من قلاع الدنيا
الشهيرة وكلتا المدينتين معمورة

﴿ ذكر مدينة دنيصر حرسها الله ﴾

هي في بسيط من الارض فسيح وحولها بساتين الرياحين والخضر
تسقى بالسواقي وهي مائلة الطبع الى البادية ولا سور لها وهي مشحونة

بشرا ولها الاسواق الحفيلة والارزاق الواسعة وهي مخطر لاهل بلاد الشام وديار بكر وآمد وبلاد الروم التي تلي طاعة الامير مسعود وما يليها ولها المحرث الواسع ولها مرافق كثيرة فكان نزولنا مع القافلة ببراح ظاهرها وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع الاول بها مريحين وخارجها مدرسة جديدة بقية البناء فيها ويتصل بها حمام والبساتين حولها فهي مدرسة ومأنسة وصاحب هذه البلدة قطب الدين وهو أيضاً صاحب مدينة (دارى) ومدينة (ماردين) (ورأس العين) وهو قريب لابني بابك وهذه البلدة لسلاطين شتى كملوك طوائف الاندلس كلهم قد تحلى بحلية تنسب الى الدين فلا تسمع الا ألقاباً هائلة وصفات لذى التحصيل غير طائلة قد تساوى فيها السوقة والملوك واشترك فيها الغنى والصعلوك ليس فيهم من ارتسم بسمة به تليق أو اتصف بصفة هو بها خليق الا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن المشتهر بالفضل والعدل فهذا اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه وما سوى ذلك في سواه فزعازع ريح وشهادات يردها التجريح ودعوي نسبة للدين برحت به أي تبريح

ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد

(ونرجع) الي حديث المراحل قربها الله فكان مقامنا بدنيصر الي أن صلينا الجمعة وهو اليوم الرابع لربيع الاول تلوّم أهل القافلة بها لشهود سوقها لأن بها يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ويوم الاحد بعدها سوق حفيلة يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها لأن الطريق كلها يميناً وشمالاً قرى متصلة وخانات

مشيدة ويسمون هذه السوق المجتمع اليها من الجهات البازار وأيام كل
سوق معلومة ورحلنا أثر صلاة الجمعة فاجتزنا على قرية كبيرة لها حصن
تعرف بتل العقاب هي للنصارى المعاهدين الذميين ذكرتنا هذه القرية
بقرى الاندلس حسناً ونضارة تحفها البساتين والكروم وأنواع الاشجار
وينسرب بازائها نهر ترف الظلال عليه وخطها متسع والبساتين قد انتظمته
وشاهدنا بها من الخنانيص أمثال الغنم كثرة وانساً باهلها ثم وصلنا
عشى النهار الى قرية أخرى تعرف بالجسر هي الآن لناس من المعاهدين
وهم فرقة من فرق الروم فكان مبيتنا بها ليلة السبت الخامس لربيع
المذكور ثم أسحرنا منها ووصلنا مدينة رأس العين قبيل الظهر من يوم
السبت المذكور .

﴿ ذكر مدينة رأس العين حرسها الله تعالى ﴾

هذا الاسم من أصدق الصفات وموضوع هذه أشرف الموضوعات
وذلك أن الله تعالى فجّر أرضها عيوناً وأجراها ماء معيناً فتقسمت
مذانب وانسابت جداول تنبسط في مروج خضر فكأنها سبائك
اللجين ممدودة في بساط الزبرجد تحف بها أشجار وبساتين قد انتظمت
حافيتها الى آخر انتهائها من عمارة بطحائها وأعظم هذه العيون عينان
احداهما فوق الاخرى فالعليا منهما نابعة فوق الارض في صم الحجارة
كأنها في جوف غار كبير متسع يبسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج
العظيم ثم يخرج ويسيل نهراً كبيراً كأكبر ما يكون من الانهار وينتهي

الى العين الاخري ويلتقي بمائها وهـذه العين الثانية عجيب من عجائب
مخلوقات الله عز وجل وذلك أنها نابعة تحت الارض من الحجر الصلد
نحو أربع قامات أو أزيد ويتسع منبعها حتي يصير صهريجاً في ذلك
العمق ويعلو بقوة نبعه حتى يسيل على وجه الارض فربما يروم السابح
القوى السباحه الشديد الغوص في اعماق المياه أن يصـل بغوصه الى
قعره فيمجه الماء بقوة انبعاثه من منبعه فلا يتناهي في غوصه الي مقدار
نصف مسافة العمق أو أقل شيئاً شاهدنا ذلك عياناً وماؤها أصفي
من الزلال وأعذب من السلسبيل يشف عما حواه فلو طرح الدينار فيه
فى الليلة الظلماء لما أخفاه ويصاد فيها سمك جليل من أطيب ما يكون
من السمك وينقسم ماء هذه العين نهرين أحدهما آخذ يميناً والآخر
يساراً فالايمن يشق خانقة مبنية للصوفية والغرباء بازاء العين وهي تسمى
الرباط أيضاً والايسر ينسرب على جانب الخانقة وتفضى منه جداول
الى مطاهرها ومرافقها المعـدة للحاجة البشرية ثم يلتقيان أسفلها مع
نهر العين الاخرى العليا وقد بنيت على شط نهرهما المجتمع بيوت ارحى
تتصل على شط موضوع ومحط النهر كأنه سد ومن مجتمع هاتين العينين
منشأ نهر الخابور وبمقربة من هذه الخانقة بحيث تناظرها (مدرسة)
بازائها حمام وكلاهما قد وهي وأخلق وتعطل وما أرى كان في موضوعات
الدنيا مثـل موضوع هـذه المدرسة لانها في جزيرة خضراء والنهر
يستدير بها من ثلاثة جوانب والمدخل اليها من جانب واحد وأمامها
ووراءها بستان وبازائها دولاب يلقي الماء الى بساتين مرتفعة عن مصب

النهر وشأن هذا الموضع كله عجيب جداً فغاية حسن القرى بشرق الاندلس أن يكون لها مثل هذا الموضع جمالا أو تحلى بمثل هذه العيون ولله القدرة فى جميع مخلوقاته وأما المدينة فللبداوة بها اعتناء وللحضارة عنها استغناء لا سور يحصنها ولا دور أنيقة البناء تحسنها قد ضحيت في صحراؤها كأنها عوذة لبطحاؤها وهى مع ذلك كاملة مرافق المدن ولها جامعان حديث وقديم فالقديم بموضع هذه العيون وتنفجر أمامه عين معينة هى بدون اللتين ذكرناهما وهو من بنيان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لكنه قد أثر القدم فيه حتى آذن بتداعيه والجامع الآخر داخل البلد وفيه يجمع أهله فكان مقامنا بها ذلك اليوم نزهة لم نختلس فى سفرنا كله مثلها فلما كان عند المغيب من يوم السبت الخامس لربيع المذكور وهو السادس عشر ليونيه رحلنا منها رغبة في الآساد وبرد الليل وتفاديا من حر هجيرة التأويب لان منها الى حران مسيرة يومين لا عمارة فيها سيرنا فتمادى الى الصباح ثم نزلنا فى الصحراء على ماء جب وأرحنا قليلا ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الاحد وسرنا ونزلنا قريب العصر على ماء بئر بموضع فيه برج مشيد وآثار قديمة يعرف ببرج حوّاء فبتنا به ثم رفعنا منه بعد تهويم ساعة وأسرينا الى الصباح فوصلنا مدينة حران مع طلوع الشمس من يوم الاثنين السابع لربيع المذكور والثامن عشر ليونيه والحمد لله على تيسيره •

﴿ ذكر مدينة حران كلاها الله تعالى ﴾

بلد لا حسن لديه ولا ظل يتوسط بَردَيهِ قد اشتق من اسمه

هواؤه فلا يألف البرد ماؤه ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه
لاتجد فيه مقيلا ولا تتنفس منه الا نفساً ثقيلا قد نبذ بالعراء ووضع في
وسط الصحراء فعدم رونق الحضارة وتعرت أعطافه من ملابس
النضارة أستغفر الله كفى بهذا البلد شرفا وفضلا انها البلدة العتيقة
المنسوبة لأبينا ابراهيم صلى الله عليه وسلم وله بقبليها نحو ثلاثة فراسخ
مشهد مبارك فيه عين جارية كان مأوي له ولسارة صلوات الله عليهما
ومتعبداً لهما ببركة هذه النسبة قد جعل الله هذه البلدة مقراً للصالحين
المتزهدين ومثابة للسائحين المتبتلين لقينا من افرادهم الشيخ أبا البركات
حيان ابن عبد العزيز حذاء مسجده المنسوب اليه وهو يسكن منه
في زاوية بناها في قبلته وتتصل بها في آخر الجانب زاوية لابنه عمر
قد التزمها وأشبه طريقة أبيه فما ظلم وتعرفت منه شنشنة أعرفها من
أخزم فوصلنا الى الشيخ وهو قد نيف على الثمانين فصافحنا ودعا لنا
وأمرنا بلقاء ابنه عمر المذكور فملنا اليه ولقيناه ودعا لنا ثم ودعناهما
وانصرفنا مسرورين بلقاء رجلين من رجال الآخرة ولقينا أيضاً بمسجد
عتيق الشيخ الزاهد سلمة فلقينا رجلا من الزهاد الافراد فدعا لنا
وسألنا وودعناه وانصرفنا وبالبلد سلمة آخر يعرف بالمكشوف الرأس
لا يغطي رأسه تواضعاً لله عز وجل حتى عرف بذلك ووصلنا الى
منزله فأعلمنا أنه خرج للبرية سائحاً وبهذه البلدة كثير من أهل الخير
وأهلها هينون معتدلون محبون للغرباء مؤثرون للفقراء وأهل هذه
البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة الى الشام على هذه السبيل

من حب الغرباء واكرام الفقراء وأهل قراها كذلك في محتاج الفقراء
الصعاليك معهم زاداً لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة وشأن أهل
هذه الجهات في هذا السبيل عجيب والله ينفعهم بما هم عليه وأما عبادهم
وزهادهم والسائحون في الجبال منهم فأكثر من أن يقيدهم الاحصاء
والله ينفع المسلمين ببركاتهم وصوالح دعواتهم بمنه وكرمه ولهذه البلدة
المذكورة أسواق حفيلة الانتظام عجيبة الترتيب مسقفة كلها بالخشب
فلا يزال أهلها في ظل ممدود فتخترقها كأنك تخترق داراً كبيرة
الشوارع قد بني عند كل ملتقى أربع سكك أسواق منها قبة عظيمة
مرفوعة مصنوعة من الجص هي كالمفرق لتلك السكك ويتصل بهذه
الاسواق جامعها المكرم وهو عتيق مجدد قد جاء على غاية الحسن وله
صحن كبير فيه ثلاثة قباب مرتفعة على سواري رخام وتحت كل قبة بئر
عذبة وفي الصحن أيضاً قبة رابعة عظيمة قد قامت على عشر سوار
من الرخام دور كل سارية تسعة أشبار وفي وسط القبة عمود من الرخام
عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبراً وهذه القبة من بنيان الروم وأعلاها
مجوف كأنه البرج المشيد يقال انه كان مخزناً لعدتهم الحربية والله أعلم
والجامع المكرم سقف بجوائز الخشب والحنايا وخشبه عظام طوال لسعة
البلاط وسعته خمس عشر خطوة وهو خمسة أبلطة وما رأينا جامعاً
أوسع حنايا منه وجداره المتصل بالصحن الذي عليه المدخل اليه مفتح
كله أبوابا عددهم تسعة عشر بابا تسعة يميناً وتسعة شمالا والتاسع عشر
منها باب عظيم وسط هذه الابواب يمسك قوسه من أعلى الجدار الى

أسفله بهي المنظر جميل الوضع كأنه باب من أبواب المدن الكبار
ولهذه الابواب كلها اغلاق من الخشب البديع الصنعة والنقش تنطبق
عليها على شبه أبواب مجالس القصور فشاهدنا من حسن بناء هذا
الجامع وحسن ترتيب أسواقه المتصلة به مرآي عجيباً قل ما يوجد في
المدن مثل انتظامه ولهذه البلدة مدرسة ومارستان وهي بلدة كبيرة
وسورها متين حصين مبنيّ بالحجارة المنحوتة المرصوص بعضها على
بعض في نهاية من القوة وكذلك بنيان الجامع المكرم ولها قلعة حصينة
مما يلي الجهة الشرقية منها منقطعة عنها بفضاء واسع بينهما ومنقطعة
أيضاً عن سورها بحفير عظيم يستدير بها قد شيدت حافاته بالحجارة
المركومة فجاء في نهاية الوثاقة والقوة وسور القلعة وثيق الحصانة ولهذه
البلدة نُهير مجراه بالجهة الشرقية أيضاً منها بين سورها وجباتها ومصبه
من عين هي على بعد من البلد والبلد كثير الخلق واسع الرزق حاصل
البركة كثير المساجد جم المرافق على أحفل ما يكون من المدن وصاحبه
مظفر الدين بن زين الدين وطاعته الى صلاح الدين وهذه البلاد كلها
من الموصل الى نصيبين الى الفرات المعروفة بديار ربيعة وحده من
نصيبين الي الفرات مع ما يلي الجنوب من الطريق وديار بكر التى تليها
في الجانب الجوفي كآمد وميافارقين وغيرها مما يطول ذكره ليس في
ملوكها من يناهض صلاح الدين فهم الي طاعته وان كانوا مستبدين
وفضله يُبقي عليهم ولو شاء نزع الملك منهم لفعله بمشيئة الله فكان
نزولنا ظاهر البلد بشرقيه على نهيره المذكور وأقمنا مريحين يوم الاثنين

ويوم الثلاثا بعده وأثر الظهر منه كان اجتماعنا بسلمة المكشوف الرأس
الذى فاتنا لقاؤه يوم الأثنين فلقيناه بمسجده فرأينا رجلا عليه سيما
الصالحين وسمت المحبين مع طلاقة وبشر وكرم لقاء وبر فآنسنا ودعا
لنا وودعناه وانصرفنا حامدين لله عز وجل على ما من به علينا من
لقاء أوليائه الصالحين وعباده المقربين وفي ليلة الاربعاء التاسع لربيع
المذكور كان رحيلنا بعد تهويم ساعة فأسرينا الى الصباح ونزلنا مريحين
بموضع يعرف بتل عبدة وهو موضع عمارة وهذا التل مشرف متسع
كأنه المائدة المنصوبة وفيه أثر بناء قديم وبهذا الموضع ماء جار وكان
رحيلنا منه عند المغرب وأسرينا الليل كله واجتزنا على قرية تعرف
بالبيضاء فيها خان كبير جديد وهو نصف الطريق من حران الى الفرات
ويقابلها على اليمين من الطريق في استقبالك الفرات الى الشام مدينة
سروج التى شهر ذكرها الحريرى بنسبة أبي زيد اليها وفيها البساتين
والمياه المطردة حسبما وصفها به فى مقاماته فكان وصولنا الى الفرات
ضحوة النهار وعبرنا في الزواريق المعدة للعبور الى قلعة جديدة
على الشط تعرف بقلعة نجم وحولها ديار بادية وفيها سويقة يوجد فيها
المهم من علف وخبز فأقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الاول المذكور
مريحين خلال ما تكمل القافلة بالعبور واذا عبرت الفرات حصلت في
حد الشام وسرت في طاعة صلاح الدين الى دمشق والفرات حد بين
ديار الشام وديار ربيعة وبكر وعن يسار الطريق في استقبالك الفرات
الى الشام مدينة الرقة وهى على الفرات وتليها رحبة مالك بن طوق

وتعرف برحبة الشام وهي من المدن الشهيرة ثم رحلنا منها عند مضى ثلث الليل الاول وأسرينا ووصلنا مدينة منبج مع الصباح من يوم الجمعة الحادى عشر لربيع المذكور والثانى والعشرين ليونيه

﴿ ذكر مدينة منبج حرسها الله تعالى ﴾

بلدة فسيحة الارجاء صحيحة الهواء يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء جوها صقيل ومجتلاها جميل ونسيمها أرج النشر عليل نهارها يَندَى ظله وليلها كما قيل فيه سحر كله تحف بغربيها وشرقيها بساتين ملتفة الاشجار مختلفة الثمار والماء يطرد فيها ويتخلل جميع نواحيها وخصص الله داخلها بآبار معينة شهدية العذوبة سلسبيلة المذاق تكون في كل دار منها البئر والبئران وأرضها أرض كريمة تستنبط مياهاً كلها وأسواقها وسككها فسيحة متسعة ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً وأعالي أسواقها مسقفة وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن من هذه الجهات لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الاحقاب حتى أخذ منها الخراب كانت من مدن الروم العتيقة ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها ولها قلعة حصينة في جوفيها تنقطع عنها وتنحاز منها ومدن هذه الجهات كلها لا تخلو من القلاع السلطانية وأهلها أهل فضل وخير سنيون شافعيون وهي مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحرفة والعقائد الفاسدة كما نجده فى الاكثر من هذه البلاد فمعاملتهم صحيحة وأحوالهم مستقيمة وجادتهم الواضحة

في ديهم من اعتراض بنيات الطريق سليمة فكان نزولنا خارجها في أحد بساتينها وأقمنا يوماً مريحين ثم رحلنا نصف الليل ووصلنا بزاعة ضحوة يوم السبت الثاني عشر لربيع المذكور

﴿ ذكر بلدة بزاعة كلاها الله عز وجل ﴾

بقعة طيبة الثرى واسعة الذرى تصغر عن المدن وتكبر عن القرى بها سوق تجمع بين المرافق السفرية والمتاجر الحضرية وفي أعلاها قلعة كبيرة حصينة رامها أحد ملوك الزمن فغلظته باستصعابها فأيس بثلم بنائها حتى غادرها عودة منبوذة لعرائها ولهذه البلدة عين معينة يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة وتريك بروقها الأنيق حسن الحضارة ويناظرها فى جانب البطحاء قرية كبيرة تعرف بالباب هى باب بين بزاعة وحلب وكان يعمرها منذ ثمانى سنين قوم من الملاحدة الاسماعيلية لا يحصي عددهم الا الله فطار شرارهم وقطع هذه السبيل فسادهم واضرارهم حتى داخلت أهل هذه البلاد العصبية وحركتهم الآنفة والحمية فتجمعوا من كل أوب عليهم ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم وعجلوا بقطع دابرهم وكومت بهذه البطحاء جماجمهم وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرهم وأحاق بهم مكرهم والحمد لله رب العالمين وسكانها اليوم قوم سنيون فأقمنا بها يوم السبت ببطحاء هذه البلدة مريحين ورحلنا فى الليل وأسرينا الى الصباح ووصلنا مدينة حلب ضحوة يوم الاحد الثالث عشر لربيع الاول والرابع والعشرين ليونيه

﴿ ذكر مدينة حلب حرسها الله تعالى ﴾

بلدة قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير محلها من النفوس أثير فكم هاجت من كفاح وسلت عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع معدومة الشبه والنظير فى القلاع تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع قاعدة كبيرة ومائدة من الارض مستديرة منحوتة الارجاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها عتيقة فى الأزل حديثة وان لم تزل قد طاولت الايام والاعوام وشيعت الخواص والعوام هذه منازلها وديارها فأين سكانها قديماً وعمارها وتلك دار مملكتها وفناؤها فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها أجل فنى جميعهم ولم يأن بعد فناؤها فيا عجبا للبلاد تبقى وتذهب أملاكها ويهلكون ولايقضى هلاكها تخطب بعدهم فلا يتعذر ملاكها وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها هذه حلب كم أدخلت من ملوكها فى خبر كان ونسخت ظرف الزمان بالمكان أنِّثَ اسمها فتحلت بزينة الغوان ودانت بالغدر فيمن خان وتجلت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان هيهات هيهات سيهرم شبابها ويعدم خطابها ويسرع فيها بعد حين خرابها وتتطرق جنبات الحوادث اليها حتى يرث الله الارض ومن عليها لا اله سواه سبحانه جلت قدرته وقد خرج بنا الكلام عن مقصده فلنعد الى ما كنا بصدده فنقول ان من شرف هذه القلعة انه يذكر

انها كانت قديماً في الزمان الاول ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل عليه
وعلى نبينا الصلاة والتسليم بغنيمات له فيحلبها هناك ويتصدق بلبنها فلذلك
سميت حلب والله أعلم وبها مشهد كريم له يقصده الناس ويتبركون
بالصلاة فيه ومن كمال خلالها المشترطة في حصانة القلاع ان الماء بها
نابع وقد صنع عليه جبان فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر
والطعام يصبر فيها الدهر كله وليس في شروط الحصانة أهم ولا أكد
من هاتين الخلتين ويطيف بهذين الجبين المذكورين سوران حصينان
من الجانب الذي ينظر للبلد ويعترض دونهما خندق لا يكاد البصر
يبلغ مدى عمقه والماء ينبع فيه وشأن هذه القلعة في الحصانة والحسن
أعظم من أن ننتهي الى وصفه وسورها الاعلى كله أبراج منتظمة فيها
العلالي المنيفة والقصاب المشرفة قد تفتحت كلها طيقاناً وكل برج منها
مسكون وداخلها المساكن السلطانية والمنازل الرفيعة الملوكية وأما البلد
فموضوعه ضخم جداً حفيل التركيب بديع الحسن واسع الاسواق
كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة الى سماط
صنعة أخرى الى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية وكلها مسقف
بالخشب فسكانها في ظلال وارفة فكل سوق منها تقيد الابصار حسناً
وتستوقف المستوفز تعجباً وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالا
مطيفة بالجامع المكرم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من
المرائي الرياضية وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة
قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش

وتفتح كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر وكل بساط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها قد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع مفتح كله أبواباً قصرية الحسن الى الصحن عددها ينيف عن الخمسين باباً فيستوقف الابصار حسن منظرها وفي صحنه بئران معينتان والبلاط القبلي لا مقصورة فيه فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها فى منبره فما أرى فى بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب فتجللت صفحاته كلها حسناً على تلك الصفة الغريبة وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتي اتصل بسمك السقف وقد قوس أعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية وهو مرصع كله بالعاج والآبنوس واتصال الترصيع من المنبر الي المحراب مع ما يليهما من القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال فتجتلى العيون منه أبدع منظر يكون فى الدنيا وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف ويتصل به من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً واتقان صنعة فهما فى الحسن روضة تجاور أخرى وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ومن أظرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتح كله بيوتاً وغرفا لها طيقان يتصل بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً أمامها فيمد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة وللبلدة سوى

هذه المدرسة نحو أربع مدارس أو خمس ولها مارستان وأمرها في الاحتفال عظيم فهي بلدة تليق بالخلافة وحسنها كله داخل لا خارج لها الا نهر يجرى من جوفيها الى قبليها ويشق ربضها المستدير بها فان لها ربضاً كبير فيه من الخانات ما لا يحصى عدده وبهذا النهر الارجاء وهى متصلة بالبلد وقائمة وسط ربضه وبهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله وكيف ما كان الامر فيه داخلا وخارجاً فهو من بلاد الدنيا التى لا نظير لها والوصف فيه يطول فكان نزولنا بربضة في خان يعرف بخان أبي الشكر فأقمنا به أربعة أيام ورحلنا ضحوة يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور والثامن والعشرين ليونيه ووصلنا (قنسرين) قبيل العصر فأرحنا بها قليلا ثم انتقلنا الى قرية تعرف (بتل تاجر) فكان مبيتنا بها ليلة الجمعة الثامن عشر منه وقنسرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان لكنها خربت وعادت كأن لم تغن بالامس فلم يبق الا آثارها الدارسة ورسومها الطامسة ولكن قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولا وتشبهها من البلاد الاندلسية جيان ولذلك يذكر ان أهل قنسرين عند استفتاح الاندلس نزلوا جيان تأنساً بشبه الوطن وتعللا به مثل ما فعل فى أكثر بلادها حسب ما هو معروف ثم رحلنا من ذلك الموضع عند الثلث الماضى من الليل فأسرينا وسرنا الى ضحوة من النهار ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف بباقدين في خان كبير يعرف بخان التركمان وثيق الحصانة وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعا وحصانة وأبوابها حديد وهي من الوثاقة

في غاية ثم رحلنا من هـذا الموضع وبتنا بموضع يعرف بتمنى في خان وثيق على الصفة المذكورة ثم أسحرنا منه يوم السبت التاسع عشر لربيع الاول المذكور وهو آخر يوم من يونيه ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين يوم الجمعة المذكور بلاد (المعرة) وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقا وورائها جبل (لبنان) وهو سامي الارتفاع ممتد الطول يتصل من البحر الى البحر وفي صفحته حصون للملاحدة الاسماعيلية فرقة مرقت من الاسلام وادعت الالهية فى أحد الانام قيض لهم شيطان من الانس يعرف بسنان خدعهم بأباطيل وخيلات موه عليهم باستعمالها وسحرهم بمحالها فاتخذوه آلها يعبدون ويبذلون الانفس دونه وحصلوا من طاعته وامتثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقة جبل فيتردي ويستعجل فى مرضاته الردى والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء بقدرته نعوذ به سبحانه من الفتنة في الدين ونسأله العصمة من ضلال الملحدين لارب غيره ولا معبود سواه وجبل لبنان المذكور هو حد بين بلاد المسلمين والافرنج لان ورائه انطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم أعادها للمسلمين وفي صفح الجبل المـذكور حصن يعرف بحصن الاكراد هو للافرنج ويغيرون منـه على حماة وحمص وهو بمرأى العين منهما فكان وصولنا الى مدينة حماة في الضحى الاعلى من يوم السبت المذكور فنزلنا بربضها فى أحد خاناته

﴿ ذكر مدينة حماة حماها الله تعالى ﴾

مدينة شهيرة في البلدان قديمة الصحبة للزمان غير فسيحة الفناء ولا رائقة البناء اقطارها مضمومة وديارها مركومة لايهش البصر اليها عند الاطلال عليها كانها تكن بهجتها وتخفيها فتجد حسنها كامنا فيها حتى اذا جست خلالها وتقرت ظلالها أبصرت بشرقيها نهراً كبيراً تتسع في تدفقه اساليبه وتتناظر بشطيه دواليبه قد انتظمت طرتيه بساتين تتهدل أغصانها عليه وتلوح خضرتها عذاراً فصفحتيه ينسرب في ظلالها وينساب على سمت اعتدالها وبأحد شطيه المتصل بربضها مطاهر منتظمة بيوتا عدة يخترق الماء أحد دواليبه جميع نواحيها فلا يجد المغتسل أثر أذى فيها وعلى شطه الثاني المتصل بالمدينة اسفل جامع صغير قد فتح جداره الشرقي عليه طيقانا تجتلى منها منظراً ترتاح النفس اليه وتتقيد الابصار لديه وبأزاء ممر النهر بجوفي المدينة قلعة حابية الوضع وان كانت دونها في الحصانة والمنع سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها فهى لا تخاف الصدي ولا تهيب مرام العدي وموضع هذه المدينة في وهدة من الارض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق يرتفع لها جانبان أحدهما كالجبل المطل والمدينة العليا متصلة بصفح ذلك الجانب الجبلى والقلعة في الجانب الآخر في ربوة منقطعة كبيرة مستديرة قد تولى نحتها الزمان وحصل لها بحصانتها من كل عدو الامان والمدينة السفلى تحت القلعة متصلة بالجانب الذى يصب النهر عليه وكلتا المدينتين صغيرتان

وسور المدينــة العليا يمتد على رأس جانبها العلى الجبلي ويطيف بها
وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب لان جانبها المتصل
بالنهر لايحتاج الى صور وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة يتصل
من المدينة السفلى الى ربضها وربضها كبير فيــه الخانات والديار وله
حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته الى أن يفرغ لدخول المدينــة
وأسواق المدينة العليا أحفل وأجــل من أسواق المدينة السفلى وهي
الجامعة لجميع الصناعات والتجارات وموضوعها حسن التنظيم بديع
الترتيب والتقسيم ولهــا جامع أكبر من الجامع الاسفل ولهــا ثلاث
مدارس ومارستان على شط النهر بازاء الجامع الصغير ومخارج هــذه
البلدة بسيط فسيح عريض قد انتظم أكثره شجرات الاعناب وفيه
المزارع والمحارث وفي منظره انشراح للنفس وانفساح والبساتين متصلة
على شطي النهر وهو يسمى العاصى لان ظاهره انحداره من سفل
الى علو ومجراه من الجنوب الى الشمال وهو يجتاز علي قبــلي حمص
وبمقربة منها فكان مقامنا بحماة الى عشى يوم السبت المذكور ثم رحلنا
منها وأسرينا الليل كله وأجزنا في نصفه هــذا النهر العاصى المذكور
على جسر كبير معقود من الحجارة وعليه مدينة (رستن) التي خربها عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه وآثارها عظيمة ويذكر الروم القسطنطينيون
أن بها أموالا جمة مكنوزة والله أعلم بذلك فوصلنا الى مدينة حمص
مع شروق الشمس من يوم الاحــد الموفي عشرين لربيع [الاول]
وهو أول يوليه فنزلنا بظاهرها بخان السبيل

﴿ ذكر مدينة حمص حرسها الله تعالى ﴾

هي فسيحة الساحة مستطيلة المساحة نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة موضوعة في بسيط من الارض عريض مداه لايخترقه النسيم بمسراه يكاد البصر يقف دون منتهاه أفيح أغبر لا ماء ولا شجر ولا ظل ولا ثمر فهي تشتكي ظماها وتستقي على البعد ماءها فيجلب لها من نهرها العاصي وهو منها بحو مسافة الميل وعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها وتستغرب نضرتها ومنبعه في مغارة بصفح جبل فوقها عرحلة بموضع يقابل (بعلبك) أعادها الله وهي عن يمين الطريق الى دمشق وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو لمجاورتهم اياه وبعدهم في ذلك أهل حلب فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه فان الهواء النجدي في الصحة شقيقه وقسيمه وبقبلي هذه المدينة قلعة حصينة منيعة عاصية غير مطيعة قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه هو سيف الله المسلول ومعه قبر أبيه عبد الرحمن وقبر عبيد الله بن عمر رضي الله عنهم وأسوار هذه المدينة في غاية العتاقة والوثاقة مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود وأبوابها أبواب حديد سامية الاشراف هائلة المنظر رائعة الاطلال والانافة تكتنفها الابراج المشيدة الحصينة وأما داخلها فما شئت من بادية شعثاء خلقة الارجاء ملفقة البناء لا اشراق لآفاقها ولا رونق لاسواقها كاسدة لا عهد لها

بنفاقها وما ظنك ببلد حصن الاكراد منه على أميال يسيرة وهو معقل العدو فهو منه تتراءى ناره ويحرق اذا يطير شراره ويتعهد اذا شاء كل يوم مغاره وسألنا أحد الاشياخ بهذه البلدة هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات فقال وقد أنكر ذلك حمص كلها مارستان وكفاك تبيناً شهادة أهلها فيها وبها مدرسة واحدة ونجد فى هذه البلدة عند اطلالك عليها من بعد في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها بعض شبه بمدينة (اشبيلية) من بلاد الاندلس يقع للحين في نفسك خياله وبهذا الاسم سميت فى القديم وهي العلة التى أوجبت نزول الاعراب أهل حمص فيها حسبما يذكر وهذا التشبيه وان لم يكن بذاته فله لمحة من احدى جهاته فأقمنا بها يوم الاحد المذكور ويوم الاثنين بعده وهو الثانى ليوليه الى أول الظهر ورحلنا منها وتمادى سيرنا الى العشى ونزلنا بقرية خربة تعرف (بالمشعر) فعشينا بها الدواب ثم رحلنا عند المغرب وأسرينا طول ليلتنا وتمادى سيرنا الى الضحى الاعلى من يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من الشهر المذكور ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين تعرف (بالقارة) ليس فيها من المسلمين أحد وبها خان كبير كأنه الحصن المشيد في وسطه صهريج كبير مملوء ماء يتسرب له تحت الارض من عين على البعد فهو لايزال ملآن فأرحنا بالخان المذكور الى الظهر ثم رحلنا منه الى قرية تعرف (بالنبك) بها ماء جار ومحرث متسع فنزلنا بها للتعشية ثم رحلنا منها بعد اختلاس تهويمة خفيفة وأسرينا الليل كله فوصلنا الى (خان السلطان) مع الصباح وهو خان بناه صلاح

الدين صاحب الشام وهو في نهاية الوثاقة والحسن بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها واحتفالهم في تشييدها وفي هذا الخان ماء جار يتسرب الى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج ولها منها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ثم يغوص في سرب في الارض والطريق من حمص الى دمشق قليل العمارة الا في ثلاثة مواضع أو أربعة منها هذه الخانات المذكورة فأقمنا يوم الاربعاء الثالث والعشرين لربيع المذكور بالخان المذكور مريحين ومستدركين للنوم الى أول الظهر ثم رحلنا وجزنا (بثنية العقاب) ومنها يشرف على بسيط دمشق وغوطتها وعند هذه الثنية مفرق طريقين احداهما التي جئنا منها والثانية آخذة شرقا في البرية على السماوة الى العراق وهي طريق قصد لكنها لا تدخل الا في الشتاء فانحدرنا منها بين جبال في بطن واد الى البسيط ونزلنا منه بموضع يعرف بالقصير فيه خان كبير والنهر جار أمامه ثم رحلنا منه مع الصبح وسرنا في بساتين متصلة لا يوصف حسنها ووصلنا دمشق في الضحى الأعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الاول والخامس ليوليه والحمد لله رب العالمين

﴿ شهر ربيع الآخر ﴾

استهل هلاله يوم الاربعاء بموافقة الحادي عشر ليوليه ونحن بدمشق نازلين فيها بدار الحديث غربي جامعها المكرم

﴿ ذكر مدينة دمشق حرسها الله تعالى ﴾

جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق وهي خاتمة بلاد الاسلام التى استقريناها وعروس المدن التى اجتليناها قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت فى حلل سندسية من البساتين وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين وتزينت فى منصتها أجمل تزيين وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها الى ربوة ذات قرار ومعين ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت الي الظمأ فتكاد تناديك بها الصم الصلاب

(أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) قد أحدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر فكل موضع لحظته بجهاتها الاربع نضرته اليانعة قيد النظر ولله صدق القائلين عنها ان كانت الجنة في الارض فدمشق لا شك فيها وان كانت في السماء فهى بحيث تسامتها وتحاذيها

﴿ ذكر جامعها المكرم شرفه الله تعالى ﴾

هو من أشهر جوامع الاسلام حسناً واتقان بناء وغرابة صنعة واحتفال تنميق وتزيين وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه ومن عجيب شأنه انه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله ولا

تلم به الطير المعروفة بالخطاف انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك رحمه الله ووجه الى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره باشخاص اثنى عشر ألفاً من الصناع من بلاده وتقدم اليه بالوعيد في ذلك ان توقف عنه فامتثل أمره مذعناً بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك مما هو مذكور في كتب التواريخ فشرع في بنائه وبلغت الغاية في التأنق فيه وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفسا وخلطت بها أنواع من الاصبغة الغريبة قد مثلت أشجاراً وفرعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببدائع من الصنعة الانيقة المعجزة وصف كل واصف فجاء يغشى العيون وميضا وبصيصاً وكان مبلغ النفقة فيه حسبما ذكره ابن المعلي الاسدى في جزء وصفه في ذكر بنائه مائة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار ومائتا الف دينار فكان مبلغ الجميع احدى عشر الف الف دينار ومئتا الف دينار والوليد هذا (هو) الذى أخذ نصف الكنيسة الباقية منه في أيدى النصاري وأدخلها فيه لانه كان قسمين قسما للمسلمين وهو الشرقى وقسما للنصاري وهو الغربي لان أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه دخل البلد من الجهة الغربية فانتهى الى نصف الكنيسة وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى ودخل خالد بن الوليد رضى الله عنه عنوةً من الجانب الشرقى وانتهى الى النصف الثانى وهو الشرقى فاحتازه المسلمون وصيروه مسجدا وبقى النصف المصارع عليه وهو الغربي كنيسة بأيدى النصارى الى أن عوضهم منه الوليد فأبوا ذلك فانتزعه منهم قهراً وطلع لهدمه بنفسه وكانوا يزعمون ان الذى يهدم

كنيستهم يجن فبادر الوليد وقال أنا أول من يجن في الله وبدأ الهدم بيده فبادر المسلمون وأكملوا هدمه واستعد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أيام خلافته وأخرجوا العهد الذى بأيديهم من الصحابة رضي الله عنهم في إبقائه عليهم فهم بصرفه اليهم فأشفق المسلمون من ذلك ثم عوضهم منه بمال عظيم أرضاهم به فقبلوه ويقال ان أول من وضع جداره القبلى هو النبي عليه الصلاة والسلام وكذلك ذكر ابن المعلى فى تاريخه والله أعلم بذلك لا اله سواه وقرأنا في فضائل دمشق عن سفيان الثورى انه قال ان الصلاة فيه بثلاثين الف صلاة وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه يعبد الله عز وجل فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة

﴿ ذكر تذريعه ومساحته وعدد أبوابه وشمساياته ﴾

ذرعه في الطول من الشرق الي الغرب مائتا خطوة وهما ثلاثمائة ذراع وذرعه في السعة من القبلة الى الجوف مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع فيكون تكسيره من المراجع الغربية أربعة وعشرين مرجعاً وهو تكسير مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم غير ان الطول فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من القبلة الى الشمال وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق الى الغرب سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة والخطوة ذراع ونصف وقد قامت على ثمانية وستين عموداً منها أربع وخمسون سارية وثماني أرجل

جصينة نخللها واثنتان مرخمة ملصقة معها في الجدار الذي يلي الصحن وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة قد نظمت خواتيم وصورت محاريب وأشكالا غريبة قائمة في البلاط الاوسط تقل قبة الرصاص مع القبة التي تلي المحراب سعة كل رجل منها ستة عشر شبراً وطولها عشرون شبراً وبين كل رجل ورجل في الطول سبع عشرة خطوة وفي العرض ثلاث عشرة خطوة فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شبراً ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته الشرقية والغربية والشمالية سعته عشر خطا وعدد قوائمه سبع وأربعون منها أربع عشرة رجلا من الجص وسائرها سوار فيكون سعة الصحن حاشي المسقف القبلي والشمالي مائة ذراع وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص وأعظم ما في هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه سامية في الهواء عظيمة الاستدارة قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لها يتصل من المحراب الى الصحن وتحته ثلاث قباب قبة تتصل بالجدار الذي الى الصحن وقبة تتصل بالمحراب وقبة تحت قبة الرصاص بينهما والقبة الرصاصية قد أغصت الهواء وسطه فاذا استقبلتها أبصرت منظراً رائعاً ومرأى هائلا يشبهه الناس بنسر طائر كأن القبة رأسه والغارب جؤجؤه ونصف جدار البلاط عن يمين ونصف الثاني عن شمال جناحاه وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه ومن أي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء

منيفة على كل علو كأنها معلقة من الجو والجامع المكرم مائل الى الجهة
الشمالية من البلد وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون
منها فى القبة التى تحت قبة الرصاص عشر وفي القبة المتصلة بالمحراب
مع ما يليها من الجدار أربع عشرة شمسية وفي طول الجدار عن يمين
المحراب ويساره أربع وأربعون وفي القبة المتصلة بجدار الصحن ست
وفي ظهر الجدار الى الصحن سبع وأربعون شمسية وفي الجامع المكرم
ثلاث مقصورات مقصورة الصحابة رضي الله عنهم وهي أول مقصورة
وضعت في الاسلام وضعها معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنهما وبازاء
محرابها عن يمين مستقبل القبلة باب حديد كان يدخل معاوية رضى الله
عنه الى المقصورة منه الى المحراب وبازاء محرابها لجهة اليمين مصلى أبى
الدرداء رضى الله عنه وخلفها كانت دار معاوية رضى الله عنه وهي اليوم
سماط عظيم للصفارين يتصل بطول جدار الجامع القبلي ولا سماط أحسن
منظراً منه ولا أكبر طولا وعرضاً وخلف هذا السماط على مقربة منه
دار الخيل برسمه وهي اليوم مسكونة وفيها مواضع للمكادين وطول
المقصورة الصحابية المذكورة أربعة وأربعون شبراً وعرضها نصف
الطول ويليها لجهة الغرب فى وسط الجامع المقصورة التى أحدثت عند
اضافة النصف المتخذ كنيسة الى الجامع حسبما تقدم ذكره وفيها منبر
الخطبة ومحراب الصلاة وكانت مقصورة الصحابة أولا فى نصف الخط
الاسلامى من الكنيسة وكان الجدار حيث أعيد المحراب في المقصورة
المحدثة فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجداً صارت مقصورة الصحابة

طرفاً في الجانب الشرقي وأحدثت المقصورة الاخرى وسطاً حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال وهذه المقصورة المحدثة أكبر من الصحابية وبالجانب الغربي بأزاء الجدار مقصورة أخرى هي برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون وبأزائها زاوية محدقة بالاعواد المشرجبة كأنها مقصورة صغيرة وبالجانب الشرقي زاوية أخرى على هذه الصفة هي كالمقصورة كان وضعها للصلاة فيها أحد أمراء الدولة التركية وهي لاصقة بالجدار الشرقي وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس وهي من جملة مرافق الطلبة (وفى) الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات القبلية عشرون باباً متصلة بطول الجدار قد علتها قسي جصية مخرمة كلها على هيئة الشمسيات فتبصر العين من اتصالها أجمل منظر وأحسنه والبلاط المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات على أعمدة وعلى تلك الاعمدة أبواب مقوسة تقلها أعمدة صغار تطيف بالصحن كله ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها وفيه مجتمع أهل البلد وهو متفرجهم ومتنزههم كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق الى غرب من باب جيرون الى باب البريد فمنهم من يتحدث مع صاحبه ومنهم من يقرأ لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع الى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ثم ينصرفون ولبعضهم بالغداة مثل ذلك وأكثر الاحتفال انما هو بالعشي فيخيل لمبصر ذلك انها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يري من احتفال الناس واجتماعهم لا

يزالون على ذلك كل يوم وأهل البطالة من الناس يسمونهم الحرائين
وللجامع ثلاث صوامع واحدة في الجانب الغربي وهي كالبرج المشيد
تحتوى على مساكن متسعة وزوايا فسيحة راجعة كلها الي أغلاق يسكنها
أقوام من الغرباء أهل الخير والبيت الاعلى منها كان معتكف أبي حامد
الغزالى رحمه الله ويسكنه اليوم الفقيه الزاهد أبو عبدالله بن سعيد من
أهل قلعة يحصب المنسوبة لهم وهو قريب البنى سعيد المشتهرين بالدنيا
وخدمتها وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة وثالثة بالجانب الشمالي
علي الباب المعروف بباب الناطفيين وفي الصحن ثلاث قباب احداها
فى الجانب الغربي منه وهي أكبرها وهي قائمة على ثمانية أعمدة من
الرخام مستطيلة كالبرج مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة كانها
الروضة حسناً وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة يقال
انها كانت مخزناً لمال الجامع وله مال عظيم من خراجات ومستغلات
تنيف على ما ذكر لنا على الثمانية آلاف دينار صورية فى السنة وهي
خمسة عشر الف درهم مؤمنية أو نحوها وقبة أخرى صغيرة في وسط
الصحن مجوفة مثمنة من رخام قد ألصق أبدع الصاق قائمة على أربعة
أعمدة صغار من الرخام وتحتها شباك حديد مستدير وفي وسطه أنبوب
من الصفر يمج الماء الى علو فيرتفع وينثنى كأنه قضيب لجين يشره
الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافاً واستحساناً ويسمونه قفص
الماء والقبة الثالثة في الجانب الشرقى قائمة على ثمانية أعمدة على هيئة
القبة الكبيرة لكن أصغر منها وفي الجانب الشمالى من الصحن باب كبير

يفضي الى مسجد كبير في وسطه صحن قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير يجرى الماء فيه دائماً من صفحة رخام أبيض مثمنة قد قامت وسط الصهريج على رأس عمود مثقوب يصعد الماء منه اليها ويعرف هذا الموضع بالكلاسة ويصلي فيه اليوم صاحبنا الفقيه الزاهد المحدث أبو جعفر الفنكي القرطبي ويتزاحم الناس على الصلاة فيه خلفه التماساً لبركته واستماعاً لحسن صوته وفي الجانب الشرقى من الصحن باب يفضى الى مسجد من أحسن المساجد وأبدعها وضعاً وأجلها بناء يذكر الشيعة انه مشهد لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه وهذا من أغرب مختلقاتهم ومن العجيب انه يقابله في الجهة الغربية في زاوية البلاط الشمالى من الصحن موضع هو ملتقى آخر البلاط الشمالى مع أول البلاط الغربى مجلل بستر فى أعلاه وامامه ستر أيضاً مسدل يزعم أكثر الناس انه موضع لعائشة رضي الله عنها وانها كانت تسمع الحديث فيه وعائشة رضى الله عنها في دخول دمشق كعلى رضى الله عنه لكن لهم في علي رضي الله عنه مندوحة من القول وذلك أنهم يزعمون انه رؤى في المنام مصلياً في ذلك الموضع فبنت الشيعة فيه مسجداً وأما الموضع المنسوب لعائشة رضى الله عنها فلا مندوحة فيه وانما ذكرناه لشهرته في الجامع وكان هذا الجامع المبارك ظاهراً وباطناً منزلا كله بالفصوص المذهبة مزخرفاً بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة فأدركه الحريق مرتين فتهدم وجدد وذهب أكثر رخامه فاستحال رونقه فأسلم ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها ومحرابه من أعجب المحاريب الاسلامية حسناً وغرابة صنعة

بنقد ذهباً كله وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره تحفها سوريات مفتولات فتل الاسورة كأنها مخروطة لم ير شيء أجمل منها وبعضها حمر كأنها مرجان فشأن قبلة هذا الجامع المبارك مع ما يتصل بها من قبابه الثلاث واشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه واتصال شعاع الشمس بها وانعكاسه الى كل لون منها حتى ترمى الابصار منه شعة ملونة يتصل ذلك بجداره القبلى كله عظيم لا يلحق وصفه ولا تبلغ العبادة بعض ما يتصوره الخاطر منه والله يعمره بشهادة الاسلام كمنه بمنه وفى الركن الشرقي من المقصورة الحديثة فى المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضى الله عنه وهو المصحف الذى وجه به الى الشام وتفتح الخزانة كل يوم أثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه وله أربعة أبواب (باب) قبلى ويعرف بباب الزيادة وله دهليز كبير متسع له أعمدة عظام وفيه حوانيت للخرزيين وسواهم وله مرأى رائع ومنه يفضى الى دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهي كانت دار معاوية رضى الله عنه وتعرف بالخضراء (وباب) شرقى وهو أعظم الابواب ويعرف بباب جيرون وباب غربي ويعرف بباب البريد (وباب) شمالى ويعرف بباب الناطفيين وللشرقي والغربي والشمالى أيضاً من هذه الابواب دهاليز متسعة يفضي كل دهليز منها الي باب عظيم كانت كلها مداخل الكنيسة فبقيت على حالها وأعظمها منظراً الدهليز المتصل بباب جيرون يخرج من هذا الباب الى بلاط طويل عريض قد قامت أمامه خمسة أبواب مقوسة لها ستة

أعمدة طوال وفي وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل كان فيه رأس
الحسين بن علي رضى الله عنهما ثم نقل الى القاهرة وبأزاءه مسجد
صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وبذلك المشهد ماء جار
وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها الى الدهليز وهو كالخندق
العظيم يتصل الى باب عظيم الارتفاع ينحسر الطرف دونه سمواً قد
حفته أعمدة كالجزوع طولا وكالاطواد ضخامة وبجانبي هذا الدهليز
أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها الحوانيت المنتظمة للعطارين
وسواهم وعليها شوارع أخر مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكرا مشرفة
على الدهليز وفوقها سطح يبيت به سكان الحجر والبيوت وفى وسط
الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام عليه قبة تقلها أعمدة من الرخام
ويستدير بأعلاها طرة من الرصاص واسعة مكشوفة للهواء لم ينعطف
عليها تعتيب وفي وسط الحوض الرخامي أنبوب صفر يزعج الماء بقوة
فيرتفع الى الهواء أزيد من القامة لم ٠٠٠٠٠٠٠ وحوله أنابيب صغار
ترمى الماء الي علو فيخرج عنها كقضبان اللجين فكأنها أغصان تلك
الدوحة المائية ومنظرها أعجب وأبدع من أن يلحقه الوصف وعن يمين
الخارج من باب جيرون فى جدار البلاط الذى أمامه غرفة ولها هيئة طاق
كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبوابا صغاراً على عدد ساعات
النهار ودبرت تدبيراً هندسيا فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان
من صفر من فمي بازيين مصورين من صفر قائمين علي طاستين من صفر
تحت كل واحد منهما أحدهما تحت أول باب من تلك الابواب والثانى

تحت آخرها والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تخيله الاوهام سحراً وعند وقوع البندقتين فى الطاستين يسمع لهما دوى وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لايزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول ولها بالليل تدبير آخر وذلك أن فى القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنى عشرة دائرة من النحاس مخرمة وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للأبصار دائرة محمرة ثم انتقل ذلك الى الاخري حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى موضعها وهي التى يسميها الناس المنجانة ودهليز الباب الغربى فيه حوانيت البقالين والعطارين وفيه سماط لبيع الفواكه وفي أعلاه باب عظيم يصعد اليه على أدراج وله أعمدة سامية فى الهواء وتحت الادراج سقايتان مستديرتان سقاية يميناً وسقاية يساراً لكل سقاية خمسة أنابيب ترمي الماء فى حوض رخام مستطيل ودهليز الباب الشمالى فيه زوايا على مصاطب محدقة بالاعواد المشرجبة هي

محاضر لمعلمى الصبيان وعن يمين الخارج في الدهليز خانقة مبنية للصوفية في وسطها صهريج ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ولها خبر سيأتى ذكره بعد هذا والصهريج الذي في وسطها يجرى الماء فيه ولها مطاهر يجرى الماء في بيوتها وعن يمين الخارج أيضاً من باب البريد مدرسة للشافعية فى وسطها صهريج يجرى الماء فيه ولها مطاهر على الصفة المذكورة وفى الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان يسير لهما رأسان من الصفر مستطيلان مشرجبان قد خرما أحسن تخريم يسرجن ليلة النصف من شعبان فلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان واحتفال أهل هذه البلدة لهذه الليلة المذكورة أكثر من احتفالهم ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم وفى هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم كل يوم أثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن دائما ومثله اثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرؤن فيها من سورة الكوثر الى الخاتمة ويحضر في هذا المجتمع الكوثرى كل من لا يجيد حفظ القرآن وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمسمائة انسان وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم فلا تخلو القراءة منه صباحا ولا مساء وفيه حلقات للتدريس للطلبة وللمدرسين فيها اجراء واسع وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها طلبة المغاربة ولهم اجراء معلوم ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة وأغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه هي بين المقصورتين القديمة والحديثة لها وقف معلوم يأخذه المستند

اليها للمذاكرة والتدريس أبصرنا بها فقيها من أهـل اشبيلية يعرف
بالمرادى وعند فراغ المجتمع السبعى من القراءة صباحا يستند كل انسان
منهم الي سارية ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن وللصبيان أيضاً على
قراءتهم جراية معلومة فأهل الجدة من آبائها ينزهون أبناءهم أخذها
وسائرهم يأخذونها وهذا من المفاخر الاسلامية وللأيتام من الصبيان
محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به وينفق
منه على الصبيان ما يقوم بهم ويكسونهم وهذا أيضاً من أغرب ما يحدث
به من مفاخر هذه البلاد وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية
كلها انما هو تلقين ويعلمون الخط فى الاشعار وغيرها تنزيها لكتاب
الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو وقد يكون في
أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة فينفصل من التلقين الي
التكتيب لهم فى ذلك سيرة حسنة ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط لان
المعلم له لا يشتغل بغيره فهو يستفرغ جهده في التعليم والصبي في التعلم
كذلك ويسهل عليه لانه بتصوير يحذو حذوه ويستدير بهذا الجامع
المكرم أربع سقايات في كل جانب سقاية كل واحدة منها كالدار الكبير
محدقة بالبيوت الخلائية والماء يجرى فى كل بيت منها ويطول صحنها
حوض من الحجر مستطيل تصب فيه عدة أنابيب منتظمة بطوله واحدى
هذه السقايات في دهليز باب جيرون وهي أكبرها وفيها من البيوت نيف
على الثلاثين وفيها زائداً على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران
مستديران يكادان يمسكان لسعتهما عرض الدار المحتوية على هذه السقاية

والواحد بعيد من الآخر ودور كل واحد منهما نحو الاربعين شبراً والماء نابع فيهما والثانية في دهليز باب الناطفيين بازاء المعلمين والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة وهذه أيضاً من المرافق العظيمة للغرباء وسواهم والبلد كله سقايات قلّما تخلو سكة من سككه أو سوق من أسواقه من سقاية والمرافق به أكثر من أن توصف والله يبقيه دار اسلام بقدرته

﴿ ذكر مشاهده المكرمه وآثاره المعظمه ﴾

فأولها مشهد رأس يحيى بن ذكرياء عليه السلام وهو مدفون بالجامع المكرم في البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية رضى الله عنهم وعليه تابوت خشب معترض من الاسطوانة وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف كأنه القدح الكبير لا يدرى أمن زجاج عراقي أم صوري هو أم من غير ذلك ومولد ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم وهو بصفح جبل قاسيون عند قرية تعرف ببرزة وهي من أجل القرى وهذا الجبل مشهور بالبركة في القديم لانه مصعد الانبياء صلوات الله عليهم ومطلعهم وهو في الجهة الشمالية من البلد وعلى مقدار فرسخ وهذا المولد المبارك غار مستطيل ضيق وقد بنى عليه مسجد كبير مرتفع مقسم على مساجد كثيرة كالغرف المطلة وعليه صومعة عالية ومن ذلك المغار رأى صلى الله عليه وسلم الكوكب ثم القمر ثم الشمس حسبما ذكره الله تعالى في

كتابه عز وجل وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج اليه وهذا كله
ذكره الحافظ محدث الشام أبو القاسم بن هبة الله بن عساكر الدمشقي
في تاريخه في أخبار دمشق وهو نيف على مائة مجلد وذكر أيضاً أن
بين باب الفراديس وهو أحد أبواب البلد وفي الجهة الشمالية من
الجامع المبارك على مقربة منه الى جبل قاسيون مدفن سبعين ألف نبي
وقيل سبعون ألف شهيد وان الانبياء المدفونين به سبعمائة نبي والله
أعلم وخارج هذا البلد الجبانه العتيقة وهي مدفن الانبياء والصالحين
وبركتها شهيرة وفي طرفها مما يلي البساتين وهدة من الارض متصلة
بالجبانه ذكر انها مدفن سبعين نبياً وعصمها الله ونزهها من أن يدفن
فيها أحد والقبور محيطة بها وهي لا تخلو من الماء حتى عادت قرارة
له كل ذلك تنزيه من الله تعالى لها وبجبل قاسيون أيضاً لجهة الغرب على
مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك مغارة تعرف بمغارة الدم لان
فوقها في الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل ابني آدم صلى الله عليه وسلم
تتصل من نحو نصف الجبل الى المغارة وقد أبقى الله منه في الجبل
آثاراً حمرا في الحجارة تحك فتستحيل وهي كالطريق في الجبل
وتنقطع عند المغارة وليس يوجد في النصف الاعلى من المغارة آثار
تشبهها فكان يقال انها لون حجارة الجبل وانما هي من الموضع الذي جر منه
القاتل لاخيه حيث قتله حتى انتهى الى المغارة وهي من آيات الله تعالى
وآياته لا تحصى وقرأنا في تاريخ ابن المعلى الاسدي ان تلك المغارة صلى
فيها ابراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب عليهم وعلى نبينا الكريم

أفضل الصلاة والسلام وعليها مسجد قد أتقن بناؤه ويصعد اليه على أدراج وهو كالغرفة المستديرة وحولها أعواد مشرجبة مطيفة بها وبه بيوت ومرافق للسكنى وهو يفتح كل يوم خميس والسرج من الشمع والفتائل تقد في المغارة وهي متسعة وفي أعلى الجبل كهف منسوب لآدم صلى الله عليه وسلم وعليه بناء وهو موضع مبارك وتحته في حضيض الجبل مغارة تعرف بمغارة الجوع ذكر ان فيها سبعين نبياً ماتوا جوعاً وكان عندهم رغيف فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه ويدور عليهم من يد الى يد حتى لحقتهم المنية صلوات الله عليهم وعلى هذه المغارة أيضاً مسجد مبنى وأبصرنا فيه سرجاً تقد نهاراً ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع حتى ان البلد تكاد الاوقاف تستغرق جميع ما فيها وكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها وهذه أيضاً من المفاخر المخلدة ومن النساء الخواتين ذوات الاقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الاموال الواسعة وتعين لها من مالها الاوقاف ومن الامراء من يفعل مثل ذلك لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل وبآخر هذا الجبل المذكور وفي رأس البسيط البستاني الغربي من هذا البلد الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى مأوى المسيح وأمه صلوات الله عليهما وهي من أبدع مناظر الدنيا حسناً وجمالا واشرافاً واتقان بناء واحتفال تشييد وشرف وضع هي كالقصر المشيد ويصعد اليها على أدراج

والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها وهي كالبيت الصغير وبإزائها بيت يقال انه مصلى الخضر صلى الله عليه وسلم فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين ولا سيما المأوى المبارك وله باب حديد صغير ينغلق دونه والمسجد يطيف بها ولها شوارع دائرة وفيها سقاية لم يُرَ أحسن منها قد سيق اليها الماء من علو وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه لم يُرَ أحسن من منظره وخلف ذلك مطاهر يجري الماء في كل بيت منها ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومقسم مائه ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار يأخذ كل نهر طريقه وأكبر هذه الانهار نهر يعرف بثورا وهو يشق تحت الربوة وقد نقر له في الحجر الصلد أسفلها حتى انفتح له متسرب واسع كالغار وربما انغمس الجسور من سباح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة في النهر واندفع تحت الماء حتى يشق متسربه تحت الربوة ويخرج أسفلها وهي مخاطرة كبيرة ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد ولا اشراف كاشرافها حسناً وجمالا واتساع مسرح للابصار وتحتها تلك الانهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى فتحار الابصار في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاع انصبابها وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها أعظم من أن يحيط به وصف واصف في غلو مدحه وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير ويتصل بها أسفل منها بعقربة من المسافة قرية كبيرة تعرف بالنيرب قد غطتها البساتين فلا

تظهر منها الا ما سما بناؤه وبها جامع لم ير أحسن منه مفروش سطحه
كله بفصوص الرخام الملون فيخيل لناظره انه ديباج مبسوط وفيه
سقاية ماء رائقة الحسن ومطهرة لها عشرة أبواب يجرى الماء فيها ويطيف
بها وفوقها الجهة القبلية قرية كبيرة هي من أحسن القرى تعرف بالمزة وبها
جامع كبير وسقاية معينة وبقرية النيرب حمام وأكثر قرى هذه البلدة
فيها الحمامات وفي الجهة الشرقية من البلد عن يمين الطريق الى مولد
ابراهيم عليه السلام قرية تعرف ببيت لاهية يريدون الآلهة وكانت
فيها كنيسة هي الآن مسجد مبارك وكان آزر أبو ابراهيم ينحت فيها
الآلهة ويصورها فيجيء الخليل ابراهيم صلوات الله عليه وعلى نبينا
الكريم فيكسرها وهي اليوم مسجد يجتمع فيه أهل القرية وسطحه
كله مفروش بفصوص الرخام الملونة منتظم كله خواتيم وأشكالا بديعة
يخيل لمبصرها أنها فرش منقنة مزخرفة وهو من المشاهد الكريمة
وللربوة المباركة أوقاف كثيرة من بساتين وأرض بيضاء ورباع وهي
معينة التقسيم لوظائفها فمنها ما هو معين باسم النفقة في الادم للبائتين فيها
من الزوار ومنها ما هو معين للاكسية برسم التغطية بالليل ومنها ما هو
معين للطعام الى تقاسيم تستوفي جميع مؤنها ومؤن الامين الراتب فيها
برسم الامامة والمؤذن الملتزم خدمتها ولهم على ذلك كله مرتب معلوم
في كل شهر وهي خطة من أعظم الخطط والامين فيها الآن من بقية
المرابطين المسوفيين ومن أعيانهم يعرف بأبي الربيع سليمان بن ابراهيم
ابن مالك وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة وله في الشهر خمسة

دنانير حاشى فائدة الربوة وهو متسم بالخير ومرتسم به وهو متعلق بسبب من أسباب البر في إيواء أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات يسبب لهم وجوه المعايش من امامة في مسجد أو سكنى بمدرسة تجرى عليه فيها النفقة أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجبي اليه فيها رزقه أو حضور في قراءة سبع أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ويجرى عليه ما يقوم به من أوقافه الى غير ذلك من الوجوه المعاشية وعلى هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه فالغريب المحتاج هنا اذا كان على طريقة الخير مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ممن عهد الخدمة والمهنة يسبب له أيضاً أسباب غريبة من الخدمة اما بستان يكون ناطوراً فيه أو حمام يكون عينا على خدمته وحافظاً لأثواب داخليه أو طاحونة يكون أميناً عليها أو كفالة سلطان يؤديهم الى محاضرهم ويصرفهم الى منازلهم الى غير ذلك من الوجوه الواسعة وليس يؤتمن فيها كلها سوي المغاربة الغرباء لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت في الامانة وطار لهم فيها ذكر وأهلها لا يأتمنون البلديين وهذا من ألطاف الله تعالى بالغرباء وله الحمد والشكر على ما يولي عباده وان شاء أحد المتعلقين بأسباب المعارف التعرض هنالك للسلطان يقبله ويكرمه ويرتبه ويجري عليه بحسب قدره ومنصبه قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضائل قديماً وحديثاً وقد تسلسل بنا القول الى غير الباب الذى نحن فيه والحديث ذو شجون والله كفيل بحسن العون لا رب سواه وبغربي

البلد جبانة كبيرة تعرف بقبور الشهداء فيها كثير من الصحابة والتابعين
الائمة الصالحين رضى الله عنهم فالمشهور بها من قبور الصحابة رضى الله
عنهم قبر أبي الدرداء وقبر زوجته أم الدرداء رضى الله عنهم موضع مبارك
فيه تاريخ قديم مكتوب عليه في هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة
رضى الله عنهم منهم فضالة بن عبيد وسهل بن الحنظلية من الذين بايعوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة وخال المؤمنين معاوية بن
أبي سفيان رضي الله عنه وقبره مسنم فى الموضع المذكور وقرأت فى
فضائل دمشق ان أم المؤمنين أم حبيبة أخت معاوية رضى الله عنهما
مدفونة بدمشق وقبر واثلة بن الاسقع من أهل الصفة وفى الجهة التي
(تلي) هذا الموضع المبارك تاريخ فيه مكتوب هذا قبر أوس بن أوس
الثقفى وحول هذا الموضع المذكور على مقربة منه قبر بلال بن حمامة
مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رأس القبر المبارك تاريخ باسمه
رضي الله عنه والدعاء في هذا الموضع المبارك مستجاب قد جرب ذلك
كثير من الاولياء وأهل الخير المتبركين بزيارتهم الى قبور كثيرة من
الصحابة وسواهم من الصالحين ممن قد ذهب اسمه وغير ذكره
ومشاهد كثيرة لاهل البيت رضي الله عنهم رجالا ونساء وقد احتفل
الشيعة فى البناء عليهم ولها الاوقاف الواسعة ومن أحفل هذه المشاهد
مشهد منسوب لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه قد بنى عليه مسجد حفيل
رائق البناء وبازائه بستان كله نارنج والماء يطرد فيه من سقاية معينة وللمسجد
كله ستور معلقة في جوانب صغار وكبار وفي المحراب حجر عظيم قدشق

بصفين والتحم بينهما ولم يبن النصف عن النصف بالكلية يزعم الشيعة أنه
انشق لعلى رضى الله عنه اما بضربة سيفة أو بأمر من الامور الآلهية على يديه
ولم يذكر عن على رضى الله عنه انه دخل قط هذا البلد اللهم الا ان
زعموا انه كان فى النوم فلعل جهة الرؤيا تصح لهم اذ لا تصح لهم جهة
اليقظة وهذا الحجر أوجب بنيان هذا المشهد وللشيعة فى هذه البلاد
أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم
فرق شتى منهم الرافضة وهم السبابون ومنهم الامامية والزيدية وهم
يقولون بالتفضيل خاصة ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وهم كفرة فانهم
يزعمون الالهية لعلى رضى الله عنه تعالى عن قولهم ومنهم الغرابية
وهم يقولون ان علياً رضي الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم
من الغراب بالغراب وينسبون الى الروح الامين عليه السلام قولا تعالى
الله عنه علواً كبيراً الى فرق كثيرة يضيق عنهم الاحصاء قد أضلهم
الله وأضل بهم كثيراً من خلقه نسأل الله العصمة فى الدين ونعوذ به
من زيغ الملحدين وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنبوية
سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها وكل من ألحقوه بهم لخصلة
يرونها فيه منها يحزمونه السراويل فيلحقوه بهم ولا يرون أن يستعدى
أحد منهم في نازلة تنزل به لهم فى ذلك مذاهب عجيبة واذا أقسم أحدهم
بالفتوة بر قسمه وهم يقتلون هؤلاء الروافض أين ما وجدوهم وشأنهم
عجيب فى الانفة والائتلاف ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة
رئيس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقرية

تعرف بالمنيحة شرقي البلد وعلى مقدار أربعة أميال منه وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء والقبر في وسطه وعند رأسه مكتوب هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن مشاهد أهل البيت رضي الله عنهم مشهد أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب رضى الله عنهما ويقال لها زينب الصغرى وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي صلى الله عليه وسلم لشبهها بابنته أم كلثوم رضى الله عنها والله أعلم بذلك ومشهدها الكريم بقرية قبلي البلد تعرف براوية على مقدار فرسخ وعليه مسجد كبير وخارجه مساكن وله أوقاف وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم مشينا اليه وبتنا به وتبركنا برؤيته نفعنا الله بذلك وبالجبانة التي بغربي البلد من قبور أهل البيت كثير رضى الله عنهم منها قبران عليهما مسجد يقال انهما من ولد الحسن والحسين رضى الله عنهما ومسجد آخر فيه قبر يقال انه لسكينة بنت الحسين رضي الله عنهما أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت ومن المشاهد أيضاً قبر بجامع النيرب في بيت بالجهة الشرقية منه يقال انه لأم مريم رضي الله عنها وبقرية دارية قبر أبي مسلم الخولاني رضى الله عنه وعليه قبة هي علامة القبر وبها أيضاً قبر أبي سليمان الداراني رضى الله عنه وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال وهي لجهة الغرب منه ومن المشاهد الكريمة التي لم نعاينها ووصفت لنا قبر شيث ونوح عليهما السلام وهما بالبقاع وهي على يومين من البلد وحدثنا من ذرع قبر شيث فالفى فيه أربعين باعاً وفي قبر نوح ثلاثين وبازاء قبر نوح

قبر ابنة له وعلى هذه القبور بناء ولها أوقاف كثيرة ولها قيم يلتزمها ومن المشاهد المباركة أيضاً بالجبانة الغربية وبمقربة من باب الجابية قبر أويس القرني رضي الله عنه وقبور خلفاء بنى أمية رحمهم الله يقال انها بأزاء باب الصغير بمقربة من الجبانة المذكورة وعليها اليوم بناء يسكن فيه والمشاهد المباركة بهذه البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد وانما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم ومن المشاهد الشهيرة أيضاً مسجد الاقدام وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلى القبلة على قارعة الطريق الاعظم الآخذ الى بلاد الحجاز والساحل وديار مصر وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فيقول له ههنا قبر أخى موسى صلى الله عليه وسلم والكثيب الاحمر على الطريق بمقربة من هذا الموضع وهو بين غالية وغولية كما ورد في الاثر وهما موضعان وشأن هذا المسجد في البركة عظيم ويقال ان النور ما خلا قط من هذا الموضع الذى يذكر أن القبر فيه حيث الحجر المكتوب وله أوقاف كثيرة فأما الاقدام ففي حجارة فى الطريق اليه معلم عليها تجد أثر القدم في كل حجر وعدد الاقدام تسع ويقال انها أثر قدم موسى عليه السلام والله أعلم بحقيقة ذلك لا اله سواه

﴿شهر جمادي الاولى عرفنا الله بركته﴾

استهل هلاله ليلة الجمعة بموافقة العاشر لشهر أغوشت العجمى

﴿ ذكر جميل من أحوال البلد عمره الله بالاسلام ﴾

لهذه البلدة ثمانية أبواب (باب) شرقي وهو شرقي وفيه منارة بيضاء يقال ان عيسى عليه السلام ينزل فيها كما جاء فى الاثر انه ينزل بالمنارة البيضاء شرقى دمشق ويلي هذا الباب (باب) توما وهو أيضاً في حيز الشرق ثم (باب) السلامة ثم (باب) الفراديس وهو شمالي ثم (باب) الفرج ثم (باب) النصر وهو غربي ثم (باب) الجابية كذلك ثم (باب) الصغير وهو بين الغرب والقبلة والمسجد الجامع مائل الي الجهة الشمالية من البلد والارباض به مطيفة الا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيراً والارباض كبار والبلد ليس بمفرط الكبر وهو مائل للطول وسككه ضيقة مظلمة وبناءه طين وقصب طبقات بعضها فوق بعض ولذلك ما يسرع الحريق اليه وهو كله ثلاث طبقات فيحتوى من الخلق على ما تحتوى ثلاث مدن لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً وحسنه كله خارج لا داخل وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم تعرف بكنيسة مريم ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها وهي حفيلة البناء تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبهت الافكار وتستوقف الابصار ومرآها عجيب وهي بأيدى الروم ولا اعتراض عليهم فيها وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة وبها مارستانان قديمان وحديث والحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر دينار وله قومة بأيديهم الازمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون اليها في الادوية والاغذية وغير ذلك والاطباء يبكرون اليه في كل يوم ويتفقدون

المرضى ويأمرون باعداد ما يصلح من الادوية والاغذية حسبما يليق
بكل انسان منهم والمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في
الجديد كثر وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم وللمجانين المعتقلين
أيضاً ضرب من العلاج وهم في سلاسل موثقون نعوذ بالله من المحنة
وسوء القدر ويندر من بعضهم النوادر الظريفة حسب ما كنا نسمع
به ومن أعجب ما حدثت به من ذلك ان رجلا كان يعلم القرآن وكان
يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ممن أوتي مسحة جمال واسمه نصر
الله وكان المعلم يهيم به فزاد كلفه حتى اختبل وأدى الى المارستان
واشتهرت علته وفضيحته بالصبي وربما كان يدخله أبوه اليه فقيل له
أخرج وعد لما كنت عليه من القرآن فقال متماجناً تماجن المجانين
وأى قراءة بقيت لي ما بقى فى حفظي من القرآن شيء سوى اذا جاء
نصر الله فضحك منه ومن قوله ونسأل الله له العافية ولكل مسلم
فلم يزل كذلك حتى توفي سمح الله له وهذه المارستانات مفخر عظيم
من مفاخر الاسلام والمدارس كذلك ومن أحسن مدارس الدنيا
منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله وبها قبره نوره الله وهي قصر
من القصور الانيقة ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم
ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار
فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور
الدين رحمه الله وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة وهي برسم
الصوفية وهي قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر

بمصر وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لأنهم قد كفاهم الله
مُؤن الدنيا وفضولها وفرّغ خواطرهم لعبادته من الكفرة فى أسباب
المعايش وأسكنهم فى قصور تذكرهم قصور الجنان فالسعداء الموفقون
منهم قد حصل لهم بفضله تعالى نعيم الدنيا والآخرة وهم على طريقة
شريفة وسنته في المعاشرة عجيبة وسيرتهم فى التزام رتب الخدمة غريبة
وعوائدهم من الاجتماع لسماع المشوق جميلة وربما فارق منهم الدنيا في
تلك الحالات المنفعل المثابر رقة وتشوقا وبالجملة فاحوالهم كلها بديعة
وهم يرجون عيشا طيبا هنيئاً ومن أعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف
بالقصر وهو صرح عظيم مستقل فى الهواء في أعلاه مسا كن لم ير اجمل
اشرافا منها وهو من البلد بنصف الميل له بستان عظيم يتصل به وكان
متنزها لاحد ملوك الاتراك فيقال انه كان فيه أحدى الليالى على راحة
فاجتاز به قوم من الصوفية فهريق عليهم من النبيذ الذى كانوا يشربونه
في ذلك القصر فرفعوا الامر لنور الدين فلم يزل حتى استوهبه من
صاحبه ووقفه برسم الصوفية مُؤبدا لهم فطال العجب من السماحة
بمثله وبقى أثر الفضل فيه مخلد النور الدين رحمه الله ومناقب هذا
الرجل الصالح كبيرة وكان من الملوك الزهاد وتوفي فى شوال سنة تسع
وستين وخمسمائة واستولى بعده على الامر صلاح الدين وهو على طريقة
من الفضل شهيرة وشأنه فى الملوك كبير وله الاثر الباقي شرفه من أزالة
المكوس بطريق الحجاز ودفعـه عوضاً عنها لصاحب الحجاز وكانت
الايام قد استمرت قديما بهذه الضريبة اللعينـة الى ان محا الله رسمها

على يدى هذا الملك العادل أصلحه الله ومن مناقب نور الدين رحمه الله تعالى انه كان عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زواية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافا كثيرة منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه وهو أبو الحسن على بن سردال الجياني المعروف بالاسود ان هذا الوقف المغربي يغل اذا كان النظر فيه جيداً خمسمائة دينار في العام وكان له رحمه الله بجانبهم فضل كبير نفعه الله بما أسلف من الخير وهيأ دياراً موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل يسكنونها ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمنتمين للطلب فالشان بهذه البلدة لهم عجيب جدا وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أجود فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الامور المعينات كثيرة فاولها فراغ البال من أمر المعيشة وهو أكبر الاعوان وأهمها فاذا كانت الهمة فقد وجد السبيل الى الاجتهاد ولا عذر للمقصر الا من يدين بالعجز والتسويف فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه وانما المخاطب كل ذى همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك فادخل أيها المجتهد بسلام وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الاهل والاولاد ويقرع سن الندم على زمن التضييع والله يوفق ويرشد لااله سواه قد نصحت ان الفيت سامعا

ونادبت ان اسمعت عجيبا ومن يهد الله فهو المهتدى جلت قدرته وتعالى جده ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقيـة كلها الا مبادرة أهلها لاكرام الغرباء وإيثار الفقراء ولا سيما أهل باديتها فانك تجد من بدار الى بر الضيف عجبا كفى بذلك شرفا لها وربما يعرض أحدهم كثرته على فقير فيتوقف عن قبولها فيبكي الرجل ويقول لو علم الله في خيرا لاكل الفقير طعامي لهم في ذلك سر شريف ومن عجيب أمرهم تعظيمهم للحاج على قرب مسافة الحج منهم وتيسير ذلك لهم واستطاعتهم لسبيله فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ويتهافتون عليهم تبركا بهم ومن أغرب ماحدثناه من ذلك ان الحاج الدمشقي مع من انضاف اليهم من المغاربة عند صدورهم الى دمشق في هذا العام الذي هو عام ثمانين ضرع الناس لتلقيهم الجم الفقير نساء ورجالا يصافحونهم ويتمسحون بهم وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها وأخرجوا اليهم الاطعمة فاخبرني من أبصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج ويناولنهم الخبز فاذا عض الحاج فيه اختطفنه من أيديهم وتبادرن لاكله تبركا بأكل الحاج له ودفعن له عوضا منه دراهم الى غير ذلك من الامور العجيبة ضد ما اعتدنا في المغرب في ذلك وصنع بناه في بغداد عند تاتي الحاج بها مثل ذلك أو قريب منه ولو شئنا استقصاء هذه الامور لخرجت بنا عن مقاصد التقييد وانما وقع الالماع بلمحة دالة يكتفى بها عن التطويل وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم ان أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال وينهال الخبز عليه من أهل

الضيعة ويلتزم الامامة أو التعليم أوماشاه ومتى سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى أو يصعد الى جبل لبنان أو الى جبل الجودي فيلتى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاه ويتصرف الى حيث شاه ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبو لهم القوت وأحسنوا اليهم ويقولون هؤلاء ممن انقطع الى الله عزوجل فتجب مشاركتهم وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة وقل ما يخلوا من التبتيل والزهادة واذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض ومن أعجب مايحدث به ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصاري وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم شاهدنا فى هذا الوقت الذى هو شهر جمادى الاولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك وهو من أعظم حصون النصارى وهو المعترض فى طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق قليلا وهو سرارة أرض فلسطين وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر انه ينتهي الي أربعمائة قرية فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره واختلاف القوافل من مصر الي دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك وتجار النصاري أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض وللنصارى على

المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي من الامنة على غاية وتجار
النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والاتفاق بينهم
والاعتدال في جميع الاحوال وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس
في عافية والدنيا لمن غلب هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي
الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا
ولا التجار فالامن لا يفارقهم في جميع الاحوال سلماً أو حرباً وشأن
هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفي الحديث عنه والله يعلى كلمة
الاسلام بمنه ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربية
من البلد وهي بأزاء باب الفرج من أبواب البلد وبها جامع السلطان
يجمع فيه وعلى مقربة منها خارج البلد في جهة الغرب ميدانان كأنهما
مبسوطان خزاً لشدة خضرتهما وعليهما حلق والنهر بينهما وغيضة
عظيمة من الحور متصلة بهما وهما من أبدع المناظر يخرج السلطان
اليهما ويلعب فيهما بالصوالجة ويسابق بين الخيل فيهما ولا مجال للعين
كمجالهما فيهما وفي كل ليلة يخرج أبناء السلطان اليهما للرماية والمسابقة
واللعب بالصوالجة وبهذه البلدة أيضاً قرب مائة حمام فيها وفي أرباضها
وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها وليس في هذه البلاد
كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن للمرافق بها كثيرة وفي الذي ذكرنا
من ذلك كفاية والله يبقيها دار اسلام بمنه وأسواق هذه البلدة من
أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وصفاً ولا سيما قيساريتها
وهي مرتفعات كأنها الفنادق منغلقة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب

القصور وكل قيسارية منفردة بصيقتها واغلاقها الجديدة ولها أيضاً سوق يعرف بالسوق الكبير يتصل من باب الجابية الى باب شرقي وفيه بيت صغير جداً قد اتخذ مصلى وفي قبلته حجر يقال ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم كان يكسر عليه الالهة التى كان يسوقها أبوه للبيع وحديث الدار المنسوبة لعمر بن عبد العزيز التى هي اليوم خانقة للصوفية وهي في الدهليز الذى في الباب الشمالي المعروف بباب الناطفيين وقد تقدم التنبيه عليه قبل هذا

حديث عجيب وذلك ان الذي اشتراها وبناها وجعل لها الاوقاف الواسعة وأمر بأن يدفن فيها وأن يختم على قبره القرآن كل جمعة وعين من تلك الاوقاف لمن يحضر ذلك كل جمعة رطلا من خبز الحوّاري وهو ثلاثة أرطال من أرطال المغرب رجل من العجم يعرف بالسميساطي وسميساط بلدة من بلاد العجم وكان موصوفاً بالورع والزهد وأصل يساره وتموله فيما ذكر لنا انه ألفى يوماً من الايام بالدهليز المذكور أزاء الدار المذكورة رجلا أسود مريضاً مطروحاً بموضعه غير ملتفت اليه ولا معتنىً به فتأجر فيه والتزم تمريضه وخدمته والنظر له اغتناماً للثواب من الله عز وجل فحانت وفاة الرجل فاستدعي ممرضه السميساطيّ المذكور فقال له أنت قد أحسنت اليّ وخدمتني ولطفت فى تمريضي واشفقت لحالي وغربتي فانا أريد أن أكافئك على فعلك بي زائداً الى فعل الله عز وجل عنى في الآجل ان شاء الله وذلك اني كنت من أحد فتيان الخليفة المعتضد العباسي ومعروفاً

بزمام الدار وكانت لي حظوة ومكانة فعتب عليّ في بعض الامر فخرجت طريداً فانتهيت الى هذه البلدة فأصابني من أمر الله ما أصابني فسيك الله لي رحمة فأنا أقلدك أمانة وأعهد اليك فيها عهداً اذا أنا مت وغسلتني فانهض على بركة الله تعالى الى بغداد وتلطف في السؤال عن دار صاحب الزمام فتى الخليفة فاذا أرشدت اليها فاصرف الحيلة في اكترائها وأرجوا أن الله تعالى يعينك على ذلك واذا سكنتها فاعمد الى موضع سماه له فيها وذكر له أمارة عليه فاحفر فيه مقداراً وانزع اللوح الذى تجده معترضاً تحت الارض وخذ الذى تجده مدفوناً تحت الارض وصرفه في منافعك ومايوفقك الله اليه من وجوه البر والخير مباركا لك فى ذلك ان شاء الله ثم توفى الرجل الموصى رحمه الله وتوجه الموصي اليه بعده الى بغداد فيسر الله له فى اكتراء الدار وانتهى الى الموضع المذكور فاستخرج منه ذخائر لا قيمة لها عظيمة الشأن كبيرة القدر فدسها في أحمال متاع أبتاعها وخرج الى دمشق من بغداد فابتاع الدار المذكورة المنسوبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وبناها خانقة للصوفية واحتفل فيها وأبتاع لها الاوقاف ضياعاً ورباعاً وجعلها برسم الصوفية وأوصى بأن يدفن فيها وان يختم القرآن على قبره كل جمعة وعين لكل من يحضر ذلك ماذكرناه فوجد الغرباء والفقراء فى ذلك مرفقاً كثيراً فتغص الخانقة بالقراءة كل جمعة فاذا ختم القرآن دعوا له وانصرفوا واندفع لكل واحد منهم رطل من الخبز على الصفة المذكورة وبقى للمتوفي جميل الأثر والخير رحمة الله ورضوانه عليه والكوثرية التى

الولوج فى جوف القبة على أحد شراجيبها المفتحة فى الرصاص فأبصرنا
مرأى تحار فيه العقول وتقف دون ادراك هيبة وصفه الافهام وجلنا
فى فرش من الخشب العظام حول القبة الصغيرة الداخلة في جوف
الرصاصية على الصفة التى ذكرناها ولها طيقان يبصر منها الجامع ومن
فيه فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان فى المحاضر وهذه القبة
مستديرة كالكرة وظاهرها من خشب قد شد بأضلاع من الخشب
الضخام موثقة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة وتجتمع
الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلاها وداخل هذه القبة
وهو ما يلى الجامع المكرم خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض
قد اتصل اتصالا عجيباً وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب
مزخرفة التلوين بديعة الترصيعة يرتمى الابصار شعاع ذهبها وتحير
الالباب فى كيفية عقدها ووضعها لافراط سموها أبصرنا من تلك
الخواتيم الخشبية خاتماً مطروحاً جوف القبة لم يكن طوله أقل من ستة
أشبار في عرض أربعة وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دور كل
واحد منها شبر أو شبران الغاية لعظم سموها والقبة الرصاص محتوية على
هذه القبة المذكورة وقد شدت أيضاً بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام
موثقة الاوساط بنطق الحديد وعددها ثمان وأربعون ضلعا بين كل
ضلع وضلع أربعة أشبار قد انعطفت انعطافاً عجيباً واجتمعت أطرافها
في مركز دائرة من الخشب أعلاها ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون
خطوة وهى مائتا شبر وستون شبراً والحال فيها أعظم من أن يبلغ

وصفها وانما هذا الذي ذكرناه نبذة يستدل بها على ما وراءها وتحت
الغارب المستطيل المسمي النسر الذى تحت هاتين القبتين مدخل عظيم
هو سقف للمقصورة يليه وبينها سماء جص مزينة وقد انتظم فيه من
الخشب ما لا يحصى عدده وانعقد بعضها ببعض وتقوس بعضها على
بعض وتركبت تركيباً هائلا منظره وقد أدخلت في الجدار كله دعائم
للقبتين المذكورتين وفي ذلك الجدار حجارة كل واحد منها يزن قناطير
مقنطرة لا تستقلها الفيلة فضلا عن غيرها فالعجب كل العجب من تطليعها
الى ذلك الموضع المفرط السمو وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك
فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة ومعينهم على التأتى
لما ليس موجوداً في طباعهم البشرية ومظهر آياته على أيدى من يشاء
من خلقه لا اله سواه والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة
قد قامت فوقها أرجل قصار ضخام من الحجارة الصم الكبار وقد
فتح بين كل رجل ورجل شمسية واستدارت الشمسيات باستدارتها
والقبتان في رأى العين واحدة وكنينا عنها باثنتين لكون الواحدة في
جوف الاخرى والظاهر منها قبة الرصاص ومن جملة عجائب ما عايناه
في هاتين القبتين ان لم نجد فيهما عنكبوتاً ناسجاً على بعد العهد من
التفقد لهما من أحد والتعاهد لتنظيف مساحتهما والعنكبوت
فى أمثالهما موجود كثير وقد كان حقق عندنا ان الجامع المكرم
لا تنسج فيه العنكبوت ولا يدخله الطير المعروف بالخطاف
وقد تقدم ذكرنا لذلك فى هذا التقييد فانصرفنا منحدرين وقد

قضينا عجباً عجاباً من هذا المنظر العظيم شأنه المعجز وصنعه المترفع عن
الادراك وصفه ويقال انه ما على ظهر المعمور أعجب منظراً ولا أبعد
سمواً ولا أغرب بنياناً من هذه القبة الا ما يحكى عن قبة بيت المقدس
فانها يذكر انها أبعد في الارتفاع والسمو من هذه وجملة الامر ان
منظرها والوقوف على هيئة وضعها وعظيم الاستقدار فيها عند معانيها
بالصعود اليها والولوج داخلها من أغرب ما يحدث به من عجائب الدنيا
والقدرة لله الواحد القهار لا اله سواه ولاهل دمشق وغيرها من هذه
البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة وذلك انهم يمشون امام الجنازة بقراء
يقرؤن القرآن بأصوات شجية وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس
شجواً وحناناً يرفعون أصواتهم بها فتتلقى الآذان بأدمع الاجفان
وجنائزهم يصلى عليها في الجامع قبالة المقصورة فلا بد لكل جنازة
من الجامع فاذا انتهوا الى بابه قطعوا القراءة ودخلوا الي موضع
الصلاة عليها الا أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته فان
الحالة المميزة له في ذلك أن يدخلوه في القراءة الى موضع الصلاة عليه
وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن بازاء باب البريد
فيصلون أفراداً أفراداً ويجلسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرؤنها
ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي
البلدة وأعيانهم ويحلونهم بخططهم الحائلة التي قد وضعوها لكل واحد
منهم بالاضافة الي الدين فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه أو
بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو

معينه أو مجيبه أو زكيه أو نجيبه الي ما لا غاية له من هـذه الالفاظ الموضوعة وتتبعها ولاسيما في الفقهاء بما شئت أيضاً من سيد العلماء وجمال الأئمة وحجة الاسلام وفخر الشريعة وشرف الملة ومفتي الفريقين الي ما لانهاية له من هذه الالفاظ الخالية فيصعد كل واحد منهم الى الشريعة ساحباً أذياله من الكبر ثانياً عطفه وقذاله فاذا استكملوا وفرغوا من القراءة وانتهى المجلس بهم منتهاه قام وعاظهم واحد واحـد بحسب رتبهم في المعرفة فوعظ وذكر ونبه على خدع الدنيا وحذر وأنشد في المعنى ما حضر من الاشعار ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفي ثم قعدوتلاه آخر على مثل طريقته الى أن يفرغوا ويتفرقوا فربما كان مجلساً نافعاً لمن يحضره من الذكرى ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة واذا لقى أحداً منهم آخر مسلماً يقول جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة كناية عن السـلام فيتعاطون المحال تعاطيا والجد عندهم عنقاء مغرب وصفة سلامهم ايماء للركوع أو السجود فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسـط وقبض وربما طالت بهـم الحالة فى ذلك فواحد يحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوياً وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء وعند استعراض رقيق الاماء فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال لقد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الابية منه واستعملوا تكفير الذي المنهي فى الشرع عنه لهم فى هذا الشأن طرائق عجيبة فى الباطل

فيالعجب منهم اذا تعاملوا بهذه المعاملة وانتهوا الى هذه الغاية في الالفاظ بينهم فيما اذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم لقد تساوت الاذناب عندهم والرؤوس ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس فسبحان خالق أطواراً لا شريك له ولا معبود سواه ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير بجميع هذه الجهات كلها انهم يمشون وأيديهم الى خلف قابضين بالواحدة على الاخرى ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة مهانة واستكانة كانهم قد سيموا تعنيفاً وأوثقوا تكتيفاً وهم يعتقدون تلك الهيئة تمييزاً لهم في ذوي الخصوصية وتشريفاً ويزعمون انهم يجدون بها نشاط في الاعضاء وراحة من الاعياء والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الارض شبراً أو يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى قد اتخذوا هذه المشية بينهم سنناً وكل منهم قد زين له سوء عمله فرآه حسناً أستغفر الله منهم فان لهم من آداب المصافحة عوائد تجدد لهم الايمان وتستوهب لهم من الله الغفران لما بشر به الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصافحة فهم يستعملونها أثر الصلوات ولا سيما أثر صلاة الصبح وصلاة العصر واذا سلم الامام وفرغ من الدعاء أقبلوا عليه بالمصافحة وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره فيتفرقون عن مجلس مغفرة بفضل الله عز وجل وقد تقدم الذكر فيما سلف من هذا التقييد انهم يستعملونها عند الاهلة ويدعوا بعضهم لبعض ويتعرف بركة ذلك الشهر ويمنه واستصحاب السعادة والخير فيه وفيما يعود عليه من أمثاله وتلك أيضاً طريقة حسنة ينفعهم الله بها لما

فيها من تعاطي الدعوات وتجديد المودات ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضاً رحمة من الله تعالى ونعمة وقد تقدم الذكر أيضاً في غير موضع من هذا الكتاب عن أحسن سيرة السلطان بهذه الجهات صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب وماله من المآثر المأثورة في الدنيا والدين ومثابرته على جهاد أعداء الله لانه ليس أمام هذه البلدة بلدة للاسلام والشام أكثره بيد الافرنج فهيأ الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات فهو لا يأوى لراحة ولا يخلد الى دعة ولا يزال سرجه مجلسه انا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين وحللناها وقد خرج لمنازلة حصن الكرك وقد تقدم الذكر أيضاً له وهو عليه محاصر له حتى الآن والله تعالى يعينه على فتحه وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة وزعمائها المسلمين بسدة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه في حضرة محفل علماء البلد وفقهائه ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاها عنه رأينا اثباتها هنا احداها ان الحلم من سجاياه فقال وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه أما أنا فلأن أخطئ في العفو أحب الي من أن أصيب في العقوبة وهذا في الحلم منزع أحنفي وقال أيضاً وقد تنوشدت بحضرته الاشعار وجرى ذكر من سلف من أكارم الملوك وأجوادهم والله لو وهبت الدنيا لمقاصد الآمل لما كنت أستكثرها له ولو استفرغت له جميع ما في خزائني لما كان عوضاً مما أراقه من حر ماء وجهه في استمناحه اياي وهذا في الكرم مذهب رشيدي أو جعفري وحضره أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة والأثرة مستعدياً على جمال ذكر

انه باعه جملا معيباً أو صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه فقال السلطان
ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعى
مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه ممتثلة وانما أنا عبد الشرع
وشحنته والشحنة عندهم صاحب الشرطة فالحق يقضي لك أو عليك
وهذا فى العدل مقصد عمرى وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخراً
والله يمتع ببقائه الاسلام والمسلمين بمنه

﴿شهر جمادى الآخرة عرفنا الله بركته﴾

استهل هلاله ليلة الاحد التاسع من شهر ستمبر العجمي ونحن بدمشق
حرسها الله على قدم الرحلة الى عكة فتحها الله والتماس ركوب البحر
مع تجار النصارى وفى مراكبهم المعدة لسفر الخريف المعروف عندهم
بالصليبية عرفنا الله فى ذلك معهود خيرته وتكفلنا بكلاءته وعصمنا
بعزته وقدرته انه سبحانه الحنان المنان ولى الطول والاحسان لا رب
غيره وكان انفصالنا منها عشى يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور
وهو الثالث عشر من شهر ستمبر المذكور فى قافلة كبيرة من التجار
المسافرين بالسلع الى عكة ومن أعجب ما يحدث به فى الدنيا ان قوافل
المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين شاهدنا
من ذلك عند خروجنا أمراً عجيباً وذلك ان صلاح الدين عند منازلته
حصن الكرك المتقدم الذكر في هذا التاريخ قصد اليه الافرنج فى جيعهم
وقد تالبوا من كل أوب وراموا أن يسبقوه الى موضع الماء ويقطعوا

عنه الميرة من بلاد المسلمين فصمد اليهم وأقلع عن الحصن بجملته
وسبقهم الى موضع الماء فحادوا عن طريقه وسلكوا طريقاً وعراً ذهب
فيه أكثر دوابهم وتوجهوا الى حصن الكرك المذكور وقد سد عليهم
ثنيات الطرق القاصدة الى بلادهم ولم يبق لهم الا طريق عن الحصن
فأخذ على الصحراء وبعد مداه عليهم بخليق يعترض فيه فاهتبل صلاح
الدين في بلادهم الغرة وانتهز الفرصة وقصد قصدها عن الطريق القاصد
فدهم مدينة نابلوس وهجمها بعسكره فاستولى عليها وسبى كل من فيها
وأخذ اليها حصوناً وضياعاً وامتلأت أيدى المسلمين سبياً لا يحصى
عدده من الافرنج ومن فرقة اليهود تعرف بالسمرة منسوبة الى السامري
وانبسط فيهم القتل الذريع وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق
الحصر عنها الى ما اكتنفت من الامتعة والذخائر والاسباب والاثاث الى
النعم والكراع والى غير ذلك وكان فعل هذا السلطان الموفق أن
أطلق أيدي المسلمين على جميع ما احتازته وسلم لهم ذلك فاحتازت كل
يد ما حوت وامتلأت غنى ويساراً وعفى الجيش على رسوم تلك
الجهات التي مر عليها من بلاد الفرنج وآبو غانمين فائزين بالسلامة
والغنيمة والاياب وتخلصوا من أسرى المسلمين عدداً كثيراً وكانت
غزوة لم يسمع بمثلها فى البلاد وخرجنا نحن من دمشق وأوائل المسلمين
قد طرقوا بالغنائم كل بما احتواه وحصلت يده عليه وكان مبلغ السبي
آلافاً لم نحقق احصاءها ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا
الاقرب ليوم انفصالنا وأعلمنا انه يجم عسكره قليلا ويعود الى الحصن

المذكور فالله يعينه ويفتح عليه بعزته وقدرته وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين وناهيك من هذا الاعتدال فى السياسة فكان مبيتنا ليلة الجمعة بدارية وهى قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة وبعده الى قرية تعرف ببيت جن هي بين جبال ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت الي مدينة بانياس واعترضتنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح أعلمنا انها تعرف بشجرة الميزان فسألنا عن ذلك فقيل لنا هي حد بين الامن والخوف فى هذه الطريق لحرامية الافرنج وهم الحواسة والقطاع من أخذوه وراءها الى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر ومن أخذ دونها الي جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك أطلق سبيله لهم فى ذلك عهد يوفون به وهو من أظرف الارتباطات الافرنجية وأغربها

﴿ ذكر مدينة بانياس حماها الله تعالى ﴾

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين وهى صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ويفضى الى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرحاء وكانت بيد الافرنج فاسترجعها نور الدين رحمه الله ولها محرث واسع فى بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للافرنج يسمى هونين بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج وبين المسلمين لهم فى ذلك حد يعرف بحد المقاسمة فهم يتشاطرون الغلة

على استواء ومواشيهم مختلطة ولا حيف يجري بينهم فيها فرحلنا عنها عشى يوم السبت المذكور الى قرية تعرف بالمسية بمقربة من حصن الافرنج المذكور فكان مبيتنا بها ثم رحلنا منها يوم الاحد سحراً واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر واكثر شجره الرند بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوى تلتقي حافتاه ويتعلق بالسماء أعلاه يعرف بالاسطبل لو ولجته العساكر لغابت فيه لا منجى ولامجال لسالكه عن يد الطالب فيه للمهبط اليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان فعجبنا من أمر ذلك المكان فأجزناه ومشينا عنه يسيراً وانتهينا الى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القوافل وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة هي أم الملك الخنزير صاحب عكة دمرها الله فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ومكس الناس تمكيساً غير مستقصى والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ولااعتراض على التجار فيه لانهم يقصدون موضع الملك الملعون وهو محل التعشير والضريبة فيه قيراط من الدينار والدينار أربعة وعشرون قيراطاً وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولااعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين وذلك لمقدمة منهم أحفظت الافرنج عليهم سببها ان طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤسهم فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم وقال الافرنج ان هؤلاء المغاربة

كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئاً فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع أخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم فللمغاربة في اداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو ويسهله عليهم ويخفف عنته عنهم ورحلنا من تبنين دمرها الله سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون وهم مع الافرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة وذلك انهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم فى غير ذلك ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم لانهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الاسلامي جور صنفه المالك له ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس بعدله فالي الله المشتكى من هذه الحال وحسبنا تعزية وتسلية ماجاء في الكتاب العزيز (ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكة على مقدار فرسخ ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة وأحضرهم صغيراً

وكبيراً فى غرفة متسعة بمنزله وأنالهم ألوانا من الطعام قدمها لهم فعمهم بتكرمته وكنا فيمن حضر هـذه الدعوة وبتنا تلك الليلة وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور وهو الثامن عشر لستمبر مدينة عكة دمرها الله وحملنا الي الديوان وهو خان معد لنزول القافلة وامام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصاري بمحابر الابنوس المذهبة الحلى وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب لقب وقع عليه لمكانه من الخطه وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند وكل مايجبى عندهم راجع الي الضمان وضمان هذا الديوان بمال عظيم فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعلاه وطلب رجل من لاسلعة له لئلا يحتوى على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله فنزل حيث شاء وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل فنزلنا بها فى بيت اكتريناه من نصرانية بازاء البحر وسألنا الله تعالى حسن الخلاص وتيسير السلامة

﴿ ذكر مدينة عكة دمرها الله وأعادها ﴾

هى قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجواري المنشئات فى البحر كالاعلام مرفأ كل سفينة والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطئ الاقدام تستعر كفراً وطغياناً وتفور خنازير وصلباناً زفرة قذرة مملوءة كلها رجساً وعذرة

كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئا فلما تعرضوا لحربنا
وتألبوا مع أخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم
فللمغاربة في اداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو
ويسهله عليهم ويخفف عنته عنهم ورحلنا من تبنين دمرها الله سحر يوم
الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون
وهم مع الافرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة وذلك انهم يؤدون
لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة
قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك ولهم على ثمر الشجر ضريبة
خفيفة يؤدونها أيضاً ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم
وكل ما بأيدي الافرنج من الملاق بساحل الشام على هذه السبيل
رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع وقد أشربت الفتنة قلوب
أكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم
لانهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق وهذه من الفجائع الطارئة
على المسلمين ان يشتكي الصنف الاسلامي جور صنفه المالك له ويحمد
سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس بعدله فالى الله المشتكى
من هذه الحال وحسبنا تعزية وتسلية ماجاء في الكتاب العزيز (ان
هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) فنزلنا يوم الاثنين
المذكور بضيعة من ضياع عكة على مقدار فرسخ ورئيسها الناظر فيها
من المسلمين مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من
المسلمين فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة وأحضرهم صغيراً

وكبيراً في غرفة متسعة بمنزله وأنالهم ألوانا من الطعام قدمها لهم فعمهم بتكرمته وكنا فيمن حضر هذه الدعوة وبتنا تلك الليلة وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور وهو الثامن عشر لستمبر مدينة عكة دمرها الله وحملنا الي الديوان وهو خان معد لنزول القافلة وامام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصاري بمحابر الابنوس المذهبة الحلى وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب لقب وقع عليه لمكانه من الخطه وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند وكل مايجبي عندهم راجع الي الضمان وضمان هذا الديوان بمال عظيم فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعلاه وطلب رجل من لاسلعة له لئلا يحتوى على سلعة محبوءة فيه وأطلق سبيله فنزل حيث شاء وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نصرانية بازاء البحر وسألنا الله تعالى حسن الخلاص وتيسير السلامة

﴿ ذكر مدينة عكة دمرها الله وأعادها ﴾

هي قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجواري المنشآت في البحر كالاعلام مرفأ كل سفينة والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطئ الاقدام تستعر كفراً وطغيانا وتفور خنازير وصلباناً زفرة قذرة مملوءة كلها رجساً وعذره

انتزعها الافرنج من أيدي المسلمين فى العشر الأول من المائة السادسة فبكي لها الاسلام ملء جفونه وكانت أحد شجونه فعادت مساجدها كنائس وصوامعها مضارب للنواقس وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدي المسلمين مسجداً صغيراً يجتمع الغرباء منهم فيه الاقامة فريضة الصلاة وعند محرابه قبر صالح النبي صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ببركة هذا القبر المقدس وفي شرقى البلدة العين المعروفة بعين البقر وهى التى أخرج الله منها البقر لآدم صلى الله عليه وسلم والمهبط لهذه العين على ادراج وطية وعليها مسجد بقى محرابه على حاله ووضع الافرنج فى شرقيه محرابا لهم فالمسلم والكافر يجتمعان فيه يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه وهو بأيدى النصاري معظم محفوظ وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين فكان مقامنا بها يومين ثم توجهنا الى صور يوم الخميس الثانى عشر لجمادى المذكورة والموفى عشرين لسبتمبر المذكور على البر واجتزنا فى طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب وهي مطلة على قرى وعمائر متصلة وعلى قرية مسوّرة تعرف باسكندرونة وذلك لمطالعة مركب بها أعلمنا انه يتوجه الى بجاية طمعاً في الركوب فيه فحللناها عشى يوم الخميس المذكور لان المسافة بين المدينتين نحو الثلاثين ميلا فنزلنا بها في خان معد لنزول المسلمين

﴿ ذكر مدينة صور دمرها الله تعالى ﴾

مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة لاتلقى لطالبها بيد طاعة ولا

استكانة قد أعدها الافرنج مفزعا لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لامانيهم
هي أنظف من عكة سككا وشوارع وأهلها ألين في الكفر طبائع
وأجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع فخلائقهم أسجح ومنازلهم
أوسع وأفسح وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن وعكة أكبر وأطغى
وأكفر وأما حصانتها ومنعتها فأعجب مايحدث به وذلك انها راجعة
الى بابين أحدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها الا من جهة
واحدة فالذي في البر يفضي اليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة
كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب وأما الذي في البحر فهو مدخل
بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها
يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب
الآخر جدار معقود بالجص فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها
وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها
الداخل والخارج فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها وعلى ذلك الباب
حراس وأمناء لايدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على أعينهم فشأن
هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ولعكة مثلها في الوضع والصفة
لكنها لاتحمل السفن الكبار حمل تلك وانما ترسي خارجها والمراكب
الصغار تدخل اليها فالصورية أكمل وأجمل وأحفل فكان مقامنا بها
احد عشر يوما دخلناها يوم الخميس وخرجنا منها يوم الاحد الثاني
والعشرين لجمادى المذكورة وهو آخر يوم من ستمبر وذلك ان المركب الذي
كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه فلم نر الركوب فيه ومن مشاهد

زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد
الايام عند مينائها وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء
واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة والبوقات تضرب والمزامير
وجميع الآلات اللهوية حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من
يمين وشمال كأنهما من ذوى أرحامها وهي فى أبهى زيٍّ وأفخر لباس
تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم وعلى
رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة وعلى لبتها مثل ذلك
منتظم وهي رافلة فى حليها وحللها تمشى فترا في فتر مشى الحمامة أو
سير الغمامة نعوذ بالله من فتنة المناظر وامامها جلة رجالها من النصارى
في أفخر ملابسهم البهية تسحب أذيالها خلفهم ووراءها أكفاؤها
ونظراؤها من النصرانيات يتهادين فى أنفس الملابس ويرفلن في أرفل
الحلى والآلات اللهوية قد تقدمتهم المسلمون وسائر النصارى من
النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم
ذلك فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة
فأدّانا الاتفاق الي رؤية هذا المنظر الزخرفى المستعاذ بالله من الفتنة
فيه ثم عدنا الى عكة في البحر وحللناها صبيحة يوم الاثنين الثالث
والعشرين من جمادى المذكورة وأول يوم من شهر اكتوبر واكترينا
في مركب كبير نروم الاقلاع الى مسينة من بلاد جزيرة صقلية والله
تعالي كفيل بالتيسير والتسهيل بعزته وقدرته وكانت راحتنا مدة
مقامنا بصور بمسجد بقى بأيدي المسلمين ولهم فيها مساجد أخر فأعلمنا

به أحد أشياخ أهل صور من المسلمين انها أخذت منهم سنة ثمان عشرة وخمسمائة وأخذت عكة قبلها بأنيف عشرة سنة بعد محاصرة طويلة وبعد استيلاء المسغبة عليهم ذكر لنا انهم انتهوا منها الحال نعوذ بالله منها وانهم حملتهم الانفة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها وذلك انهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجامع ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى لهم ثم يخرجوا الى عدوهم بعزمة نافذة ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ويقضي الله قضاءه فنعهم من ذلك فقهائهم والمتورعين منهم وأجمعوا على دفع البلد والخروج منه بسلام فكان ذلك وتفرقوا في بلاد المسلمين ومنهم من استهواه حب الوطن فدعاه الى الرجوع والسكنى بينهم بعد أمان كتب لهم في ذلك بشروط اشترطوها والله غالب على أمره سبحانه جلت قدرته ونفذ فى البرية مشيئته وليست له عند الله معذرة فى حلول بلدة من بلاد الكفر الا مجتازاً وهو يجد مندوحة فى بلاد المسلمين لمشقات وأهوال يعانيها فى بلادهم منها الذلة والمسكنة الذمية ومنها سماع ما يفجع الافئدة من ذكر من قدس الله ذكره وأعلى خطره لاسيما من أراذلهم وأسافلهم ومنها عدم الطهارة والتصرف بين الخنازير وجميع المحرمات الى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده فالحذر الحذر من دخول بلادهم والله تعالى المسئول حسن الاقالة والمغفرة من هذه الخطيئة التى زلت فيها القدم ولم تتداركها الا بعد موافقة الندم فهو سبحانه ولى ذلك لارب غيره ومن الفجائع التى يعانيها من

حل بلادهم أسرى المسلمين يرسفون في القيود ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد والاسيرات المسلمات كذلك في أسوقهن خلاخيل الحديد فتنفطر لهم الافئدة ولا يغني الاشفاق عنهم شيئاً ومن جميل صنع الله تعالى لاسرى المغاربة بهذه البلاد الشامية الافرنجية ان كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها انما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم وأنهم لا مخلص لهم سوي ذلك بعد الله عز وجل فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم فلوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل الثراء انما ينفقون أموالهم في هذه السبيل وقد كان نور الدين رحمه الله نذر في مرضة أصابته تفريق اثني عشر الف دينار في فداء أسرى من المغاربة فلما استبل من مرضه أرسل في فداءهم فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة وكانوا من حماة من جملة عمالته فأمر بصرفهم واخراج عوض منهم من المغاربة وقال هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم والمغاربة غرباء لا أهل لهم فانظر الي لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربي وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسير التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء أحدهما يعرف بنصر بن قوام والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطافي وتجارتهما كلها بهذا الساحل الافرنجي ولا ذكر فيه لسواهما ولهما الامناء من المقارضين فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما وشأنهما في الغنى كبير وقدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الاسرى المغربيين بأموالهما وأموال

ذوى الوصايا لانهما المقصودان بها لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما
وبذلهما أموالهما في هذه السبيل فلا يكاد مغربي يخلص من الاسر الا
على أيديهما فهما طول الدهر بهذه السبيل ينفقان أموالهما ويبذلان
اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله الكافرين
والله تعالى لايضيع أجر المحسنين ومن سوء الاتفاقات المستعاذ بالله من
شرها انه صحبنا فى طريقنا الي عكة من دمشق رجل مغربي من بونة
عمل بجاية كان أسيراً فتخلص على يدى أبي الدر المذكور وبقي في جملة
صبيانه فوصل فى قافلته الى عكة وكان قد صحب النصارى وتخلق بكثير
من أخلاقهم فما زال الشيطان يستهويه ويغريه الي أن نبذ دين الاسلام
فكفر وتنصر مدة مقامنا بصور فانصرفنا الى عكة وأعلمنا بخبره وهو
بها قد بطس ورجس وقد عقد الزنار واستعجل النار وحقت عليه
كلمة العذاب وتأهب لسوء الحساب وسحيق المآب نسأل الله عزوجل
أن يثبتنا بالقول الثابت فى الدنيا والآخرة ولا يعدل بنا عن
الملة الحنيفية وأن يتوفانا مسلمين بفضله ورحمته وهذا الخنزير صاحب
عكة المسمي عندهم بالملك محجوب لا يظهر قد ابتلاه الله بالجذام فعجل
له سوء الانتقام قد شغلته بلواه في صباه عن نعيم دنياه فهو فيها يشقى
ولعذاب الآخرة أشد وأبقى وحاجبه وصاحب الحال عوضه خاله
القومس وهو صاحب المجبى واليه ترتفع الاموال والمشرف على الجميع
بالمكانة والوجاهة وكبر الشأن في الافرنجية اللعينة القومس اللعين
صاحب طرابلس وطبرية وهو ذوقدر ومنزلة عند الافرنج وهوالمؤهل

للملك والمرشح له وهو موصوف بالدهاء والمكر وكان أسيراً عند نور الدين نحو اثنتي عشرة سنة أو أزيد ثم تخلص بمال عظيم بذله في نفسه مدة صلاح الدين وعند أول ولايته وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق لسهولة طريقها ويقصد بقوافل البغال على تبنين لوعورتها وقصد طريقها وبحيرة طبرية مشهورة وهي ماء عذب وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو أربعة وطولها نحو ستة فراسخ والاقوال فيها تختلف وهذا القول أقربها الى الصحة لانا لم نعاينها وعرضها أيضاً يختلف سعة وضيقاً وفيها قبور كثيرة من قبور الانبياء صلوات الله عليهم كشعيب وسليمان ويهوذا وروبيل وابنة شعيب زوج الكليم موسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وجبل الطور منها قريب وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام وهو بين المغرب والقبلة من عكة الى جهة الاسكندرية والله يعيده الى أيدي المسلمين ويطهره من أيدي المشركين بعزته وقدرته وهاتان المدينتان عكة وصور لا بساتين حولهما وانما هما في بسيط من الارض أفيح متصل بسيف البحر والفواكه تجلب اليهما من بساتينهما التي بالقرب منهما ولهما عمالة متسعة والجبال التي تقرب منهما معمورة بالضياع ومنها تجبى الثمرات اليهما وهما من غر البلاد ولعكة في الشرق منها مع آخر البلد واد يسيل ماء ولها مع شاطئه مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجمل منه منظراً ولا ميدان للخيل يشبهه واليه ركوب صاحب البلد كل بكرة وعشية وبه يجتمع العسكر دمره الله

الصور عند بابها البرى عين معينة ينحدر اليها على أدراج والآبار والجباب بها كثيرة لا تخلو دار منها والله تعالى يعيد اليها والى اخواتها كلمة الاسلام بمنه وكرمه وفي يوم السبت الثامن والعشرين لجمادى المذكورة والسادس لاكتوبر صعدنا الى المركب وهو سفينة من السفن الكبار بمنة الله تعالى على المسلمين بالماء والزاد وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الافرنج وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين وهم حجاج بيت المقدس عالم لا يحصي ينتهي الى أزيد من ألفى انسان أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة ومأمول التسهيل والصنع الجميل بمنه وكرمه ولا معبود سواه ونحن به منتظرون موافقة الريح وكمال الوثق بمشيئة الله عز وجل

شهر رجب الفرد عرفنا الله بركته ويمنه

استهل هلاله ليلة الثلاثاء بموافقة التاسع لشهر اكتوبر ونحن على ظهر المركب بمرسى عكة منتظرون كمال وسعة والاقلاع بسم الله تعالى وبركته وجميل صنعه وكريم مشيئته وتمادى مقامنا فيه مدة اثنى عشر يوماً لعدم استقامة الريح وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب وذلك ان الريح الشرقية لا تهب فيها الا فى فصلي الربيع والخريف والسفر لا يكون الا فيهما والتجار لا ينزلون الى عكة بالبضائع الا فى هذين الفصلين والسفر فى الفصل الربيعي من نصف ابريل فيه تحرك الريح الشرقية وتطول مدتها الى آخر شهر مايه وأكثر وأقل بحسب مايقضي الله تعالى به والسفر في الفصل الخريفي من نصف اكتوبر وفيه

تحرك الريح الشرقية ومدتها أقصر من المدة الربيعية وانما هي عندهم خلسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوماً وأكثر وأقل وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف والريح الغربيـة أكثرها دواماً فالمسافرون الي المغرب والى صقلية والى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية فى هذين الفصلين انتظار وعد صادق فسبحان المبدع في حكمته المعجز في قدرته لا اله سواه وكنا طول هـذه المدة التى أقمنا فيها على ظهر المركب نبيت فى البر ونتفقد المركب في الاحيان فلما كان سحر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور والثامن عشر لاكتوبر أقلع المركب وكنا على عادتنا في البر بائتين ولم يحسن النهار للروم بأهبة السفر فضيعنا الحزم ونسينا المثل المضروب في أعداد الماء والزاد وان لا يفارق الانسان رحله فاصبحنا والمركب لا عين له ولا أثر فاكتربنا للحين زورقاً كبير له أربعة مجاذيف وأقلعنا نتبعه وكانت مخاطرة عصم الله منها فأدركنا المركب مع العشى فحمدنا الله عز وجل على مامن به وكان أول ذلك اليوم يوم شدتنا في هذا السفر الطويل وآخره والحمـد لله يوم فرجنا ولله الحمد والشكر على كل حال واتصل جرينا والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها دافعة فى وجه المركب فأخذ رئيسه ومديره الرومي الجنوي وكان بصيراً بصنعته حاذقاً في شغل الرياسة البحرية يراوغها تارة يميناً وتارة شمالا طمعاً أن لا يرجع على عقبـه والبحر في أثناء ذلك وهو ساكن فلما كان نصف الليل أو قريب منه ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور

والسابع والعشرين لاكتوبر تردت علينا الريح الغربية فقصفت قرية الصارى المعروف بالاردمون وألقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع وعصم الله من وقوعها في المركب لأنها كانت تشبه السواري عظما وضخامة فتبادر البحريون اليها وحط شراع الصاري الكبير وعطل المركب من جريه وصيح بالبحريين الملازمين للعشارى المرتبط بالمركب فقصدوا الي نصف الخشبة الواقعة فى البحر وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها وحصلنا فى أمر لا يعلمه الا الله تعالي وشرعوا فى رفع الشراع الكبير وأقاموا فى الاردمون شراعا يعرف بالدلون وبتنا بليلة شهباء الى أن وضح الصباح وقدمن الله عز وجل بالسلامة وشرع البحريون فى اصلاح قرية أخرى من خشبة كانت معدة عندهم والريح الغربية على أول لجاجها ونحن بين اليأس والرجاء نتردد مغلبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعالي وخفى لطفه ومعهود فضله سبحانه هو أهل ذلك جلت قدرته وتناهت عظمته لا اله سواه وفي يوم الاربعاء الثالث والعشرين منه تحركت الريح الشرقية نسيما فاتراً عليلا فاستبشرت النفوس بها رجاء فى نمائها وقوتها فكانت نفساً خافتاً ثم بعد ذلك غشي البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ولم يبق للجهات الاربع نفس يتنسم فبقينا لاعين على صحفة ماء تخاله العين سبيكة لجين كأنا نجول بين سمائين وهذا الهواء الذى يسميه البحريون الغليني وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور وهو أول يوم من نوفمبر العجمي كان للنصارى عيد مذكور عندهم

احتفلوا له في اسراج الشمع وكاد لا يخلو أحد منهم صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثي من شمعة في يده وتقدم قسيسهم للصلاة فى المركب بهم ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم والمركب يزهو كله أعلاه وأسفله سرجاً متقدة وتمادينا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة ثم أصبحنا بمثل ذلك الهواء الساكن واتصل بنا ذلك الي ليلة الاحد السابع والعشرين منه فتحركت ريح شمالية فعاد المركب بها لجريته واستبشرت النفوس والحمد لله

﴿ شهر شعبان المكرم عرفنا الله خيره وبركته ﴾

غم هلاله علينا فأكملنا عـدة أيام رجب فهو على الكمال من ليلة الخميس بموافقة الثامن من نوفبر وقد تم لنا على ظهر البحر من يوم اقلاعنا من عكة أثنان وعشرون يوماً حتى عدمنا الانس واستشعرنا القنط واليأس وصنع الله عز وجل مأمول ولطفه الخفى بنا كفيل بمنـه وكرمه وقل الزاد بأيدي الناس لكن هم من هذا المركب بمنة الله تعالي فى مدينة جامعة للمرافق فكل ما يحتاج شراؤه يوجد من خبز وماء ومن جميع الفواكه والادم كالرمان والسفرجل والبطيخ السندى والكمثرى والشاهبلوط والجوز والحمص والباقلانيا مطبوخاً والبصل والثوم والتين والجبن والحوت وغير ذلك مما يطول ذكره عاينا جميع ذلك يباع وفي خلال هذه الايام كلها لم يظهر لنا بر والله يأتي بالفرج القريب ومات فيه رجلان من المسلمين رحمهما الله

فقذفا في البحر ومن البلغريين اثنان أيضاً ومات منهم بعد ذلك خلق
وسقط منهم واحد في البحر حياً فاحتملته الموج أسرع من خطفة البرق
وورث هؤلاء الاموات من المسلمين والنصارى البلغريين رئيس
المركب لانها سنة عندهم في كل من يموت في البحر ولا سبيل لوارث
الميت الى ميراثه فطال عجبنا من ذلك وفي سحر يوم الثلاثاء السادس من
الشهر المؤرخ والثالث عشر من نوفمبر ظهرت لنا جبال في البحر وقد
اشتدت الريح الغربية وتوالى اعصارها وكانت تنقلب بالقبول والدبور
فألجأتنا الى أحد تلك الجبال فارسينا عنده وسألنا عن الموضع فأعلمنا
أنه من جزائر الرمانية وهذه الجزائر نيف على الثلاثمائة وخمسين
جزيرة وهي الى عمل صاحب القسطنطينية والروم يحذرون أهلها
كحذر المسلمين لانهم لا صلح بينهم فاقمنا بذلك المرسى يوم الثلاثاء
المذكور وصدر يوم الاربعاء بعده ونزل من تلك الجزيرة قوم بايعوا
أهل المركب بعض ساعة من النهار في الخبز واللحم بعد أمان أخذوه
ثم أقلعنا يوم الاربعاء المذكور وقد تم لنا على ظهر المركب ثمانية
وعشرون يوماً وظهر لنا يوم الخميس بعده بر جزيرة أقريطش وهذه
الجزيرة أيضاً لعمل صاحب القسطنطينية وطولها نيف على الثلثمائة
ميل وقد تقدم ذكرها في سفرنا البحري الى الاسكندرية فبقينا نجري
بطولها وهي منا على اليمين والبحر في أثناء ذلك كله هائل والريح
لا توافق ونحن ننتظر الفرج من الله عز وجل بصبر جميل ونرتقب
منه جل جلاله معهود التيسير والتسهيل بمنه ولطفه وفي يوم السبت

العاشر لشعبان المذكور والسابع عشر لنوفمبر اقطع عنا بر الجزيرة المذكورة ونحن نجرى بريح شمالية موافقة فزئرت وعصفت فطار لها المركب بجناحي شراعه والبحر بها قد جن واستشر لجاجه وقذفت بالزبد أمواجه فتخال غواربه المتموجة جبالا متلاجة ومع تلك استشعرت النفوس الانس وغلب رجاؤها اليأس وقد كنا مدة الستة وعشرين يوماً المذكورة التي لم يظهر لنا فيها بر نرجم الظنون ونغازل المنون حذراً من نفاد الزاد والماء والحصول بين المهلكين الجوع والظماء فمن قائل يقول انا قد ملنا في جرينا الى بر الغرب وهو بر افريقية وآخر يزعم انا قد ملنا الى بر الارض الكبيرة بر القسطنطينية وما يليها ومنهم من يقول الى اللاذقية جهة الشام ومنهم من يقول الى دمياط بر الاسكندرية وكنا نحذر ان تلجئنا الريح الى أحد جزائر الرمانية الخالية فنشتو فيها أو تضطرنا الحال الى المعمور منها وليس في هذه الوجوه المتوقعة كلها وجه فيه حظ لمختار حتى أتى الله بالفرج وأذهب البأس واليأس ومكن في النفوس الايناس بعد مكابد الاسرين ومقاسا البرحين فلله در القائل

البحر مر المذاق صعب   لا جعلت حاجتى اليه
أليس ماء ونحن طين   فما عسى صبرنا عليه

ونحن الآن بفضل الله تعالى نتطلع البشرى بظهور بر صقلية ان شاء الله وفي النصف من ليلة الاحد الحادى عشر منه انقلبت الريح غربية وكشف النوء من المغرب وجاءت الريح عاصفة فأخذت بنا جهة الشمال وأصبحنا يوم الاحد المذكور والهول يزيد والبحر قد هاج

هائجه وماج مائجه فرمي بموج كالجبال يصدم المركب صدمات يتقلب لها
على عظمه تقلب الغصن الرطيب وكان كالسور علواً فيرتفع له الموج
ارتفاعاً يرمي فى وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب فلما جن الليل اشتد
تلاطمه وصكت الآذان غماغمه واستشرى عصوف الريح فحطت الشرع
واقتصر على الدلالين الصغار دون انصاف الصوارى ووقع اليأس من
الدنيا وودعنا الحياة بسلام وجئنا الموج من كل مكان وظننا انا قد
أحيط بنا فيا لها ليلة يشيب لها سود الذوائب مذكورة فى ليالى الشوائب
مقدمة فى تعداد الحوادث والنوائب ونحن منها في مثل ليل صول طولا
فأصبحنا ولم نكد فكان من الاتفاقات الموحشة ان أبصرنا برّ اقريطش
عن يسارنا وجباله قد قامت أماما منا وكنا قد خلفناه عن يميننا فاسقطتنا
الريح عن مجرانا ونحن نظن انا قد جزناه فسقط فى أيدينا وخالفنا
المجرى المعهود الميمون وهو أن يكون البر المذكور منا يميناً في استقبال
صقلية فاستسلمنا للقدر وتجرعنا غصص هذا الكدر وقلنا

سيكون الذى قضى   سخط العبد أو رضى

وفي أثناء ذلك انبسطت الشمس ولان البحر قليلا وصممنا نروم
أخذ مرسى فى البر المذكور الى أن يقضى الله قضاءه وينفذ حكمه
ولكل سفر أوان وسفر البحر انما هو فى أبانه والمعهود من زمانه لأن
يعتسف في فصول أشهر الشتاء اعتسافاً له والامر لله من قبل ومن بعد
فالحذر الحذر من ركوب مثل هذا الخطر وان كان المحذور لا يغنى
عن المقدور شيئاً وحسبنا الله ونعم الوكيل ثم ان الريح ساعدت عند

استقبالنا البر بعض مساعدة فانصرفنا عنه وتركنا يميناً وعدنا الى قريب
من المجرى المقصود وجرينا بعض ليلة الثلاثاء الثالث عشر منه وقد تم
لنا على ظهر المركب أربعة وثلاثون يوماً والشرع مصلبة وهو عندهم
أعدل جرى لانه لا يكون الا بالريح التى تلتقى مؤخر المركب في مجراه
فأصبحنا يوم الثلاثاء المذكور على مثل تلك الحال وساعدت الريح
ففرحنا وسررنا وطلعت علينا مراكب قاصدة مقصدنا فاستبشرنا بها
وعلمنا انا على مجري مقصودولله الحمد والشكر على كل حال من الاحوال
ثم انقلبت الريح غربية وهبت عاصفاً فألجئتنا اضطراراً بعد ان جرت
بنا بعض ليلة الاربعاء ويوم الاربعاء الى مرسى من مراسى جزائر
الرمانية وهو رأس الجزيرة ومنه الى الارض الكبيرة مجاز فيه الاثنا
عشر ميلا فأصبحنا يوم الخميس الخامس عشر لشعبان المكرم والثانى
والعشرين لنوفمبر فحمدنا الله عز وجل على ما من به من السلامة
وتوافت بعدنا الى ذلك المرسى خمسة مراكب منها أثنان كانا قد أقلع
من بر الاسكندرية عن عهد نحو خمسين يوماً فأسقطهما الريح فأقمنا
بذلك المرسى أربعة أيام وجدد الناس به الماء والزاد لان العمارة كانت
منا قريباً فنزل أهل الجزيرة وبايعوا أهل المركب فى الخبز واللحم
والزيت وما كان عندهم من الادم ولم يكن خبزهم براً خالصاً انما كان
خليط بالشعير وكان يضرب للسواد فتهافت الناس عليه على غلائه ولم
يكن بالرخيص في سومه وشكروا الله على ما من به عليهم وفي هذا
المرسى كمل لنا على ظهر البحر أربعون يوماً والحمد لله على كل حال

ومدة مقامنا بالمرسى لم يفتر عصوف الريح الغربية وعادت أشد ما يكون
هبوباً فحمدنا الله تعالى على أن لم تأخذنا ونحن على ظهر البحر جارين
والحمد لله على جميل صنعه وأقلعنا من المرسى المذكور يوم الاثنين
التاسع عشر لشعبان المذكور والسادس والعشرين لنوفمبر بريح طيبة
موافقة فاستبشرنا بها واستطلعنا جميل صنع الله عز وجل ولطف
قضائه لارب سواه وتمادى سيرنا الى يوم الخميس الثاني والعشرين
لشعبان والتاسع والعشرين لنوفمبر ثم انقلبت الريح غربية وأنشأت
سحابة فيها رعد قاصف وزجتها ريح عاصف وتقدمها برق خاطف
فأرسلت حاصباً من البرد صبته علينا في المركب شآبيب متداركة فارتاعت
له النفوس ثم أسرع انقشاعها وانجلى عن الانفس ارتياعها وبتنا ليلة
الجمعة مبيت وحشة وطالعنا اليأس من مكمنه فلما أسفر الصبح وطلع
النهار أبصرنا بر صقلية لائحاً أمامنا فيالها بشرى ومسرة لو لم يعد
حسرة في كره فأمسينا ليلة السبت وهو أول يوم من دسمبر ونحن على
ادراكه في أقل من ثلثها أو منتصفها ولكل أجل كتاب وميقات وكم
أمل تعترض دونه الآفات فما كان الاكلا ولا حتى ضربت في وجوهنا
ريح أنكصتنا على الاعقاب وحالت بين الابصار والارتقاب وما زالت
تعصف حتى كادت تنسف وتقصف فحطت الشرع عن صواريها
واستسلمت النفوس لباريها وتركنا بين السفينة ومجريها وتتابعت علينا
عوارض ديم حصلنا منها ومن الليل والبحر في ثلاث ظلم وعباب الموج
يتوالى صدمانه وتطفر الالباب رجفانه فنبذت نفوسنا كل أمنية وتأهبت

للقاء المنية وقطعنا هذه الليلة البهماء في مصادمة أهوال ومكابدة أوجال ومقاساة أحوال يالها من أحوال ثم أصبحنا يوم السبت ليوم عصيب أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب والامواج والرياح تترامي بنا حيث شاءت وقد استسلمنا للقضاء وتمسكنا بأسباب الرجاء ثم تداركنا صنع الله تعالى مع المساء ففترت الريح ولان متن البحر وأسفر وجه الجو وأصبحنا يوم الاحد ثاني دسمبر والخامس والعشرين لشعبان وقد بدّل لنا من الخوف الامان وتطلعت الوجوه كأنها انتشرت من الاكفان وساعدت الريح بعض مساعدة فمدنا نطلب من البر أثراً بعد عين ونرجم الظنون بين متي وأين والله عز وجل لطيف بعباده وكفيل بعهود صنعه الجميل ومعتاده لا رب سواه

شهر رمضان المعظم عرفنا الله البركة والقبول فيه بمنه وكرمه لا رب غيره

استهل هلاله ليلة الجمعة السابع لشهر دسمبر ونحن بازاء الارض الكبيرة على متن البحر مترددين وقد من الله علينا بريح شرقية فاترة المهب سرنا بها سيراً رويداً حتي وصلنا هذا الموضع من أزاء الارض الكبيرة المذكورة وأبصرنا فيها ضياعاً وعمارة كثيرة أعلمنا أنها من قلورية وهي من بلاد صاحب صقلية لان بلاده في الارض الكبيرة يتصل نحو شهرين وبهذا الموضع نزل كثير من البلغريين فائزين بأنفسهم

لمسغبة مست أهل المركب لعدم الزاد ونفاده وحسبك انا كنا نقتصر
على مقدار رطل من الخبز اليابس نتقسمه بين أربعة منا ونبله بيسير
من الماء فنتبلغ به وكل من نزل من البلغريين باع فضلة زاده فترفق
الملعون بابتياع ما أمكن منه على غلائه وانتهي الى مقدار خبزة
بدرهم من الخالص فما ظنك بعدة شهرين على ظهر البحر في مسافة
ظن الناس انهم يقطعونها في عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً الغاية فالحازم
من أدخل زاد ثلاثين يوماً وسائر الناس لعشرين يوماً ولخمسة عشر
يوماً ومن العجب في الاتفاقات في الاسفار البحرية انا استطلعنا على
ظهر البحر أهلة ثلاثة أشهر هلال رجب وهلال شعبان وهلال رمضان
هذا وفي يوم مستهله مع الصباح أبصرنا أمامنا جبل النار وهو جبل
البركان المشهور بصقلية فاستبشرنا بذلك والله تعالى يعظم أجورنا على
ما كابدناه ويختم لنا بأجمل الصنع وأسناه ويوزعنا في كل حال شكر
ما أولاه بمنه وكرمه ثم حركتنا من ذلك الموضع ريح موافقة فلما كان
عشى يوم السبت ثاني الشهر المذكور اشتد هبوبها فزجت المركب زجية
سريعة فلم يكن الا كلا ولا حتى أدنتنا الى أول المضيق والليل قد جن
وهذا المضيق ينحصر فيه البحر الى مقدار ستة أميال وأضيق موضع فيه
ثلاثة أميال يعترض من بر الارض الكبيرة الى بر جزيرة صقلية والبحر
بهذا المضيق ينصب انصباب السيل العرم ويغلي غليان المرجل لشدة
انحصاره وانضغاطه وشقه صعب على المراكب فاستمر مركبنا في سيره
والريح الجنوبية تسوقه سوقاً عنيفاً وبر الارض الكبيرة عن يميننا وبر

صقلية عن يسارنا فلما كان مع نصف ليلة الاحد الثالث للشهر المبارك
وقدشارفنا مدينة مسينةمن الجزيرة المذكورة دهمتنا زعقاتالبحريين
بأن المركب قد أمالتــه الريح بقوتها الى أحد البرين وهو ضارب فيه
فأمر رئيسهـم بحط الشرع للحين فلم يحط شراع الصارى المعروف
بالاردمون وعالجوه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح به فلما أعياهم
مزقه الرائس بالسكين قطعاً قطعاً طمعاً فى توقيفــه وفى أثناء هذه
المحاولة سح المركب بكلكله على البر والتقاه بسكانيه وهي أرجلاه
اللتـان يصرف بهما وقامت الصيحة الهائلة في المركب فجاءت الطامة
الطامة الـكبرى والصـدعة التي لم نطق لها جبراً والقارعة الصماء التى
لم تدع لنا صبراً والتدم النصارى التداماً واستـلم المسلمون لقضاء ربهم
استسلاما ولم يجدوا سوي حبل الرجاء استمسا كاواعتصاما وتطاورت
الريح والامواج صفح المركب حتى تكسرترجله الواحدة فألقى الريس
مرسى من مراسيه طمعاً في تمسكه به فلم يغن شيئاً فقطع حبله وتركه
في البحر فلما تحققنا انها هى قمنا فشددنا للموت حيازمنا وأمضينا على
الصـبر الجميل عزائمنا وأقمنا نرتقب الصباح أو الحين المتاح وقد علا
الصياح وارتفع الصراخ من أطفال الروم ونسائهـم وألقى الجميع عن
يد الاذعان وقد حيل بين الصبر والنزوان ونحن قيام نبصر البر قريباً
ونتردد بين أن نلقي بأنفسـنا اليه سبحاً أو ننتظر لعل الفرج من الله
يطلع صبحاً فأحضرنا نيـة الثبات والبحريون قـد ضموا العشارى
لاخراج المهم من رجالهم ونسائهم وأسبابهم فساروا به الى البر دفعة

واحـدة ثم لم يطيقوا رده وقذفته الموج مكسراً على ظهر البر فتمكن حينئذ اليأس من النفوس وفى أثناء مكابدة هذه الاحوال أسفر الصبح لجاء نصر الله والفتح وحققنا النظر فاذا بمدينة مسينة امامنا على أقل من نصف الميل وقد حيل بيننا وبينها فعجبنا من قدرة الله عز وجل فى تصريف أقداره وقلنا رب مجلوب اليه

حتفه فى عتبـة داره ثم تمكن الشروق فجاءتنا الزواريق مغيثة ووقعت الصيحة في المدينة فخرج ملك صقلية غليام بنفسه في جملة من رجاله متطلعاً لتلك الحال وبادرنا الي الـنزول فى الزواريق والامواج لشدتها لا يمكنها الوصول الى المركب فكان نزولنا فيها خاتمة الهول المظيم ونجونا الى البر منجى أبى نصر عن قدر وتلف للناس بعض أسبابهم فتسلوا عن الغنيمة بإيابهم ومن العجب على ما أخبرنا به ازهذا الملك الرومىّ المذكور أبصر فقراً من المسلمين يتطلعون من المركب وليس لهـم شيء يؤدونه في نزولهـم لان أصحاب الزواريق أغلوا على الناس فى تخليصهم فسأل عنهـم فأعلم بقصتهم فأمر لهم بمائة رباعي من سكته ينزلون بها وخلص جميع المسلمين عن سلام وقيل الحمد لله رب العالمين وفرغ النصاري جميع ما كان لهم فيه فأصبح في اليوم الثانى وقد جمات الامواج جـذاذاً ورمت به الى البر أفلاذاً فعاد عـبرة للناظرين وآية للمتوسمين ووقع العجب من سـلامتنا منه وجـددنا شكر الله عز وجـل على مامنّ به من لطايف صنعه وجميـل قضائه وتخليصه لنا من أن يكون هذا القدر ينفذ علينا في الارض الكبيرة أو

احدى جزائر الروم المعمورة فكنا لو سلمنا نستعبد للابد والله عز وجل يعيننا على أداء شكر هذه المنة والنعمة وما تداركنا به من لحظات الرأفة والرحمة انه على ذلك قدير وبعوائد الفضل والخير جدير لا إله سواه ومن جملة صنع الله عز وجل لنا ولطفه بنا في هذه الحادثة كون هذا الملك الرومي حاضراً فيها ولولا ذلك لانتهب جميع ما في المركب انتهابا وربما كان يستعبد جميع من فيه من المسلمين لان العادة جرت لهم بذلك وكان وصول هذا الملك لهذه البلاد بسبب أسطوله الذى ينشئه رحمة لنا والحمد لله على ما من به علينا من حسن نظره الكفيل بنا لا إله سواه

(ذكر مدينة مسينة من جزيرة صقلية أعادها الله تعالى)

هذه المدينة موسم تجار الكفار ومقصد جواري البحر من جميع الاقطار كثيرة الارفاق برخاء الاسعار مظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها لمسلم قرار مشحونة بعبدة الصلبان تغص بقاطنيها وتكاد تضيق ذرعاً بساكنيها مملوأة نتناً ورجساً موحشة لا يوجد الغريب انساً أسواقها نافقة حفيلة • وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة • لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان • وان كنت غريب الوجه واليد واللسان • مستندة الى جبال قد انتظمت حضيضها وخنادقها والبحر يعترض امامها في الجهة الجنوبية منها ومرساها أعجب مراسى البلاد البحرية لان المراكب الكبار تدنوا فيه من البر حتى تكاد تمسه وتنصب منها الى البر خشبة يتصرف عليها

فالجمال يصعد بحمله اليها ولا يحتاج لزواريق فى وسقها ولا فى
تفريغها الا ما كان سهياً على البعد منها يسيراً فتراها مصطفة مع البر
كاصطفاف الجياد في مرابطها واصطبلاتها وذلك لافراط عمق البحر
فيها وهو زقاق معترض بينها وبين الارض الكبيرة بمقدار ثلاثة أميال
ويقابلها منه بلدة تعرف (برية) وهي عمالة كبيرة وهذه المدينة مسينة رأس
جزيرة صقلية وهي كثيرة المدن والعمائر والضياع وتسميتها تطول
وطول هذه الجزيرة صقلية سبعة أيام وعرضها مسيرة خمسة أيام وبها
جبل البركان المذكور وهو يأتزر بالسحب لافراط سموه ويعتم بالثلج
شتاء وصيفاً دائماً وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف وكفى
بانها ابنة الاندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة مشحونة
بالارزاق على اختلافها مملوأة بأنواع الفواكه وأصنافها لكنها معمورة
بعبدة الصلبان يمشون فى مناكبها ويرتعون في اكنافها والمسلمون معهم
على أملاكهم وضياعهم قد حسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم
ضربوا عليهم اتاوة فى فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة
في الارض كانوا يجدونها والله عز وجل يصلح أحوالهم ويجعل العقبى
الجميلة مآلهم بمنه وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح والشاه بلوط
والبندق والاجاص وغيرها من الفواكه وليس في مسينة هذه من
المسلمين الا نفر يسير من ذوى المهن ولذلك مايستوحش بها المسلم
الغريب وأحسن مدنها قاعدة ملكها والمسلمون يعرفونها بالمدينة
والنصارى يعرفونها ببلارمة وفيها سكنى الحضريين من المسلمين ولهم

فيها المساجد والاسواق المختصة بهم في الارياض كثير وسائر المسلمين
باتباعها وجميع قراها وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها لكن المدينة
الكبيرة التي هي مسكن ملكها عليهام أكبرها وأحفلها وبعدها
مسينة وبالمدينة ان شاء الله يكون مقامنا ومنها نؤمل سفرنا الى حيث
يقضي الله عز وجل من بلاد المغرب ان شاء الله وشأن ملكهم هذا
عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب وكلهم
أو أكثرهم كاتم لعيانه متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين
وساكن اليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتى ان الناظر فى مطبخته
رجل من المسلمين وله جملة في من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد
منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته
والمرتسمون خاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسعون فى
الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة وما منهم الا من له الحاشية والخول
والاتباع ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الانيقة ولا
سيما بحضرة ملكه المدينة المذكورة وله بمسينة قصر أبيض كالحمامة
مطل علي ساحل البحر وهو كثير الاتخاذ الفتيان والجوارى وليس فى
ملوك النصارى أشرف فى الملك ولا أنعم ولا أرق منه وهو يتشبه
في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم
مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك واظهار زينته بملوك المسلمين وملكه
عظيم جداً وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص
عليهم حتى انه متى ذكر له أن طبيباً أو منجماً اجتاز ببلده أمر بامساكه

وأدرّ له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه والله يعيذ المسلمين من
الفتنة به بمنه وسنه نحو الثلاثين سنة كفى الله المسلمين عاديته وبسطته
ومن عجيب شأن المتحدث به انه يقرأ ويكتب بالعربيـة وعلامته على
ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به الحمد لله حق حمده وكانت علامة
أبيه الحمد لله شكراً لأنعمه وأما جواريه وحظاياه فى قصره فسلمات
كلهن ومن أعجب ما حدثنا به خديمـه المذكور وهو يحيي بن فتيان
الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك ان الافرنجية من النصرانيات
تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجواري المذكورات مسلمة وهن
على تكتم من ملكهن في ذلك كله ولهن في فعل الخـير أمور عجيبة
وأعلمنا انه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك
فكان يتطلع فى قصره فلا يسمع الا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه
وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليذكر كل أحد
منكم معبوده ومن يدين به تسكيناً لهم وأما فتيانه الذين هم عيون دولته
وأهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون مامنهم الا من يصوم الأشهر تطوعا
وتأجراً ويتصدق تقربا الى الله وتزلفا ويفتك الاسرى ويربي الاصاغر
منهم ويزوجهم ويحسن اليهم ويفعل الخير ما استطاع وهذا كله صنع
من الله عز وجـل لمسلمى هذه الجزيرة وسر من أسرار اعتناء الله
عز وجـل بهم لقينا منهم بمدينة فتى اسمه عبد المسيح من وجوههم
وكبرائهم بعد تقدمة رغبة منه الينا في ذلك فاحتفـل فى كرامتنا وبرنا
وأخرج الينا عن سره المكنون بعد مراقبة منه فى مجلسـه أزال لها

كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرق المباركة من مكة والمدينة قدسهما الله ورغب فى ان لا نبخل عليه بما أمكن من ذلك وقال لنا أنتم مدلون باظهار الاسلام فائزون بما قصدتم له رابحون ان شاء الله في متجركم ونحن كاتمون ايماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرًّا معتقلون في ملكة كافر بالله قد وضع في أعناقنا ربقة الرق فغايتنا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج واستهداء أدعيتهم والاغتباط بما نتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة لنتخذها عدة للايمان وذخيرة للاكفان فتفطرت قلوبنا له اشفاقا ودعونا له بحسن الخاتمة وأتحفناه ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه وأبلغ فى مجازاتنا ومكافأتنا واستكتمنا سائر اخوانه من الفتيان ولهم في فعل الجميل اخبار مأثورة وفى افتكاك الاسرى صنائع عند الله مشكورة وجميع خدمتهم على مثل أحوالهم ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان انهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون أفذاذاً من مجلسه فيقضون صلاتهم وربما يكونون بموضع تلحقه عين ملكهم فيسترهم الله عز وجل فلا يزالون بأعمالهم ونياتهم وبنصائحهم الباطنة للمسلمين في جهادها دائم والله ينفعهم ويجمل خلاصهم بمنه ولهذا الملك بمدينة مسينة المذكورة دار صنعة (البحر) تحتوي من الاساطيل على مالا يحصي عدد مراكبه

وله بالمدينة مثل ذلك فكان نزولنا في أحد الفنادق وأقمنا بها تسعة أيام فلما كان ليلة الثلاثاء الثاني عشر للشهر المبارك المذكور والثامن عشر لدسمبر ركبنا في زورق متوجهين الى المدينة المتقدم ذكرها وصرنا قريباً من الساحل بحيث نبصره رأي العين وأرسل الله عليها ريحاً شرقية رخاء طيبة زجت الزورق أحنا تزجية وسرنا نسرح اللحظ في عمائر وقرى متصلة وحصون ومعاقل في قنن الجبال مشرفة وأبصرنا عن يميننا في البحر تسع جزائر قد قامت جبالا مرتفعة على مقربة من بر الجزيرة اثنتان منها تخرج منهما النار دائماً وأبصرنا الدخان صاعداً منهما ويظهر بالليل ناراً حمراء ذات ألسن تصعد في الجو وهو البركان المشهور خبره وأعلمنا ان خروجها من منافس في الجبلين المذكورين يصعد منها نفس ناري بقوة شديدة تكون عنه النار وربما قذف فيها الحجر الكبير فتلقى به في الساعة الى الهواء لقوة ذلك النفس وتمنعه من الاستقرار والانتهاء الى القعر وهذا من أعجب المسموعات الصحيحة وأما الجبل الشامخ الذي بالجزيرة المعروف بجبل النار فشأنه أيضاً عجيب وذلك ان ناراً تخرج منه في بعض السنين كالسيل العرم فلا تمر بشيء الا أحرقته حتى تنتهي الى البحر فتركب ثبجة على صفحة حتي تغوص فيه فسبحان المبدع في عجائب مخلوقاته لااله سواه الى ان حللنا عشي يوم الاربعاء بعد يوم الثلاثاء المؤرخ مرسي مدينة شفلودي وبينها وبين مسينة مجرى ونصف مجري

(ذكر مدينة شفلودي من جزيرة صقلية أعادها الله)

هي مدينة ساحلية كثيرة الخصب واسعة المرافق منتظمة أشجار الاعناب وغيرها مرتبة الاسواق تسكنها طائفة من المسلمين وعليها قنة جبل واسعة مستديرة فيها قلعة لم ير أمنع منها اتخذوها عدة لاسطول يفجؤهم من جهة البحر من جهة المسلمين نصرهم الله وكان اقلاعنا منها نصف الليل فجئنا مدينة (ثرمة) ضحوة يوم الخميس بسير رويد وبين المدينتين خمسة وعشرون ميلا فانتقلنا فيها من ذلك الزورق الى زورق ثان اكتريناه لكون البحريين (الذين) صحبونا فيه من اهلها

(ذكر مدينة ثرمة من الجزيرة المذكورة فتحها الله)

هي أحسن وضعاً من الذي تقدم ذكرها وهي حصينة تركب البحر وتشرف عليه وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد ولها قلعة سامية منيعة وفي أسفل البلدة حمة قد أغنت أهلها عن اتخاذ حمام وهذه البلدة من الخصب وسعة الرزق على غاية والجزيرة بأسرها من أعجب بلاد الله في الخصب وسعة الارزاق فأقمنا بها يوم الخميس الرابع عشر للشهر المذكور ونحن قد أرسينا في واد بأسفلها ويطلع فيه المد من البحر ثم ينحسر عنه وبتنا بها ليلة الجمعة ثم اغلب الهواء غربياً فلم نجد للاقلاع سبيلا وبيننا وبين المدينة المقصودة المعروفة عند النصارى ببلارمة خمسة وعشرون ميلا فخشينا طول المقام وحمدنا الله تعالى على ما أنعم به من التسهيل في قطع المسافة في يومين وقد تلبث الزوارق في

قطعها على ما أعلمنا به العشرين يوما والثلاثين يوما ونيفاً علي ذلك فأصبحنا
يوم الجمعة منتصف الشهر المبارك على نية من المسير في البر على أقدامنا
فنفذ نا لطيتنا وتحملنا بعض أسبابنا وخلفنا بعض الاصحاب على الاصباب
الباقيــة في الزورق وسرنا في طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر
ووارد وطوائف النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسوننا
فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين مايوقع الفتنة في نفوس
أهل الجهل عصم الله جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم من الفتنة بهم بعزته ومنه
فانتهينا الى قصر سعد وهو على فرسخ من المدينة وقد أخذ منا الاعياء فملنا اليه
وبتنا فيه وهذا القصر على ساحل البحر مشيد البناء عتيقه قديم الوضع
من عهد ملكة المسلمين للجزيرة لم يزل ولا يزال بفضل الله مسكنا
للعباد منهم وحوله قبور كثيرة للمسلمين أهل الزهادة والورع وهو
موصوف بالفضــل والبركة مقصود من كل مكان وبازائه عين تعرف
بعين المجنونة وله باب وثيق من الحديد وداخله مساكن وعلالي مشرفة
وبيوت منتظمة وهو كامل مرافق السكنى وفى أعلاه مسجد من أحسن
مساجد الدنيا بهاء مستطيل ذو حنايا مستطيلة مفروش بحصر لطيفة
لم ير أحسن منها صنعة وقد علق فيه نحو الاربعين قنديلا من أنواع
الصفر والزجاج وامامه شارع واسع مستدير بأعلى القصر وفى أسفل
القصر بئر عذبة فبتنا فى هــذا المسجد أحسن مبيت وأطيبه وسمعنا
الآذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه وا كرمنا القوم الساكنون فيه
وله امام يصلى بهم الفريضة والتراويح في هذا الشهر المبارك وبمقربة من

هـذا القصر بنحو الميل الى جهة المدينة قصر آخر على صفته يعرف
بقصر جعفر وداخله سقاية تفور بماء عذب وأبصرنا للنصارى فى هذه
الطريق كنائس معدة لمرضى النصارى ولهم فى مدنهم مثل ذلك على
صفة مارستانات المسلمين وأبصرنا لهم بعكة وبصور مثل ذلك فعجبنا
من اعتنائهم بهـذا القدر فلما صلينا الصبح توجهنا الى المدينة فجئنا
لندخل فنعنا وحملنا الى الباب المتصل بقصور الملك الافرنجى أراح
الله المسلمين من ملكته وأدينا الى المستخلف من قبله ليسألنا على
مقصدنا وكذلك فعلهم بكل غريب فسلك بنا رحاب وأبواب وساحات
ملوكيـة وأبصرنا من القصور المشرفة والميادين المنتظمة والبساتين
والمراتب المتخذة لاهل الخدمة ماراع أبصارنا وأذهل أفكارنا وتذكرنا
قول الله عز وجل (ولو لا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنالمن يكفر
بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضـة ومعارج عليها يظهرون) وأبصرنا فيما
أبصرناه مجلساً فى ساحة فسيحة قد أحدق بها بستان وانتظمت جوانبها
بلاطات والمجلس قد أخذ استطالة تلك الساحة كلها فعجبنا من طوله
وأشراف مناظره فأعلمنا انه موضع غداء الملك مع أصحابه وتلك البلاطات
والمراتب حيث تقعد حكامه وأهل الخدمة والعمالة امامه فخرج الينا ذلك
المستخلف يتهادى بين خديمين يحفان به ويرفعان أذياله فأبصرنا شيخاً
طويل السبلة أبيض ذا ابهة فسألنا عن مقصدنا وعن بلدنا بكلام عربى
لين فأعلمناه فأظهر الاشفاق علينا وأمر بانصرافنا بعد ان أحفى فى السلام
والدعاء فعجبنا من شأنه وكان أول سؤاله لنا عن خبر القسطنطينية

العظمى وما عندنا منه فلم يكن عندنا مانعامه به وقد تقيد خبرها بعد هذا وكان من أغرب ماشاهدناه من الامور الفتانة ان أحد من كان قاعداً عند باب القصر من النصارى قال لنا عند انصرافنا عن القصر المذكور تحفظوا بما عندكم ياحجاج من العمال المسكين لئلا يقعوا عليكم وظن ان عندنا تجارة تقتضي التمكيس فاستجاب له أحد النصارى فقال ما أعجب أمرك يدخلون حرم الملك ويخافون من شئ ما كنت أود لهم الا آلافاً من الرباعيات انهضوا بسلام لا خوف عليكم فقضينا عجباً مما شاهدناه وسمعناه وخرجنا الى أحد الفنادق فنزلنا فيه وذلك يوم السبت السادس عشر للشهر المبارك والثانى والعشرين لدسمبر وفي خروجنا من القصر المذكور سلكنا بلاطاً متصلا مشينا فيه مسافة طويلة وهو مسقف حتى انتهينا الى كنيسة عظيمة البناء فأعلمنا ان ذلك البلاط ممشى الملك الى هذه الكنيسة

﴿ ذكر المدينة التى هى حضرة صقلية أعادها الله ﴾

هي بهذه الجزائر أم الحضارة والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ومراد عيش يانع أخضر عتيقة أنيقة مشرقة مؤنقة تتطلع بمرأى فتان وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان فسيحة السكك والشوارع تروق الابصار بحسن منظرها البارع عجيبة الشأن قرطبية البنيان مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذان يشقها نهر معين ويطرد فى جنباتها أربع عيون قد زخرفت

فيها لملكها دنياه واتخذها حضرة ملكه الافرنجي أباده الله تنتظم بلبنها
قصور انتظام العقود في نحور الكواعب ويتقلب من بساتينها وميادينها
بين نزهة وملاعب فكم له فيها لاعمرت به من مقاصير ومصانع ومناظر
ومطالع وكم له بجهاتها من ديارات قد زخرف بنيانها ورفه بالاقطاعات
الواسعة رهبتها وكنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها وعسى
الله عن قريب أن يصلح لهذه الجزيرة الزمان فيعيدها دار إيمان
وينقلها من الخوف للامان بعزته انه على مايشاء قدير وللمسلمين بهذه
المدينة رسم باق من الايمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة
بآذان مسموع ولهم ارباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى
والاسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ولا جمعة لهم بسبب الخطبة
المحظورة عليهم ويصلون الاعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي ولهم بها قاض
يرتفعون اليه في أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون
في وقيده في هذا الشهر المبارك وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها
محاضر لمعلمي القرآن وبالجملة فهم غرباء عن اخوانهم المسلمين تحت
ذمة الكفار ولا امن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ولا أبنائهم تلافاهم
الله بصنع جميل بمنه ومن جملة شبه هذه المدينة بقرطبة والشيء قد تشبه
بشيء من احدى جهاته ان لها مدينة قديمة تعرف بالقصر القديم هي في
وسط المدينة الحديثة وعلى هذا المثال موضوع قرطبة حرسها الله
وبهذا القصر القديم ديار كأنها القصور المشيدة لها مناظر فى الجو مطالمة
تحار الابصار في حسنها ومن أعجب ماشاهدناه بها من أمور الكفران

كنيسة تعرف بكنيسة الانطاكي أبصرناها يوم الميلاد وهو يوم عيد لهم عظيم وقد احتفلوا لها رجالا ونساء فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه ويقع القطع بأنه أعجب مصانع الدنيا المزخرفة جدرها الداخلة ذهب كلها وفيها من ألواح الرخام الملون مالم ير مثله قد رصعت كلها بفصوص الذهب وكللت بأشجار الفصوص الخضر ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج فتخطف الابصار بساطع شعاعها وتحدث في النفوس فتنة نعوذ بالله منها وأعلمنا أن بانيها الذى تنسب اليه أنفق فيها قناطير من الذهب وكان وزيراً لجد هذا الملك المشرك ولهذه الكنيسة صومعة قد قامت على أعمدة سوار من الرخام ملونة وعلت على أخرى سوار كلها فتعرف بصومعة السوارى وهى من أعجب مايبصر من البنيان شرفها الله عن قريب بالآذان بلطفه وكريم صنعه وزي النصرانيات في هذه المدينة زى نساء المسلمين فصيحات الالسن ملتحفات متنقبات خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفنا اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من تحلى والتخضب والتعطر فتذكرنا على جهة الدعابة الادبية قول الشاعر

ان من يدخل الكنيسة يوما ... يلق فيها جآذراً وظباء

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ويؤدى الى أباطيل اللهو ونعوذ به من تقييد يؤدي الى تفنيد انه سبحانه هو أهل التقوى وأهل المغفرة فكان مقامنا بهذه المدينة سبعة أيام ونزلنا بها في أحد

فنادقها التي يسكنها المسلمون وخرجنا منها صبيحة يوم الجمعة الثاني والعشرين لهذا الشهر المبارك والثامن والعشرين لشهر دسمبر الى مدينة (اطرابنش) بسبب مركبين بها أحدهما يتوجه الى الاندلس والثاني الى سبتة وكنا أقلعنا الى الاسكندرية فيه وفيهما حجاج وتجار من المسلمين فسلكنا على قرى متصلة وضياع متجاورة وأبصرنا محارث ومزارع لم نر مثل تربها طيباً وكرماً واتساعاً فشبهناها بقنبانية قرطبة أو هذه أطيب وأمتن وبتنا في الطريق ليلة واحدة في بلدة تعرف بعلقمة وهي كبيرة متسعة فيها السوق والمساجد وسكانها وسكان هذه الضياع التي في هذه الطريق كلها مسلمون وقمنا منها سحر يوم السبت الثالث والعشرين لهذا الشهر المبارك والتاسع والعشرين لدسمبر فاجتزنا بمقربة منها على حصن يعرف بحصن الحمة وهو بلد كبير فيه حمامات كثيرة وقد فجرها الله ينابيع من الارض وأسالها عناصر لا يكاد البدن يحتملها لافراط حرها فأجزنا منها واحدة على الطريق فنزلنا اليها عن الدواب وأرحنا الابدان بالاستحمام فيها ووصلنا الى طرابنش عصر ذلك اليوم فنزلنا فيها في دار اكتريناها

﴿ ذكر مدينة اطرابنش من جزيرة صقلية أعادها الله ﴾

هي مدينة صغيرة الساحة غير كبيرة المساحة مسورة بيضاء كالحمامة مرساها من أحسن المراسي وأوفقها للمراكب ولذلك من يقصد الروم كثيرا اليها ولا سيما المقلعون الى بر العدوة فان بينها وبين تونس

مسيرة يوم وليلة فالسفر منها اليها لايتعطل شتاء ولا صيفاً الا ريثما لاتهب
الريح الموافقة فمجراها في ذلك مجرى المجاز القريب وبهذه المدينة السوق
والحمام وجميع مايحتاج اليه من مرافق المدن لكنها في لهوات البحر
لاحاطته بها من ثلاث جهات واتصال البر بها من جهة واحدة ضيقة
والبحر فاغرفاه لها من سائر الجهات فأهلها يرون انه لابد له من
الاستيلاء عليها وان تراخى مدى أيامها ولا يعلم الغيب الا الله تعالى
وهي مرفقة موافقة لرخاء السعر بها لانها على محرث عظيم وسكانها
المسلمون والنصارى ولكلا الفريقين فيها المساجد والكنائس وبركنها
من جهة الشرق مائلا الى الشمال على مقربة منها جبل عظيم مفرط السمو
متسع في أعلاه قنة تنقطع عنه وفيها معقل للروم وبينه وبين الجبل
قنطرة ويتصل به في الجبل للروم بلد كبير ويقال ان حريمه من أحسن
حريم هذه الجزيرة جعلها الله سبياً للمسلمين وبهذا الجبل الكروم
والمزارع وأعلمنا ان به نحو أربعمائة عين منفجرة وهو يعرف بجبل
حامد والصعود اليه هين من احدى جهاته وهم يرون أن منه يكون
فتح هذه الجزيرة ان شاء الله ولا سبيل أن يتركوا مسلماً يصعد اليه
ولذلك ماأعدوا فيه ذلك المعقل الحصين فلو حسوا بحادثة حصلوا
حريمهم فيه وقطعوا القنطرة واعترض بينهم وبين الذي في أعلاه متصل
به خندق كبير وشأن هذا البلد عجيب فمن العجب ان يكون فيه من
العيون المتفجرة ماتقدم ذكره وطرابنش في هذا البسيط ولا ماء لها
الا من بئر على البعد منها وفي ديارها آبار قصيرة الارشية ماؤها كلها

شريب لايساغ والفين المركبين اللذين يرومان الاقلاع الى المغرب بها ونحن ان شاء الله نؤمل ركوب أحدهما وهو القاصد الى بر الاندلس والله بمعهود صنعه الجميل كفيل بمنه وفى غربى هذه البلدة اطرابنش المذكورة ثلاث جزائر في البحر على نحو فرسخين منها وهي صغار متجاورة احداها تعرف بمليطمة والاخرى يابسة والثالثة تعرف بالراهب نسبت الى راهب يسكنها فى بناء أعلاها كأنه الحصن وهى مكمن للعدو والجزيرتان لاعمارة فيهما ولا يعمر الثالثة سوي الراهب المذكور

(شهر شوال عرفنا الله بمنه وبركته)

استهل هلاله ليلة السبت الخامس من ينابر بشهادة ثبتت عند حاكم اطرابنش المذكورة بانه أبصر هلال شهر رمضان ليلة الخميس ويوم الخميس كان صيام أهل مدينة صقلية المتقدم ذكرها فعيد الناس على الكمال بحسب يوم الخميس المذكور وكان مصلانا في هذا العيد المبارك بأحد مساجد اطرابنش المذكورة مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج الى المصلى لعذر كان لهم فصلينا صلاة الغرباء جبر الله كل غريب الى وطنه وخرج أهل البلد الي مصلاهم مع صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات فعجبنا من ذلك ومن أغضاء النصارى لهم عليه ونحن قد اتفق كراؤنا فى المركب المتوجه ان شاء الله الى بر الاندلس ونظرنا في الزاد والله المتكفل بالتيسير والتسهيل ووصل أمر من ملك

صقلية بعقله المراكب بجميع السواحل بجزيرته بسبب الاسطول الذى يعمره ويعده فليس لمركب سبيل للسفر الى أن يسافر الاسطول المذكور خيب الله سعيه ولاتم قصده فبادر الروم الجنويون أصحاب المركبين المذكورين الى الصعود فيهما تحصناً من الوالى ثم امتد سبب الرشوه بينهم وبينه فأقاموا بمراكبهم ينتظرون هواء يقلعون به وفي هذا التاريخ المذكور وصلتنا أخبار موحشة من الغرب منها تغلب صاحب ميورقة على بجاية والله لا يحقق ذلك ويجعل العاقبة والهدنة للمسلمين بمنه وكرمه والناس بهذه المدينة يرجون الظنون في مقصدهذا الاسطول الذى يحاول هذا الطاغية تعميره وعدد أجفانه فيما يقال ثلاثمائة بين طرائد ومراكب ويقال أكثر من ذلك ويستصحب معه نحو مائة سفينة تحمل الطعام والله يقطع به ويجعل الدائرة عليه فمنهم من يزعم ان مقصده الاسكندرية حرسها الله وعصمها ومنهم من يقول ان مقصده ميورقة حرسها الله ومنهم من يزعم ان مقصده افريقية حماها الله ناكثاً لعهده في السلم بسبب الانباء الموحشة الطارئة من جهة المغرب وهذا أبعد الظنون من الامكان لانه مظهر للوفاء بالعهد والله يعين عليه ولا يعينه ومنهم من يرى ان احتفاله انما هو لقصد القسطنطينية العظمى بسبب ما ورد من قبلها من النبأ العظيم الشأن المهدى للنفوس بشائر تتضمن عجائب من الحدثان وتشهد للحديث المأثور عن المصطفى صلى الله عليه وسلم بصدق البرهان وذلك بأنه ذكر ان صاحبها توفى وترك بعده لزوجه ولها ابن صغير فقام ابن عم له فى الملك وقتل الزوج

المذكورة وثقف الابن المذكور ثم ان ابناً للثائر المذكور عطفته الرحمه على الابن المعتقل فأطلق سبيله وكان أبوه قد أمره بقتله فرمت به الاقدار الى هذه الجزيرة بعد خطوب جرت عليه فوردها على حالة ابتذال ومهنة استعمال خادماً لاحد الرهبان مسدلا على شارته الملوكية ستراً من الامتهان ففشي الامر وذاع السر ولم يغن عنه ذلك الستر فاستحضر عن أمر الملك الصقلي غليام المذكور قبل واستنطق واستفهم فزعم انه عبد لذلك الراهب وخديمه ثم ان طائفة من الروم الجنويين المسافرين الى القسطنطينية اثبتوا صفته وحققوا انه هو مع مخايل ودلائل ملوكية لاحت منه منها فيما ذكر لنا ان الملك غليام خرج فى يوم زينة له وقد اصطف الناس للسلام عليه وأحضروا الفتى المذكور في جملة الخاصة فصقع الجميع خدمة للملك وتعظيما لطلوعه عليهم الا ذلك الفتى فانه لم يزد على الايماء فى السلام فعلم ان الهمة الملوكية منعته من المدخل مدخل السوقة فاعتني به الملك غليام وأكرم مثواه وأزكى عيون الاحتراس عليه خوفاً من اغتيال يلحقه بتدسيس من ابن عمه الثائر عليه وكانت له أخت موصوفة بالجمال عاق بها ابن العم الثائر على الملك المذكور فلم يمكنه تزوجها بسبب ان الروم لا تنكح في الاقارب فحمله الحب المصمي والهوى المصم المعمي والسعادة التى تفضى بصاحبها الى العاقبة الحسنى وترمى على أخذها والتوجه بها الى الامير مسعود صاحب الدروب وقونية وبلاد العجم المجاورة للقسطنطينية وقد تقدم ذكر غنائه في الاسلام فيما مضي من هذا التقييد وحسبك ان صاحب

القسطنطينية لم يزل يؤدي الجزية اليه ويصالحه على ما يجاوره من البلاد
فأسلم مع ابنة عمه على يده وسيق له صليب ذهب قد أحمي عليه في النار
فوضعه تحت قدمه وهي عندهم أعظم علامات الترك لدين النصرانية
والوفاء بذمة دين الاسلام وتزوج ابنة العم المذكورة وبلغ هواه وأخذ
جيوش المسلمين معه الى القسطنطينية فدخلها بهم وقتل من أهلها نحو
الخمسين ألفاً من الروم وأعانه الاغريقيون على فعله وهم فرقة من فرق
أهل الكتاب وكلامهم بالعربية وبينهم وبين سائر الفرق من جنسهم
عداوة كامنة وهم لا يرون أكل لحم الخنزير فشفوا نفوسهم من أعاديهم
وقرع الله نبع الكفر بعضه ببعض واستولى المسلمون على القسطنطينية
ونقلت أموالها كلها وهو مالا يأخذه الاحصاء الى الامير مسعود وجعل
من المسلمين فيها ما ينيف على الاربعين ألف فارس واتصلت بلادهم
بها وهذا الفتح اذا صح من أكبر شروط الساعة والله أعلم بغيبه ألفينا
هذا الحديث بهذه الجزيرة مستفيضا على ألسنة المسلمين والنصارى
محققين لا شك عندهم فيه أنبأت به مراكب الروم التى وصلت من
القسطنطينية وكان أول سؤال مستخلف الملك بالمدينة لنا يوم أحضرنا
لديه عند دخولنا المدينة عما عندنا من خبر القسطنطينية فلم يكن عندنا
علم ولا تعرفنا معنى السؤال عنها الا بعد ذلك وتحققوه أيضاً من جهة
ملكها هذا الصبي وما كان من أتباع الثائر عليه اياه عيوناً تروم اغتياله
فهو اليوم بسبب ذلك عند صاحب صقلية محترس محافظ عليه لا يكاد
يصل لحظ العيون اليه وأخبرنا انه رطيب غصن الصبا مختدم حر

الشباب صقيل رونق الملك عليه ناظر فى علم اللسان العربي وغيره بارع فى الادب الملوكى ذو دهاء على فتوة سنه وغمرية شبيبته فالملك الصقلى على ما يذكر يروم توجيه الاسطول المذكور الى القسطنطينية أنفة لهذا الصبي المذكور وما جري عليه وكيفما توجه الامر فيه من هذه المقاصد فالله عز وجل ينكثه خاسراً على عقبه ويعرفه شؤم مذهبه ويجعل قواصف الرياح خاسفة به انه على ما يشاء قدير وهذا الخبر القسطنطيني حققه الله من أعظم عجائب الدنيا وكوائنها المرتقبة ولله القدرة البالغة فى أحكامه وأقداره

شهر ذى القعدة عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الاثنين الرابع من شهر فبراير ونحن بمدينة اطرابنش المتقدم ذكرها منتظرين انسلاخ فصل الشتاء واقلاع المركب الجنوي الذي أملنا ركوبه الي الاندلس ان شاء الله عز وجل والله سبحانه ييمن مقصدنا وييسر مرامنا بمنه وكرمه وفي مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها دمرهم الله وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهدة الذمة وغلظة الملك الى طوارىء دواعى الفتنة فى الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبنائهم ونسائهم وربما تسبب الى بعض أشياخهم أسباب نكالية تدعوه الى فراق دينه فنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم التي هى

حضرة ملكهم الطاغية ويعرف بابن زرعة ضغطه العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الاسلام والانغماس فى دين النصرانية ومهر فى حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الاحكام النصرانية وربما طرأ حكم اسلامي فيستفتى أيضاً فيه لما سبق من معرفته بالاحكام الشرعية ويقع الوقوف عند فتياه في كلا الحكمين وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة ومع ذلك فاعلمنا انه يكتم ايمانه فلعله داخل تحت الاستثناء في قوله (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) ووصل هذه الايام الى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم القائد أبو القاسم ابن حمود المعرف بابن الحجر وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابراً عن كابر وقرر لدينا مع ذلك انه من أهل العمل الصالح مريد للخير محب في أهله كثير الصنائع الاخروية من افتكاك الاسارى وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج الى مآثر جمة ومناقب كريمة فارتجت هذه المدينة لوصوله وكان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه فيها أحاديث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين أيدهم الله فكادت تقضى عليه لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات أغرمته نيفاً على الثلاثين ألف دينار مؤمنية ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقى دون مال فاتفق فى هذه الايام رضي الطاغية عنه وأمره

بالنفوذ لهم من أشغاله السلطانية فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه
وماله وصدرت عند وصوله الى هذه البلدة رغبة في الاجتماع بنا فاجتمعنا
به فأظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم
ما يبكي العيون دماً ويذيب القلوب ألماً فمن ذلك انه قال كنت أود لو
أباع أنا وأهل بيتي فلعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ويؤدي بنا الى
الحصول في بلاد المسلمين فتأمل حالا يؤدي بهذا الرجل مع جلالة
قدره وعظم منصبه الى أن يتمنى مثل هـذا التمني مع كونه مثقلا عيالا
وبنين وبنات فسألنا له الله عزوجل حسن التخليص مما هو فيه ولسائر
المسلمين من أهل هذه الجزيرة وواجب على كل مسلم الدعاء لهم في كل
موقف يقف بين يدي الله عز وجـل وفارقناه باكياً مبكياً واستمال
نفوسنا بشرف منزعه وخصوصية شمائله ورزانة حصاته وشمول مبرته
وتكرمته وحسن خلقه وخليقته وكنا قد أبصرنا له ولاخوته ولاهل
بيته بالمدينة دياراً كأنها القصور المشيدة الانيقة وشأنهم بالجملة كبير لاسيما
هذا الرجل منهم وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج
وصعاليكهم أصلحت أحوالهم ويسرت لهم الكراء والزاد والله ينفعه بها
ويجازيه الجزاء الاوفي عليها بمنـه ومن أعظم مامنى به أهـل هـذه
الجزيرة أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته أو تغضب المرأة
على ابنتها فتلحق المغضوب عليه آنفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة
فيتنصر ويتعمد فلا يجد الاب للابن سبيلا ولا الام للبنت سبيلا فتخيل
حال من منى بمثل هذا في أهله وولده ويقطع عمره متوقعاً لوقوع هذه

الفتنة فيهم فهم الدهر كله في مداراة الاهل والولد خوف هذه الحال وأهل النظر في العواقب منهم يخافون أن يتفق على جميعهم ما اتفق على أهل الجزيرة أقريطش من المسلمين في المدة السالفة فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعد الشيء حال بعد حال حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم وفر منهم من قضى الله بنجاته وحقت كلمة العذاب على الكافرين والله غالب على أمره لا اله سواه ومن عظم هذا الرجل الحمودي المذكور في نفوس النصارى أبادهم الله انهم يزعمون انه لو تنصر لما بقي في الجزيرة مسلم

الا وفعل فعله اتباعا له واقتداء به تكفل الله بعصمته جميعهم ونجاهم مما هم فيه بفضله وكرمه ومن أعجب ما شهدناه من أحوالهم التي تقطع النفوس اشفاقا وتذيب القلوب رأفة وحنانا ان أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه الى أحد أصحابنا الحجاج راغباً في ان يقبل منه بنتاً بكراً صغيرة السن قد راهقت الادراك فان رضيها تزوجها وان لم يرضها زوجها ممن رضى لها من أهل بلده ويخرجها مع نفسه راضية بفراق أبيها واخوتها طمعاً في التخلص من هذه الفتنة ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين فطاب الاب والاخوة نفسا لذلك لعلهم يجدون السبيل للتخلص الى بلاد المسلمين بأنفسهم اذ زالت هذه العقلة المقيدة عنهم فتأجر هذا الرجل المرغوب اليه بقبول ذلك واعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية الى خير الدنيا والاخرة وطال عجبنا من حال تؤدي بانسان الى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب واسلامها الى يد من يغربها واحتمال

الصبر عنها ومكابدة الشوق اليها والوحشة دونها كما أنا استقربنا حال الصبية صانها الله ورضاها بفراق من له رغبة في الاسلام واستمسا كا بعروته الوثقى والله عز وجل يعصمها ويكفلها ويؤنسها بنظم شملها ويجمل الصنع لها بمنه واستشارها الاب فيما هم به من ذلك فقالت له ان أمسكتني فأنت مسؤل عني وكانت هذه الصبية دون أم ولها اخوان وأخت صغيرة أشقاها

(شهر ذي الحجة عرفنا الله يمنه وبركته)

غم هلاله علينا لتوالي الانواء فاكملنا أيام شهر ذي القعدة بحسابه من ليلة الاربعاء السادس لشهر مارس ونحن بهذه المدينة المذكورة طامعين في قرب السفر مبشرين بطيب الهواء والله ييسر مرامنا ويتكفل بسلامتنا بعزته واتفق ان أبصرنا الهلال ليلة الاربعاء كبيراً فعلم أنه من ليلة الثلاثاء فانتقل حساب الشهر اليها وفي ظهر يوم الاربعاء التاسع من الشهر المذكور والثالث عشر من مارس وهو يوم عرفة عرفنا الله بركته وبركة الموقف الكريم فيه بعرفات كان صعودنا الى المركب يمنه الله ووزقنا السلامة فيه مبيتين للسفر قرب الله علينا مسافته فأصبحنا على ظهر المركب صبيحة عيد الاضحى نفعنا الله بمقاساة الوحشة فيه ونحن نيف على الخمسين رجلا من المسلمين عصم الله الجميع ونظم شملهم بأوطانهم بمنه وكرمه انه سبحانه كفيل بذلك ورمنا الاقلاع فلم توافق الريح فلم نزل نتردد من المركب الى البر ونبيت للسفر كل ليلة اثنى عشر يوما الي ان أذن الله بالاقلاع صبيحة يوم الاثنين الحادى

والعشرين لذى الحجة المذكور والخامس والعشرين لمارس فأقلعنا على
بركة الله تعالى في ثلاثة مراكب من الروم قد توافقت على الاصطحاب
في الجرى وأن يمسك المتقدم منها على المتأخر فوصلنا الى جزيرة
الراهب وقد تقدم ذكرها فى هذا التقييد وبينها وبين اطرابنش نحو
ثمانية عشر ميلا فتغير الريح علينا فملنا الى مرساها فكان من الاتفاق
العجب ان ألفينا فيها مركب مركون الجنوي المقلع من الاسكندرية
بنحو مائتي رجل ونيف من أصحابنا الحجاج المغاربة الذين كنا فارقناهم
بمكة قدسها الله في ذي الحجة من سنة تسع ولم نسمع لهم خبراً منذ فارقناهم
ولا سمعوا لنا وكان فيهم جماعة من أصحابنا من أهل غرناطة منهم
الفقيه أبو جعفر ابن سعيد صاحبنا ونزيلنا بمكة مدة مقامنا فيها فلحين
ما علموا بنا تطلعوا الينا من المركب متعلقين بحافاته وجوانبه رافعين
أصواتهم ببشرى السلامة واللقاء مسرورين بالاجتماع باكين من الفرح
دهشين ذاهلين لوقوع المسرة من نفوسهم ونحن لهم على مثل تلك
الحال فكان يوما مشهوراً اتخذناه عقب العيد عيداً جديداً ونزل الاصحاب
بعضهم الى بعض وباتوا وبتنا بأسر ليلة وأنعمها وجعلنا هذا الاجتماع
عنواناً كريماً لما نؤمله من انتظام الشمل بالاوطان ان شاء الله عز وجل
وأهب الله علينا ريحاً طيبة فى سحر تلك الليلة وهي ليلة الثلاثاء الثالث
والعشرين من الشهر المذكور فأقلعنا بها ونحن في أربعة مراكب كلها
تؤمل جزيرة الاندلس بحول الله تعالى وسرنا ذلك اليوم كله بريح تزجي
المراكب تزجية حثيثة ونحن من الشوق الى الاندلس بحال تكاد لها

النفوس تقوم مقام الرياح في حث الرياح وانزعاجها والله يمن بالتسهيل والتعجيل ثم انقلبت الريح غربية بعد مسير يوم وليلتين فضربت فى وجوهنا فانكصتنا على الاعقاب فرجعنا عوداً على بدأ الى مرسي جزيرة الراهب فوصلنا اليه ليلة الخميس الرابع والعشرين من الشهر المذكور ثم أقلعنا منه عشى يوم الجمعة بعده منفردين دون المراكب المذكورة فأزعجتنا ريح شديدة خرق لها المركب فى الجري فأصبحنا يوم الاحد السابع والعشرين من الشهر ونحن على طرف جزيرة سردانية وغد قطعناها جرياً وطولها أزيد من مائتي ميل فاستبشرنا وسررنا وقدر للمركب فى يوم وليلتين قطع نيف على خمسمائة ميل فكان أمراً مستغرباً ثم ان الريح الموافقة ركدت عنا وهبت ريح أسقطتنا ليلة الاثنين الثامن والعشرين منه وهو أول ابريل الى جهة بر افريقية فأرسينا يوم الاثنين المذكور بجزيرة تعرف بجالطة وهى جزيرة غير معمورة ويقال انها كانت معمورة فى القديم وهي مقصد العدو وبينها وبين البر المذكور نحو ثلاثين ميلا وهو منا رأي العين فأقمنا بها بعد أهوال لقيناها فى دخول مرساها عصم الله منها وتوالت الانواء علينا فيها ونحن ننتظر فرجاً من الله تعالى وكان مقامنا فيها أربعة أيام آخرها يوم الخميس مستهل محرم

﴿شهر محرم سنة احدى وثمانين عرفنا الله بركتها بمنه﴾

غم هلاله علينا فحسبنا على الكمال من ليلة الخميس الرابع لشهر

ابريل عرفنا الله بركة هذه السنة ويمنها ورزقنا خيرها ووقانا شرها ومن علينا بنظم الشمل فيها انه سميع مجيب وفى ليلة الجمعة الثاني منه أهب الله علينا ريحاً شرقية أقلعنا بها وهولين رخاء لى ان استشرى فعاد ريحاً شديدة جرى بها المركب أقوى جرى وأعد له وما زلنا منذ ركبنا البحر فتنسم هذا الافق الشرقي شوقاً الى ريحه فلا يهب منه نسيم حتي خلناه لعدمه عنقاء مغرباً الى أن تداركنا الله بلطفه وجميل صنعه فأجراه لنا الآن في شهر نيسان عرفنا الله السلامة بمنه وكرمه وصحبتنا هذه الريح الشرقية نحو يومين سرنا فيهما سيراً حثيثاً وتركنا جزيرة سردانية عن يميننا ثم تلاعبت بنا الرياح المختلفة فأقنابها نضرب البحر طولا وعرضاً ولايتراأى لنا بر حتى ساءت ظنوننا وتوهمنا اسقاط الرياح لنا الى جهة بر (برشلونه) دمرها الله الى أن أذن الله بالفرج فأبصرنا بر جزيرة يابسة ليلة السبت العاشر من الشهر المذكور ونحن لانكاد نتبينه لبعده خيالا خفياً فلما كان يوم السبت المذكور بان لنا فدخلنا مرسي الجزيرة المذكورة مع الليل بعد مكابدة اختلاف الرياح في دخوله فأرسينا والمدينة منا على مقدار أربعة أميال وكان ارساؤنا بازاء جزيرة (فرمنتيرة) وهي منقطعة على جزيرة يابسة وبينهما مقدار أربعة أميال أوخمسة وفيها قرى كثيرة معمورة فأقنا بمرساها ونحن بمقربة من الجبلين المنقطعين المتناظرين المعروفين بالشيخ والعجوز وفى تلك الليلة مع المغيب أبصرنا جبال بر الاندلس وأقربها منا جبل دانية المعروف بقاعون فحدقت الابصار لهذا البر سرور أبمرآه واستبشرت

الانفس بالدنو منه وأصبحنا يوم الاحد الحادي عشر من الشهر بالمرسي المذكور والريح غربية ونحن ننتظر تميم الصنع الجميل من الله عز وجل بارسال الريح الموافقة نشراً بين يدي رحمته ان شاء الله وفي ضحوة يوم الثلاثاء الثالث عشر منه أقلعنا على اليمن والبركة بريح شرقية لينة المهب لها أنفس خافت داعين الله عز وجل في احياء ذمائها وتقوية اجرائها وجبال دانية امامنا ورأي العين والله يتم فضله علينا ويكمل صنعه بعزته لنا وتمادت وانتشرت بفضل الله تعالى فنزلنا بقرطاجنة عشي يوم الخميس الخامس عشر منه شاكرين لله على ما منّ به من السلامة والعافية والحمد لله رب العالمين وصلواته على محمد خاتم النبيين وامام المرسلين ثم أقلعنا منها أثر صلاة الجمعة السادس عشر منه فبتنا في فحص قرطاجنة بالبرج المعروف ببرج الثلاثة صهاريج ثم منه يوم السبت الي مرسية ومنها في اليوم بعينه الى لبرالة ثم منها يوم الاحد الى الورقة ثم منها يوم الاثنين الي المنصورة ثم منها يوم الثلاثاء الى قنالش بسطة ثم منها يوم الاربعاء الى وادى آش ثم منها يوم الخميس الثاني والعشرين لمحرم والخامس والعشرين لابريل الي المنزل بغرناطة

فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قر عيناً بالاياب المسافر

والحمد لله على الصنع الجميل الذي أولاه • والتيسير والتسهيل الذي والاه • وصلواته على سيد المرسلين • والآخرين محمد رسوله الكريم ومصطفاه • وعلى آله وأصحابه الذين اهتدوا بهداه • وسلم وشرّف وكرّم فكانت مدة مقامنا من لدن خروجنا من غرناطه الى وقت ايابنا هذا عامين كاملين وثلاثة أشهر ونيفاً والحمد لله رب العالمين

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

فهرست رحلة ابن جبير الاندلسى

صحيفة

صحيفة

صحيفة

